الخائفون

القائمة القصيرة للبوكر العربية ٢٠١٨

ديمة ونّوس



دار الآداب

الخائفون

ديمة ونّوس

الخائفون

رواية

دار الآداب ـ بيروت

الخائفون

ديمة ونُّوس / كاتبة سوريّة

طبعة عام 2017

ISBN 978-9953-89-541-3



دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: rana@daraladab.com

info@daraladab.com

/Dar.Al.Adaab

@DarAlAdab

daraladab.com

إلى إبراهيم

كنت جالسة في عيادة كميل قبل خمسة عشر عامًا بالضَّبط.

هل تقرأ يا كميل ما أكتبه الآن؟ هل رنّ الرّقم في أذنيك؟ خمسة عشر عامًا يا كميل. هذا ما يُقال عنه «كلّ تلك السّنوات». وأنت تحدِّثني في الحلم عن أربع سنوات ونصف السنة على أنّها «كلّ تلك السّنوات»!

كنت جالسة في تلك العيادة الصغيرة جدًّا، تتَّسع وتتمدَّد وتستطيل حتى تستوعب عشرات الزائرين. قليلون منهم أتوا في مواعيد مسبقة محدَّدة منذ أسبوع أو أكثر. ومعظمهم أتى في حالات طارئة من خارج مدينة دمشق. يجلسون على الكراسي القليلة أو يفترشون الدرج الضيِّق في الخارج. كنت أدخِّن وأتأمَّل الجالسين بالقرب منِّي، والسكرتيرة المعجونة بعذوبة نادرة تقرأ المحاضرات المطبوعة، وتدرس بجدّ تحضيرًا لامتحانات منتصف السَّنة. تسترقّ النَّظر إليّ بين الحين والآخر، وتبتسم. هي ضجرة غالبًا على الرُّغم من عذوبتها. باستطاعة المرء أن يكون عذبًا وضجرًا في اللَّحظة ذاتها. سكرتيرة شابَّة تدرس وتعمل في الوقت نفسه. تعيل أسرتها المنكوبة ككثير من الأسر. أمُّها مصابة بكلّ أنواع الأمراض، منذ أن مات زوجها قبل أعوام. كانت امرأة نشيطة، جميلة، تلعب الحياة بجسدها الخمسينيّ الممشوق. ثمّ مات حبيبها، فأصيبت بضغط الدمّ والسّكريّ والكلاوي والغدَّة، وباتت كتلة رخوة تلازم الفراش. أختها المطلَّقة تعيش معهم بصحبة ابنتها الوحيدة البالغة من العمر سنتين. أخوها الوحيد فَقَد عقله قبل سنوات طويلة. كان في الواحدة والعشرين عندما أحبَّ زميلته في «كلّيَّة الفنون الجميلة»، حيث درست أنا أيضًا. زميلته تلك، ابنة ضابط برتبة صغيرة، تسكن في منطقة «المزّة ٨٦». شاهدها صدفة في الجامعة ابن رئيس فرع مخابرات. لم تقل لي ليلى أيّ فرع مخابرات ـ ليست المعلومة مهمَّة. أحبَّها وأراد اصطحابها في

نزهة إلى «استراحة» والده. «الاستراحة» هي المصطلح المتداول بين أبناء المسؤولين، ويدلّ على مزرعة في أطراف مدينة دمشق، تُمنح لكلّ ضابط برتبة رفيعة ليقضي مع عائلته أوقات الفراغ والإجازات. رفضت الصبيَّة عرضه، وكانت على علاقة بأخي ليلى. وفي أحد الصباحات، خُطف أخو ليلى وهو خارج من بيته، الواقع في مساكن برزة. اختفى أسبوعًا كاملًا. عاد بعدها جسدًا فارغًا. «علَّقوه لأيَّام من قدميه ورأسه يتدلَّى إلى الأسفل، حتَّى صفُّوا له آخر ذرَّة من عقله». أذكر تلك العبارة جيِّدًا. قالتها لي ليلى في إحدى الزيارات، ولم يكن في العيادة غيري وغيرها. قالت إنَّه عاد بلا عقله. ومنذ ذلك اليوم، يجلس أخوها في غرفته، مقفلًا الباب على نفسه، فاتحًا الشُّبَّاك المفضي إلى شارع مكتظّ من شوارع مساكن برزة، ينادي الناس ويقول لهم: «هل رأيتم الرَّئيس؟ إن شاهدتموه صدفة نادوا له. قولوا له إنَّني لن أخرج من غرفتي حتَّى يأتي هو شخصيًّا لزيارتي». ولم يكن يكترث أحد لكلامه. مجنون. فقد عقله. يتبوَّل من الشُّبَّاك موجِّهًا قضيبه على أحد المارة غير مكترث بالسُّباب والشتائم.

ليلى تقضي يومها في تلك العيادة الصغيرة بين أشخاص يشبهون أخاها بشكل أو بآخر، يمتلكون حكايات لا تقلّ غرابة عن حكايته. تدرس وتنظِّم المواعيد، تشرب الكثير من النسكافيه ممزوجة بالحليب، وتدخِّن بشراهة، وتعود إلى ذلك البيت لتعيل أمَّها، الكتلة الرَّخوة الملازمة للفراش، وأختها الوحيدة المطلَّقة وابنة أختها، وأخيها سجين الغرفة والجنون. وأنا كنت أراقب ليلى، وأفكِّر بتلك العذوبة المنهمرة من عينيها بالغصب، رغم كلّ شيء. إذ يصعب على المرء أن يكون الأمّ والأب والطبيب والزَّوج، وأن تبقى ملامحه حياديَّة تشبهه وحده. لا بدّ أن يصبح المرء بملامح أخرى يستعيرها من المهمَّات الصعبة الملقاة على كتفيه. فيصبح متجهِّمًا

في لحظة، وحاسمًا في لحظة أخرى. عيناه تكسوهما القسوة في رمشة عين، ويداعبهما الحنان في رمشة أخرى.

وأنا، كنت جالسة هناك أمرِّر نظري على الجالسين واحدًا تلو الآخر. دخل شابٌ في أوائل الثلاثينيَّات. طويل. عريض الكتفين. ملامح وجهه واضحة كأنَّها مرسومة رسمًا، أو منحوتة نحتًا. شعره الكثيف أسود فاحم. صدره بارز إلى الأمام؛ ورحت أغبطه، لأنَّ قفصه الصدريّ يتَّسع لكثير من الهواء. وتلك الغبطة لم أشعر بها في ذلك اللِّقاء الأوَّل والعابر، بل بعد أشهر طويلة من معرفتي به. أنا التي كنت أخاف من الاختناق، أُصاب بالهلع من فكرة أنَّ الهواء سينفد ولن يتسنَّى لي أخذ المزيد منه، وسأموت اختناقًا، بينما أراقب نسيم وهو يأخذ نفسًا عميقًا ليملأ رئتيه الأكثر اتِّساعًا منَّا نحن البشر العاديِّين، أصحاب الأقفاص الصدريَّة الضامرة أو بأفضل الأحوال المستوية مع بطوننا. لم ألحظ تلك المرَّة عضلاته المفتولة والقاسية، والبارزة بالتواءات تشي بأنَّ صاحبها مهووس بكلّ عضلة على حدة. يعمل بشقاء لتنمو كلّ واحدة بمعزل عن الأخرى. كان الشتاء والملابس السَّميكة تخفي تلك التفاصيل. لكنَّه في لحظة ما، شمّر عن ساعديه. ولمحت رسغيه ـ وأنا مهووسة بتلك المنطقة بين اليد والكوع. تلك المنطقة الممتدَّة على مساحة صغيرة، تحملني إلى فضاء آخر، لا تنقصه الرَّحابة ولا يخفت فيه الأوكسجين. كما أنَّني أعشق العظام. أحبّ نتوءات العظام في الجسم. لا تقنعني الأجساد التي تختفي عظامها وراء لحمها الغضّ. أروح أفتِّش عن تلك النتوءات البارزة في اليدين والرّسغ والحنجرة وبين الرقبة والصدر «عظام الترقوة»، الترقوة؟ كيف يمكن لكلمة على هذا القدر من الثقل أن تشير إلى منطقة فضفاضة ودافئة!

عندما جلس وشمَّر عن ساعديه، ورأيت عظمتيْ الرسغين البارزتين خلف بشرة ناعمة يكسوها شعر أسود خفيف، تدلَّيت بعينيَّ إلى قدميه.

بنطال الجينز مرفوع قليلًا لأنَّه يضع قدمًا فوق الأخرى. بين طرف حذائه الرِّياضيّ وأسفل بنطلون الجينز، تنبت تلك العظمة البارزة. ولم أعرف سببًا واضحًا ومنطقيًّا لذلك الشغف بالعظام. لم أقل لكميل إنَّني أحبّ العظام أكثر من أيّ شيء آخر.

جلس نسيم بكلّ ما يمتلك من عظام على الكرسيّ الحديد المغطّى بجلد بنّيّ رخيص. نظرت إليه. لم ينتبه إلى وجودي. في الواقع، لم ينتبه إلى وجود أيّ شخص آخر. حتّى إنَّه أشعل سيجارة وراح ينفض رمادها أرضًا. نظرت إليه ليلى والدهشة تعلو ملامحها. قالت له بنبرة هادئة: «ثمَّة منفضة سجائر على الطاولة أمامك». وكأنَّها بجملتها تلك قطعت شرودًا طويلًا كان غارقًا فيه نسيم، كذلك البحر الذي يخاف منه. فتح عينيه على اتِّساعهما، ولم يعتذر. اكتفى بالنَّظر إلى يساره حيث الطاولة ومنفضة مكسورة الحواف تعلوها. نفض سيجارته فيها، ولم يكترث للرَّماد الذي أسقطه على الأرض عن قصد. حتّى إنَّه لم ينحنِ لينظِّف الأرض تحته، كأنَّه في حديقة ما أو في الشَّارع، ونسمة هواء ستقوم بالمهمَّة عاجلًا أم آجلًا. كأنَّ ليلى ليست موجودة. لم يفترض نسيم أنَّ ليلى هي التي ستنحني بعد لحظات على الأرض لتلملم الرَّماد. ثمّ دخلت إلى موعدي قبله. وكنت وأنا أتحدَّث إلى كميل، أشعر بنسيم يسترق السَّمع إلى حياتي المنهمرة على أوراق كميل الكرتون الصغيرة الرَّاقدة على مكتبه، يسجِّل عليها رموزًا غير مفهومة. كنت، ذلك اليوم، مشحونة بالحزن، وقد خطَّطت مسبقًا أنَّني سأحدِّثه عن حلم غريب رأيته ليلة البارحة. إلَّا أنَّني غيَّرت رأيي. هل لأنَّ ذلك الرَّجل غريب الأطوار، صاحب العظام البارزة، يجلس هناك خلف الباب الخشب الرَّقيق؟ لم أحكِ لكميل أنَّني كنت جالسة على سطح عمارة قديمة من عمارات دمشق الواطئة. القمر مكتمل. أجلس على الحافَّة

غير عابئة باحتمال السُّقوط. أتأمَّل القمر سعيدة باكتماله. وفي الوقت ذاته، مدهوشة من نفسي، لأنَّني عادة لا أحبُّه مكتملًا. لا أحبّ الأشياء المكتملة، المدوَّرة، الممتلئة، المنتهية. أحبُّها ناقصة. النقصان يشعرني بالاكتمال والامتلاء. إلَّا أنَّني ذلك المساء، كنت سعيدة بالقمر مكتملًا، أحمرَ، مستديرًا كرغيف خبز. وكأنَّ اكتماله طالع من روحي. وكأنَّه مرآة تعكس اكتمالي وامتلائي بذاتي، أنا المشغولة غالبًا بتأنيب نفسي وجلدها وعقابها على خطايا قد أكون ارتكبتها وقد لا أكون. كل ما يحصل في العالم من أشياء سيِّئة، ألوم نفسي عليها، وكأنَّني أتحمَّل جزءًا من المسؤوليَّة. ربما لأنَّني خلقت. مجرَّد وجودي في هذا العالم الغريب، يجعلني مسؤولة عن جزء يسير من مصائبه. ثمَّ، سقط قلبي. كلَّا لم يسقط قلبي فجأة. سقط القمر على الأرض، فشعرت بقلبي يهوي معه. شعرت بفقدان موجع. في اللَّحظة ذاتها، مرَّت من أمامي في السَّماء المعتمة بعد سقوط القمر سيَّارة «قرقوعة» يقودها رجل، زوجته تجلس إلى جانبه. لا أعرف إن كانت زوجته، إلَّا أنَّ الضَّجر المرتخي على ملامحهما جعلني أشعر أنَّها زوجته. وهل كلّ الأزواج ضجرون؟! الرَّجل الذي يقود سيَّارته في السَّماء ستينيّ وزوجته كذلك. لم أحكِ لكميل عن ذلك الحلم. تلعثمت، وفقدت الرَّغبة بالكلام. وكميل يعصرني، يستجوبني، يجرجر الكلام من فمي. وأنا كنت أفكِّر بذلك الشَّابّ الجالس في الخارج. نظرت إلى عينيه وأنا خارجة من غرفة كميل. كان شاردًا. نظر إليَّ، إلَّا أنَّها نظرة شاردة، وكأنَّه ينظر إلى الباب يُفتح ويُغلق من دون أن يلمح أحدًا خارجًا من هناك.

بعد أسابيع طويلة من اللِّقاءات العابرة، كان موعده قبل موعدي بالضَّبط. خرج ودخلت. ثمَّ خرجت وودَّعت ليلى. نزلت الدرج الضيِّق والطويل. تفاجأت به جالسًا على آخر درجة أسفل العمارة المكوَّنة من

ثلاث طبقات. مررت بمحاذاته وسلَّمت عليه. نظر إليَّ تلك النظرة الشاردة ذاتها، وقال لي بلهجة غير مبالية: «انتظرتك خمسين دقيقة. هل تقبلين دعوتي على فنجان قهوة؟»، هززت برأسي موافقة. خرجنا من العمارة. مشينا سويَّة بلا وجهة محدَّدة. لم نتحدَّث طوال الطريق المفضي إلى شارع الحمرا، ثمَّ إلى الشعلان.. ثمَّ عند فندق الشام، توقَّف لثانية واحدة، ودخل دون أن يسألني إن كنت أفضِّل هذا المكان عن غيره. دخلت وراءه. اختار أقرب طاولة إلى الشُّبَّاك. جلست قبالته. نادى للشَّابِّ، وقال عبارة واثقة لا يشوبها أيّ تردُّد: «جبلي بيرة ألمازا باردة كتير». ولم يسألني ماذا أريد أن أحتسي. نظر إليَّ الشَّابّ مستوضحًا. «فنجان قهوة وسط»، قلت له. ونسيم لم ينظر إليَّ حتَّى تلك اللَّحظة. كان مشغولًا بالتَّحديق بالمارَّة في الخارج. وأنا شعرت بالارتباك. رحت أسأل نفسي: «ماذا أفعل هنا، مع هذا الشَّابّ الغريب صاحب العظام البارزة؟» حتَّى أنَّني لم أكن أعرف اسمه. وجدت الأمر غريبًا أن أسأله عن إسمه. إذ كيف لي أن أخرج مع رجل لا أعرف اسمه بعد! وهو لم يسألني كذلك. ربَّما لأنَّه لم يكن معنيًّا على الإطلاق بمعرفة اسمي. أشعل سيجارة. يدخِّن بطريقة غريبة. يأخذ مجَّة عميقة، ينفث بعضها كنتف غيم، ثمَّ يبتلعها من جديد. رحت أتأمَّل تلك النتف التي تخرج ثمَّ يبتلعها من جديد كلّها، من دون أن يفلت ولا أيّ خيط رفيع منها. بدا لي واثقًا، صلبًا، متين البنيان، كأنَّه مكتف وممتلئ بذاته، كما كنت في الحلم الذي لم أروِه لكميل ذلك اليوم. ما حاجته إلى كميل إذًا؟ رحت أتساءل. هل ليعزِّز تلك الثِّقة وليوطِّن تلك الصلابة؟ أم أنَّ كميل صنع منه ما هو عليه الآن؟ كان يحتسي البيرة من فوّهة الزجاجة. يضعها بين شفتيه ويتجرَّع منها متعمِّدًا. لا يترك ذلك السَّائل البنِّيّ يتسلَّل إلى فمه بفعل الجاذبيَّة، بل هو من يحدِّد الكمِّيَّة. مما زاد إحساسي بثقته

وصلابته. وأنا أشرب القهوة الفاترة. طعمها كان مغثيًا. شعرت بالتوتُّر يصعد إلى رأسي ويفرز عرقًا باردًا من جبيني. نبضات قلبي بدأت بركضها اللَّعين. دعساتها تتدفَّق إلى صدري وشراييني وعنقي. فتحت الجزدان بسرعة، ورحت أبحث ملهوجة عن علبة الكزانكس. قسمت نصف حبَّة ووضعتها تحت لساني، كما أوصاني كميل في حالات الفزع الشَّديد. تحت اللِّسان، تذوب الحبَّة أو نصفها، وتتسلَّل بسرعة أكبر إلى الرأس. ابتلعت في أثرها شفَّة ماء. لاحظ الشَّابّ مجهول الهويَّة ما فعلته. رآني ملهوجة أمدّ يدي إلى الجزدان وأستلّ العلبة، وأبتلع نصف حبَّة لا يعرف ماهيَّتها بالتأكيد، وأرتشف الماء. رآني. تقصَّد أن يتأمَّلني بهدوئه المعتاد. لم يكن هدوؤه معتادًا بالنسبة إليَّ ذلك الحين. ولم تتغيَّر ملامحه على الإطلاق. لم تتقلَّص ولم تتمدَّد. لم يتفاجأ، ولم يعتره أيّ فضول لمعرفة سبب ذلك التوتُّر المفاجئ. ممَّا سرَّع من مفعول نصف حبَّة الكزانكس. فأنا تزيد الأسئلة من ارتباكي في لحظات الفزع المفاجئ تلك. تزيد من هلعي فكرة أنَّني مطالبة بالتبرير والشرح والإجابة عن أسئلة تبدو لي عبثيّة. أنهى آخر قطرة من البيرة، ثمَّ طلب الفاتورة. دفع الحساب ونهض فجأة. قال لي: «شكرًا على قبولك دعوتي. سنلتقي مجدَّدًا بالتَّأكيد. سعدت بالتعرُّف إليك». ورحل كأنَّه لم يكن أصلًا. وأنا رحت أتساءل لماذا سنلتقي مجدَّدًا بالتَّأكيد؟ ما الذي يجعله متأكِّدًا؟ ثمَّ إنَّه سعد بالتعرُّف إليَّ! هل تعرَّف إليَّ فعلًا؟ لم نتحدَّث على الإطلاق! احتسى بيرته وأنا احتسيت قهوتي الفاترة والمغثية، ثمَّ رحل. هل كان يقصد أنَّنا سنجلس سوِيَّة مرَّة أخرى لنحتسي البيرة والقهوة؟ هل يفتقد لمن يجالسه ريثما ينتهي من احتساء البيرة؟

بعد عدَّة أسابيع، حدث الأمر ذاته. خرجت من عيادة كميل، فوجدته جالسًا على الدرج يدخِّن. قال لي: «قهوة؟». تلك اللَّحظة فكَّرت

كيف أنَّه كما المرَّة الماضية، دعاني إلى فنجان قهوة ثمَّ طلب بيرة. وأيضًا، ها هو يختصر الدَّعوة في المرَّة الثانية، بدل أن يقول لي عبارة كاملة عن رغبته في دعوتي إلى فنجان قهوة، لم يعثر إلَّا على كلمة «قهوة» مصحوبة بنبرة السُّؤال، وإشارة استفهام تحلِّق في الفضاء، كتلك التي أراها تطير حول رأسه مربوطة بحروف كثيرة، تغطِّي بعضها بعضًا وتحجب تفاصيل بعضها بعضًا. اكتفيت بهزِّ رأسي في موافقة عابرة على مضض. مشيت ومشى ورائي. لكنَّني هذه المرَّة، أضفت: «لا أحبّ مقهى فندق الشام». سألني: «ماذا تحبّين؟» قلت له بلا تردُّد: «مرمر». نظر إليَّ باستدارة مضبوطة الإيقاع، وبنظرة عينين لا تخلو من الدَّهشة. وقبل أن ألفظ أيّ كلمة تراجع، قال: «أوكّي». لا أعرف لماذا اقترحت «مرمر»، هل اقترحته لتكون الأمور واضحة منذ البداية؟ هل لأنَّه يسمِّي أيَّ دعوة بدعوة قهوة، حتَّى وإن كان سيحتسي البيرة؟ في «مرمر» لا مكان للقهوة غالبًا.

وقفنا على الرصيف المحاذي لعيادة كميل. السَّاعة كانت تجاوزت السَّابعة بقليل. نساء وأطفال وباعة متجوِّلون يفترشون رصيف «الجسر الأبيض» الطويل، ويعرضون بضائعهم الصينيَّة. الضجيج يصيبني بالتوتُّر. رحت أستعجل التَّقدُّم إلى الشارع لأستوقف سيَّارة تكسي. دقائق طويلة مرَّت قبل أن نعثر على سيَّارة تكسي. هو التزم مكانه على الرصيف، وأنا التي كنت أتقدَّمه بضع خطوات لأتمكَّن من العثور على سيَّارة فارغة وسط كلّ ذلك الزحام. ركبت في الخلف وركب إلى جانبي. استغربت. عادة، يجلس الرجال إلى جانب السَّائق. جلوسه وراء السَّائق إلى جانبي، أمر يستهجنه السَّائقون عادة. يعتبرونه إهانة لرجولتهم، أو في أحسن الأحوال انتقاصًا من رجولة الراكب في الخلف إلى جانب امرأة. ما إن استقرَّينا في الخلف، وقلت للسَّائق: «باب توما.. لو سمحت»، حتَّى تسلَّلت يده إلى

يدي. أمسك بيدي وهو ينظر من الشُّبَّاك. أمسكها بلا اكتراث، من دون أن يكلِّف نفسه عناء النَّظر في عينيَّ. وأنا لم أفكِّر لحظتها إلَّا أنَّني أعجبت بيديه. وأنَّ تلك اليد الجميلة تمسك بيدي الآن، ولن أفسد اللَّحظة. استسلمت يدي ليده ممسكة بها بقوَّة كي لا تفلت. يده كانت دافئة. وما زاد من دفئها برودة يدي. أيكون قلبه باردًا؟ أمِّي كانت تقول: «يد باردة، قلب دافئ». لكنَّني لم أسمعها تقول العكس ولا مرَّة!

لم أقل لليلى إنَّنا خرجنا سويَّة بضع مرَّات. ولا أعتقد أنَّه قال لها. هو أصلًا لم يكن على علاقة جيِّدة بليلى. منذ أن نفض سيجارته على الأرض، تبدَّت صعوبة أن يكونا على وفاق. لم يسألني لماذا أزور كميل. وأنا أيضًا لم أفعل. صرنا نخرج سويَّة مرَّة في الشَّهر، ثمَّ مرَّة كلَّ أسبوعين، ثمَّ انتظمت لقاءاتنا.. فلا يمضي أسبوع دون أن نلتقي مرَّة على الأقلّ. عرفت أنَّه كاتب. فتَّشت عن كتبه في كلّ المكتبات التي أعرفها وتلك التي لا أعرفها، ولم أعثر على كتاب واحد. حتَّى إنَّ اسمه لم يكن معروفًا للعاملين في تلك المكتبات، أولئك المطَّلعين على كلّ ما يمتُّ للكتب بصلة. لم نكن في زمن البحث على «غوغل» ذلك الحين. كانت حياتنا مغلقة حدّ الضجر. قلت له إنَّني لم أعثر ولا على كتاب واحد. ابتسم. لم يكن نسيم يتبسّم بسهولة على الإطلاق. تنفرج شفتاه عن ابتسامة يبدو واضحًا أنَّه أخرجها بشقّ النفس وبالغصب، ولا يرتاح حتى يقفلها. عرفت لاحقًا أنَّه ينشر كتبه باسم مستعار. «خوفًا من الملاحقة؟» سألته. رفع رأسه بالنفي. «بل خوفًا من الخوف». نقطة. لم يقل المزيد. وأنا شعرت برغبة حثيثة لعناقه. عناق هذا الرجل الغريب الذي يجلس قبالتي، ولا أعرف عنه شيئًا. أعرف أنَّ له عظامًا بارزة وأنَّه يكتب باسم مستعار. إلَّا أنَّني في تلك اللَّحظة، علمت أنَّني ألتقي مع هذا الرجل صاحب العظام البارزة في

نقطة غيّرت حياتي: «الخوف من الخوف». تحت وقع هذه العبارة، كنت أعيش بالضبط. ليس للخوف صورة واحدة أو معنى واحد، إلّا أنَّ ذلك الخوف من الخوف يتشارك أصحابه الطريق ذاته. طلبت منه أن يشرح لي أكثر معنى خوفه من الخوف، وقلت إنَّ الكاتب هو الأقدر على الشَّرح ربّما. هل يعقل أن تتعطَّل قدرتك على التخييل؟ «بالضبط، لأنَّ الإجابة عن سؤالك لا تمتّ للخيال بصلة». واكتفى بهذه العبارة.

نسيم يخاف من الخوف. لو نشر رواياته باسمه، سيخاف من أن يخاف! ليس خوفًا صافيًا من الاعتقال مثلًا، أو الملاحقة أو المساءلة أو المنع من السفر، وإنّما خوفًا يسبق ذلك الخوف. فهو حتّى لو لم يُعتقل أو يتعرَّض للمضايقة، سيخاف. وهو خائف من مجابهة خوفه ومخاوفه، لذا اختصر الخوف باستخدام إسم مستعار يحميه بطريقة أو بأخرى. ثمّ عندما تأمّلت عبارته أكثر، وجدت أنّه ليس مجرّد خوف من الخوف بعد النشر، بل من الخوف أثناء الكتابة. فهو عندما يكتب باسمه سيخاف وسيأسره الخوف. بينما يجعله الاسم المستعار أكثر انفتاحًا في الكتابة وأكثر جرأة متخلّصًا من الرقابة الذاتيّة. لأنَّ نسيم الذي هو، ليس كاتبًا بل طبيبًا. اسمه المستعار هو الكاتب. لكن لماذا لم يقل لي إنَّه طبيب، بل اختار التعريف عن نفسه ككاتب باسم مستعار. لم أسأله إن كان قد فكَّر ولو للحظة واحدة بصاحب دار النشر! أليس هناك احتمال أن يُستدعى صاحبها إلى التحقيق ليعترف بهوّيَّة الكاتب الحقيقيَّة؟ لم أسأله. خفت من الخوف. خفت أن أخيفه. وكنت لم أقرأ بعد ولا رواية من رواياته الثلاث.

كنت أمسك الموبايل بيدي اليمنى. أحكم وضعه على أذني. بيدي اليسرى أمسّد كتفي الأيمن، وأضغط بسبّابتي على ذلك الوريد البارز في عنقي من جهة اليسار. ألتقط نبضات قلبي، تركض، تهرع في أثر بعضها بعضًا. أخاف ويسري في شفتيَّ خدر، وأشعر ببرودة على جبيني وتحت أنفي، حيث بدأ العرق يتسرَّب بخفَّة محدثًا طبقة رقيقة ملسة. لم أعد أسمع صوته. أو بشكل أدقّ، لم أعد أفهم ما يقول. أسمع صوتًا يردِّد جملًا مربوطة بعضها ببعض بحروف غريبة وغير متقطِّعة. رحت أرى أمامي حروفًا تتطاير على شكل فوضى. لا أذكر منها سوى الألف والباء. باقي الحروف تضيع أشكالها في قلب بعضها بعضًا وخلف ظلال حروف أخرى. ثمَّ رأيته ممتطيًا حرف الباء، وممسكًا بالألف، والهمزة معلَّقة فوق رأسه كالقبَّعة. تلك الصُّورة التي ظلَّت تلازمني في كلّ مرَّة نلتقي. أجلس قبالته، أروح أحدِّق بالهمزة فوق رأسه. هو يظنّني أحدِّق في الفراغ، فلا يكترث كعادته. ربَّما، لم يكن عدم اكتراث، بل اعتياد على تحديقي في الفراغ. فأنا منذ عرفته بشكل جيِّد، بتُّ أحدِّق هناك، في اللاشيء، أيّ شيء إلَّا عينيه اللتين بتُّ أعرفهما جيِّدًا. فأنت عندما تعرف جيِّدًا، وتسمع القصَّة كاملة، وتختفي أيّ دهشة جديدة، تتوقَّف عن النَّظر، وتروح تفتِّش في العدم عن مكان تلجأ إليه عدا تلك العينين الأليفتين إلى حدّ الوجع.

ثمَّ توقَّف ذلك الصوت الخارج من السمَّاعة بحروفه المتَّصلة بعضها ببعض، والمترابطة كأنَّها قطار أحرف يعلِّم الأطفال النطق الأوَّل. واختفت الحروف المتطايرة أمامي. تلاشت وحلّ محلَّها صوت ضرب عنيف.

عرفت...

كنت أعرف منذ البداية أنَّ الاتِّصال سينتهي بضرب عنيف. فأنا إن صمتُّ لحظات أو لحظة واحدة، لا فرق، يبدأ بصفع وجهه. يروح يضرب

خدِّه الأيمن بيده اليمنى بعنف. أسمع صوت ارتطام أصابعه بخدِّه، وأراه أو أتخيَّله الآن أحمرَ. أثر أصابعه ينسلّ من بين شعيرات لحيته الخفيفة جدًّا. تلك الظلال التي ترخيها اللّحية على وجنتيه، تعكّرها آثار الأصابع الخمسة. هو يضرب بأصابعه الخمسة، بكفِّه كاملًا، كي يشعر بالرضا، كي يتألَّم. هل لأنَّه قال لي مرّة إنَّ اللّذة هي لحظة التخفُّف من الألم؟ هل يصفع نفسه ليشعر بالوجع ثمَّ اللَّذة ما إن ينجلي ذلك الوجع الخفيف؟ أم أنَّه يلطم؟ كانت زميلتي العراقيَّة في كلِّيَّة الفنون تقول دائمًا في مواجهة الإحباط أو السذاجة أو أيّ موقف يستدعي الصبر: «ألطم؟». هل هذا ما تقصده باللَّطم؟ أروح أتخيَّلها تلطم وأنا أسمع صوت يده تصفع وجهه. أكمّل صمتي، إذ لا أعرف كيف أقاطع ضربه لنفسه. فأنا لا أجيد التصرُّف في هذه اللَّحظات العبثيَّة. أرتبك. لا أخاف، لكنَّني أرتبك وأصاب بالإحباط من ارتباكي. ثمَّ كالعادة، يغلق الخطّ، فأتوقَّف عن سماع أيّ شيء. أروح أفكّر في اليدين. أنا لم أضرب نفسي يومًا، لكنَّني أعانق جسدي بيدي. غالبًا ما أفعل ذلك حتَّى أنَّني لا أذكر آخر مرَّة. أضمّ ساعديَّ بالاتّجاه المعاكس لموقعهما في الجسد، حتى تلامس أصابعي طرفيْ ظهري. أعانق نفسي وأمسّد خصلات شعري، وأهمس: «لا تخافي حبيبتي.. تنفَّسي ببطء وبعمق.. لا تخافي حبيبتي.. إنَّها نوبة هلع أخرى.. ستنجلي.. تنفَّسي».

كنت أقود السَّيَّارة. الطريق صاعد لا أعلم إلى أين! وأنا، كنت أيضًا جالسة على المقعد الأمامي إلى جانب نفسي التي تقود السَّيَّارة. أقسم أنَّني كنت جالسة هناك في المقعد الأماميّ إلى يمين السَّائق. وأنا نفسي كنت أيضًا أقود السَّيَّارة. إلَّا أنَّني لم أجد نفسي ولا للحظة واحدة في موقع الجالس بالقرب من السَّائق إلى اليمين. كنت دائمًا في موقع السَّائق ونفسي تجلس إلى جانبي، أسترقّ النَّظر إليها بين الحين والآخر. نفسي التي تجلس

بالقرب منّي لم تكن قلقة على الإطلاق. بينما أنا التي تقود السّيّارة صعودًا، كدت أموت من القلق والخوف. في الطّرف الآخر من الطّريق، ثمّة بحر عريض يفرش ماءه على مدّ النّظر، والرّياح كانت عاتية. وأنا أكره الرّياح. أحتمل البرد مهما بلغت قسوته، وأحتمل المطر الغزير أيضًا، أحمل ماءه فوق جسدي وأتلذّذ بذلك الانهمار الجارف. إلّا أنّني أكره الرّياح وأخاف صوتها وتمور روحي تحت هديرها، وأشعر أنّها ستقتلعني من مكاني وستعبث بتوازني حتى لو كنت مختبئة في بيتي، إلّا أنّ صوتها يصيبني بالذّعر. أقود السّيّارة صاعدة، والرّياح العاتية تحمل كمّيّات من ماء البحر المالح وتدلقها على الطّرف الآخر من الطريق، حيث أقود السّيّارة مع نفسي. وكان عليّ أن أستعجل وأصعد إلى القمّة حيث يوجد بيتي. لا أعرف إن كان بيتي، لكنّه البيت الذي أنتظر الوصول إليه بصبر حثيث. أدهشتني، نبضات قلبي التي راحت تلهث وتلهث في صعود السّيّارة إلى الأعلى. أدهشتني، لأنّني لم أكن أصعد ركضًا على قدميّ، بل كان كافيًا أن أدوس بطرف أصابع قدميّ على كبسة البنزين حتّى تسرع السّيّارة في صعودها، إلّا أنّ قلبي كاد ينفجر من عزم لهاث نبضاته. وأسترقّ النّظر إلى نفسي، فأجدها تتأمّل مشهد البحر المنقلب علينا بهدوء وبلامبالاة، وكأنّها تجلس على الشاطئ تنعم بشمس أيّار الدّافئة وبضحكات الأمهات وأطفالهنّ المغتبطين بقدوم الصيف. وأنا أستعجل الصعود قبل أن يلتهمنا البحر. مع أنّني لا أخاف في الواقع من البحر. المياه لا ترعبني. أجيد السباحة وركوب الأمواج، وجسدي ينساب مع حركة البحر وهيجانه. نسيم هو من يخاف البحر. يسبح بالعرض وليس بالطول. يقول لي إنّه يختنق إن لم تلامس قدماه الرّمل. نسيم يجيد السّباحة، إلّا أنّ الموضوع لا علاقة له بقدرته على السّباحة. ما إن ينزل إلى البحر، ويغمر الماء جسمه، حتّى يصبح ثقيلًا كصخرة. وذلك الثّقل يعيق حركته

ويجعله يبرطع في الماء كطفل لم يبلغ عامه الأوَّل بعد. إلّا أنَّ نسيم لم يكن معي تلك اللَّحظة، وأنا أقود السَّيَّارة صعودًا، وقلبي يلهث في ذعر جعل العرق يتصبَّب بغزارة من جسمي كلّه كمن يضع إسفنجة في الماء لساعات ثمَّ يعصرها. نعم، هكذا راح العرق يتصبَّب من جسمي كالإسفنجة. ونسيم الذي يخاف الموج والبحر لم يكن معي. كنت مع نفسي. ماذا يعني ذلك؟ أيكون الخوف الذي فتَّح مساماتي وجعل العرق يتسرَّب بغزارة منها، هو نسيم؟ حتى لو أنَّه لم يكن موجودًا بجسمه، روحه مغروزة بروحي، هناك في داخلي، في جوف خيالي وفي تلافيف ذاكرتي، التي عشتها والتي اكتسبتها وتلك التي لم أتعرَّف عليها بعد؟ وإلّا لماذا شعرت بكلّ ذلك الخوف؟ والدَّليل أنَّني التقيت به بعد لحظات قليلة في مكان آخر. لا أعرف أين بالضبط! مكان أشبه بالمطار. وأنا هنا لديَّ مجموعة من المخاوف تتعلَّق بالزحام ومشهد الناس راكضين بحقائبهم لاهثين، والطائرة والطيران والسقوط والموت. إلّا أنَّني لم أكن خائفة! وكأنَّني قبل لحظات استعرت خوف نسيم من البحر والماء والغرق. والآن في المطار، تخلَّصت من خوفي الأصليّ ونسيته. عوَّضت عن خوفي من السَّماء بخوفه من الأرض، أو ذلك الجزء من الأرض المغمور بالماء. كنت جالسة إلى طاولة كبيرة. نسيم يجلس بعيدًا منّي. وإلى جانبي، أعثر صدفة على كميل جالسًا يحتسي قهوته ويدخِّن. لم أسأله كيف يتجرَّأ على التَّدخين في مطار. ولم أتفاجأ بوجوده جالسًا إلى جانبي. لم أسأله كيف أتى إلى هنا. نظر إليَّ كالعادة من خلف سحابة الدُّخان المتسرِّبة من فمه وفتحتيْ أنفه. راح يعاتبني. قال إنَّني لم أتغيَّر طوال تلك السَّنوات. مازلت في المكان نفسه، أقف وأجلس وأحكي وآكل وأشرب وأدخِّن وأفكِّر. لم أتزحزح ولا خطوة واحدة. وأنا شعرت بالانزعاج. ما الذي أتى به الآن ليعاتبني ويشعرني بالإحباط من نفسي بعد كلّ تلك

السّنوات. استعرت جملته ذاتها: كلّ تلك السّنوات. مع أنّها ليست سوى أربع سنوات ونصف السنة. ليست عمرًا. إنّها بضعة أشهر تكدّست فوق بعضها بعضًا. إلّا أنّ إحساسي لحظتها كان كما إحساسه، بأنّها «كلّ تلك السّنوات» بالضبط. هي كلّ تلك السّنوات، لأنّ ما عشناه خلالها لا يمكن لسنوات أربع ونصف أن تستوعبها. مستحيل. قال لي: «ماذا فعلتِ بالخوف طوال كلّ تلك السّنوات؟». قلت له: «الخوف يكبر معنا». نظر إلى عينيّ تلك النظرة الشاردة الطالعة من الرّوح، وخرجت الكلمات من بين شفتيه المختبئتين خلف شاربٍ كثّ: «الخوف لا يكبر معنا، لكنّه قد يرافقنا طوال العمر. ماذا فعلتِ بخوفك حتى بات ملاصقًا لروحك؟» قلت له بنبرة مملوءة بالاحتجاج: «ليس لصيقًا بروحي». فقال مبتسمًا برفق يعكّره بعض اللُّوْم: «ليس لصيقًا؟ إنّني أراه ينسكب من عينيك، يطفح منهما». عندما قال إنّ الخوف يطفح من عينيّ، شعرت ببرد لاذع يلج إلى عينيّ بالقوّة، أغمضتهما، وتمنّيت لو أفتحهما فينتهي كلّ شيء. إلّا أنّ شيئًا لا ينتهي بهذه البساطة. فتحت عينيّ.. وكان كلّ شيء على حاله. كميل ونسيم والمكان الأشبه بالمطار المزدحم بالأنفاس والسماجة. وأنا أيضًا كنت على حالي، غير خائفة، مع أنّني موجودة في مطار، إلّا أنّني أراقب خوفي. فظيعة تلك الحالة. ألّا تكون خائفًا، إلّا أنّك تطلّ على خوفك وتراقبه بحذر. تحاول دفعه، الإمساك به ككمشة ورق ورميه بعيدًا. إلّا أنّ الورق خفيف. تحاول الإمساك به ككمشة حجارة وترميه بعيدًا فيبتعد ولا يظلّ ملاصقًا لك، أو قريبًا منك كأوراق شجر يانعة وخفيفة. ثمّ رأيت نسيم يرحل بدوني. لا بدّ أنّ موعد الدخول إلى الطائرة قد حان. لم أنده لنسيم، لم أصرخ. بالعكس، نهضت بكلّ هدوء، ودّعت كميل ومشيت ببطء بالاتجاه نفسه الذي مشى نسيم إليه. وكان قد اختفى تمامًا وراء كتل بشريّة تحمل حقائبها وتمشي بسرعة

كقطيع. إلى يساري، شاهدت الياس يخرج من غرفة خشب. الياس صديق والدي، كانا يعملان سوِّيَّة في مشفى الطلياني. اقتربت منه، فلاحظت الدمّ ينفر من أذنه اليسرى. وضع إصبعه في إذنه، حاول سدّ مجرى الدمّ، وقال بنبرة لا تخلو من الاستجداء: «دخيلك يا أنطوانيت، إلحقيني». لا أعرف من تكون أنطوانيت تلك. خرجت تلك الـ«أنطوانيت» من الغرفة الخشب مرتدية ملابس بيضاء ومنتعلة حذاء أبيض خاصًّا بالممرِّضين والممرِّضات. أمسكت به ومدَّدته في علبة معدن مستطيلة كالتابوت. حين مدَّدته، كان الدمّ قد بدأ يتسرَّب من كلّ مكان، كما العرق الذي تسرَّب من جسمي وأنا أصعد بالسَّيَّارة. والياس راح يغرق بدمائه الحارَّة الخارجة للتوّ من شرايينه، طازج لونها كالأقحوان. إلى يساره، يتمدَّد في علبة معدن مستطيلة كتلك التي يتمدَّد فيها الياس، رجل لا أعرفه. رأسه ووجهه مفتوحان من المنتصف. عيناه باتتا متباعدتين، لكنَّه لم يفقد بصره ومازال قادرًا على النَّظر، لأنَّه راح يحدِّق بعينيَّ باستجداء أيضًا. وأنا أقف عاجزة عن المساعدة. ولم يكن عجزي كذلك الذي نصادفه في الأحلام، حيث نحاول عبثًا الاقتراب. كان عجزًا حقيقيًّا. فأنا أستطيع الاقتراب ومازلت أمتلك قدميَّ، لكنَّني لم أقترب بإرادتي. رأسه المفتوح والمقسوم إلى قسمين كان مملوءًا بالبصل. أحجام مختلفة من البصل المقشَّر والمسلوق. لا أعرف كيف اكتشفت أنَّه مسلوق، لكنَّني على دراية وثقة بأنَّه كان مسلوقًا. ربما من شكله ولونه، لا أعرف! وما أهمِّيَّة الموضوع، إن كان طازجًا أو مقشَّرًا، لا فرق. تركتهما هناك يحتضران ورحلت. ركضت. أريد اللحاق بالطَّائرة وبنسيم الذي استعرت منه قبل لحظات خوفه من البحر. صعدت إلى الطَّائرة التي حلَّقت وطارت بالقرب من الأرض، حتَّى إنَّ النَّاس في المدينة التي حلَّقنا فوقها كان باستطاعتهم رفع أيديهم ولمس بطنها.

ذلك الصَّباح، فتحت عينيَّ على ضوء الفجر الخافت والمقبوض، وتمنَّيت بصدق لو أنَّني أستعير خوف نسيم من البحر، لو أنَّني آخذ خوفه وأرمي له كلّ مخاوفي الأخرى. ثمَّ فكَّرت بالبصل المسلوق الذي كان نابتًا من رأس الرجل مجهول الهوية. قاسية هي هذه الأحلام. فأنا لا أكاد أتخلَّص من لهاث اليوم الطويل عبر النوم، حتى يلاحقني اللهاث في الحلم.

وفتحت عينيَّ، وكان الفجر خافتًا ومقبوضًا كذلك الانقباض الممسك بروحي. أمسكت الموبايل بيدي اليمنى. أحكمت وضعه على أذني. بيدي اليسرى مسَّدت كتفي الأيمن وضغطت بسبَّابتي على ذلك الوريد البارز في عنقي من جهة اليسار. ألتقط نبضات قلبي، تركض، تهرع في أثر بعضها بعضًا. خفت. لم أعد أسمع صوته. أو بشكل أدقّ، لم أعد أفهم ما يقول. أسمع صوتًا يردِّد جملًا مربوطة بعضها ببعض بحروف غريبة وغير متقطِّعة. رحت أرى أمامي حروفًا تتطاير بشكل عشوائيّ وفوضويّ. ولا أذكر منها سوى الألف والباء. وباقي الحروف تضيع أشكالها في قلب بعضها بعضًا، وخلف ظلال حروف أخرى.... واختفت الحروف المتطايرة أمامي. تلاشت وحلّ محلَّها صوت ضرب عنيف. عرفت. كنت أعرف منذ البداية أنَّ الاتِّصال سينتهي بضرب عنيف. فأنا إن صمتُّ لحظات أو لحظة واحدة، لا فرق، يبدأ بصفع وجهه. لماذا أعيد كتابة ذلك المشهد؟ لا أعرف. لم أقل لنسيم إنَّني رأيته في الحلم وإنَّه سبقني إلى الطائرة ولم ينتظرني، وإنَّني للمرَّة الأولى لم أكن خائفة من الطَّائرة والمطار، والأهمّ أنَّني لم أقل له كيف استعرت خوفه من البحر. لم أقل له ذلك الصَّباح أن يطمئن، فقد خلَّصته من خوفه هذا إلى الأبد. بعد أن أغلق السمَّاعة، هل استمرّ نسيم في ضرب خدَّيه؟ هل بكى؟ نسيم لا يبكي. يقول إنَّ الرجل لا يبكي. لم أقل له يومًا إنَّ الرجل بهذا المعنى الأسطوريّ والتقليديّ، لا يكتفي بعدم البكاء فقط. عليه ألَّا يخاف أيضًا. وأنا لا أتحدَّث

هنا عن الخوف من الغرق. بل عن مخاوف أخرى أكثر تعقيدًا. إلّا أنَّ نسيم لا يبكي. تصل الدموع إلى حافّة جفنيه المبطنّين، وتترقرق عيناه بالدُّموع، فلا تنسكب، بل تعود أدراجها. يبتلعها نسيم. عيناه تبتلعان مثل حلقه بالضبط. مثلما كانت أمّي تقول لي وأنا صغيرة: «إبلعيها.. إبلعيها». كانت تمنعني من البكاء بأن تأمرني بابتلاع البكاء. وأنا كنت أمام ذلك المشهد، أسأل نفسي إن كان نسيم يخاف مثلًا من أن تنهمر دموعه فيغرق بها! هل بلغ ذعره من الغرق ذلك الحدّ! أن يمنع نفسه من البكاء خوفًا من أن تنسكب تلك الدُّموع، وتغمر جسده، ويروح يبرطع فيها غير قادر على التنفُّس؟

لم أقل له شيئًا.

وكنت مرتبكة أمام تلك الأوراق. أرسلها لي كمخطوط لرواية رابعة، ظننته أنهاها. لأكتشف، وأنا ألتهمها كلمة كلمة، حرفًا تلو الآخر، أشتفّ الفواصل وألهث بحثًا عن النقاط، أنَّها رواية ناقصة، لم ينجزها كما ينبغي لرواية. إنَّها أقرب إلى سيرة ذاتيّة لامرأة مصنوعة من الخوف. مثلي. مثله. ماذا أراد نسيم؟ هل افترض أنّني سأكتب نهاية لها؟ هل بدأ بها، وقد استغرقه الخوف، فلم يقوَ على إنجازها؟ ألا يعرف نسيم أنَّ النقصان يشعرني بالاكتمال والامتلاء؟ هل افترض أنَّ اكتمال روايته سيكون كاكتمال القمر في قلبي، يوم حلمت بنفسي أتدلّى عن سطح عمارة دمشقيّة واطئة؟ يوم لم أحكِ لكميل عن ذلك الحلم، وقد شتَّت صاحب العظام البارزة تركيزي، جالسًا وراء الباب الخشب؟ هل هي صدفة أن ألتقيه بعد ساعات من سقوط القمر تلك اللَّيلة؟ وكان القمر مكتملًا، وأنا كنت مملوءة بنفسي، وروايته تلك، تنقصها النهاية.

«أذكر غرفة الصالون جيِّدًا. وأذكر السَّجّادة الخضراء المزركشة بألوان كامدة، أفترشها لألعب وصوت زقزقة الأباجورات الخشب العديدة، وحده يقطع السُّكون. عشت طفولتي في سكون عميق. حتَّى إنَّني عندما أتذكَّر تلك المشاهد القليلة العالقة في ذهني، أتذكَّرها بصمت. المشهد يكون صامتًا. لا ضجيج. لا أصوات. لا موسيقى. فقط زقزقة شبابيك.

الكهرباء كانت تُقطع عن حيِّنا لأيَّام طويلة. وأذكر أنَّ العمارات المقابلة لعمارتنا تكون مضاءة بينما نغرق في العتمة والوحشة. وحدها عمارتنا، التيَّار الكهربائيّ الخاصّ بها مأخوذ من حيّ «عش الورور» الشعبيّ البعيد من حيِّنا. ذلك الحيّ الذي تسكنه أغلبية علويَّة من صغار الضبَّاط وعائلاتهم، يقطعون الكهرباء عنهم وعنَّا. وحدها عمارتنا المعتمة تتوسَّط عمارات كثيرة مضاءة دائمًا. وأذكر أنَّ أوَّل رقم هاتف التقطته ذاكرتي هو رقم طوارئ الكهرباء. وغالبًا لا يجيبون على الهاتف أو يرفعون السمَّاعة عن قصد ويتركونها مرفوعة لساعات. ذلك الانقطاع المتواصل، كان عاملًا إضافيًّا لكآبة مبكِّرة سكنتني. وأيضًا، البيت كان يعني المرض. أمِّي في المطبخ تجمع أعشابًا ونباتات غريبة الشَّكل، تحمل أسماء عجيبة كالفصَّة مثلًا، أو القرِّيص أو الألويا. تنظِّفها وتقطِّعها وتعصرها ليشرب ماءها أبي ممتعضًا من الطعم، مسايرًا زوجته في وصفاتها الطبيعيَّة، عسى أن ترتفع مناعته وينجلي الشحوب عن وجهه الجميل. وأبي في غرفته، ممدَّد في سريره يقرأ ويكتب لساعات طويلة. وعندما يضجر ينتقل إلى غرفة الجلوس للاستماع إلى الراديو أو إلى أسطوانة موسيقى لفيروز أو فيفالدي أو باخ أو جاك بريل. وكنت أنا ظلّه في البيت. لكنَّه ظلّ لصيقٌ لا يتقدَّم خطوة ولا يتراجع. ولا أذكر أنَّني فعلت شيئًا آخر في طفولتي غير الالتصاق به، وتأمُّله والاستماع

إلى أنفاسه والتقاط نظرته ومحاولة تفسيرها. حفظته، وصرت أعرف ما سيقول قبل أن ينطق. لم يكن ذلك صعبًا. ثمّة ذاكرة مشتركة عشناها سوِّيّة بتواطؤ حزين. ثمّة صراحة مرهقة. كلّ الأحاديث مسموحة. لا حدود تؤطر أيّ فكرة من الأفكار. لا وجود للمحرّمات ولا لفكرة الخطأ والصواب. لا وجود للمطلق. وكلّ الأفكار تخضع لنقاش مستفيض لا ينتهي. ذلك الجَلَد على الكلام والإصغاء، جعلني متطلِّبة في الحياة، لا أكتفي. ثمّة المزيد دائمًا ولا وجود للنهايات، وليس ثمّة أجمل من البدايات. الأشياء لا تنتهي بل تبدأ دائمًا. وعندما تبوخ البداية، لا بدّ من التفتيش عن بداية أخرى. الأقفال ممنوعة إذًا، والمفاتيح بطبيعة الحال. والأسرار أيضًا، لأنّنا نثق بما نعيشه ولا نخاف منه. الخجل ممنوع. نرتدي ملابسنا والأبواب مشرّعة، لأنّنا لا نخجل من أجسادنا. ليس لدينا ما نخجل منه.

البيت كان بالنسبة إليّ هو غرفة نوم والدي المحاذية لغرفتي، حيث أمضي معظم وقتي على حافّة السّرير أو متمدِّدة بالقرب منه. وكان أيضًا باب شرفة المطبخ الصغيرة جدًّا التي أتلصّص من خلالها على سيّارات الأجرة، علّ واحدة منها تحمل أمّي التي كانت تتغيّب لساعات طويلة متنقِّلة بين عيادات الأطبّاء والمختبرات الطبّيّة والبزوريّة، لتتبضّع بكلّ ما من شأنه رفع المناعة (لوز، جوز، عسل بلديّ، غذاء ملكات النحل، غبار الطلع، لبّ الصبّار، بذور المشمش...). أمّي التي كانت تغيب لساعات مطمئنة أنّ أبي ليس وحيدًا في البيت. وأنا يغلي صدري إن تأخّرت وأذوب من الخوف واقفة وراء باب الشّرفة، منتظرة وصولها. أنتظرها بعينيّ، بينما تبقى أذناي في تحفّز لالتقاط صوت أبي إن كان يناديني. صوته خفيض، لم أسمعه ولا مرّة واحدة يعلو أو يصرخ. حتّى عندما يناديني، يهمس إسمي همسًا، وكأنّني أجلس قبالته.

في السنوات الأخيرة، كان أبي يمضي معظم بعد الظهر نائمًا. وأنا كنت عندما تخرج أمّي من البيت، أمضي الوقت متنقِّلة على رؤوس أصابعي بين المطبخ وغرفة والدي. أقف على باب غرفته. أنتظر حتَّى تعتاد عيناي على العتمة، فتتّسع الحدقتان، وأتلمّس خطواتي خوفًا من الارتطام بالسّرير أو الكومّود فأوقظه. أقترب وأدنو أكثر فأكثر. أنحني برأسي، وشعري الطويل مربوط دائمًا أو مجدول. أقترب منه وهو نائم على أحد جانبيه كالعادة. أحاول التقاط أنفاسه. وعندما لا أتمكّن من ذلك، أمدّ إصبعي ببطء شديد، بطء يجعلني أشعر بالشلل من شدّة التّركيز. تصبح حواسي كلّها في رأس إصبعي الذي أمدُّه إلى أنفه. أقترب أكثر فأكثر، بحذر مفرط، كي لا ألمس شفتيه أو أنفه، فأوقظه. أشعر بدفء في رأس إصبعي، فأرتاح.. إنَّه يتنفَّس.

بعد ظهر يوم من الأيّام، ناداني. وجهه كان شاحبًا. طلب منّي فنجان قهوة، الأمر الوحيد الذي أتقن صنعه في ذلك البيت الموحش. ركوة القهوة الصغيرة أذكرها جيّدًا، من الستانليس الكامد والسميك، لم يبخ لونها مع الوقت، لأنَّ أمّي المهجوسة بالنظافة، تمنع التَّطوُّر الطبيعيّ للأشياء. تنقعها بين الحين والآخر بالماء المغلي وملح اللّيمون، فترجع الرّكوة سنوات إلى الوراء مستعيدة بريقها الأوّل. أفتح الحنفيّة المفلترة وأملأها لأكثر من نصفها بقليل. أشعل الغاز وأضعها وأراقبها وهي تسخن، وكأنّني لا أمتلك شيئًا سوى صفحة الماء الصغيرة تلك. تصبح حياتي مملوءة كأنّها في تلك الركوة. أقف وأتعب من الوقوف. وأراقبها، وأفكّر أنَّ بابا يريد حتمًا أن نتحدَّث بأمر ما، وليس فنجان القهوة سوى حجّة للبدء بحديث ما. يصيبني مغصٌ حادّ. لا بدَّ أنَّ الحديث موجع، وأنَّ فنجان القهوة بمثابة تمهيد. وشوشة الماء السّاخن تقطع شرودي. ملعقة سكر، فيفور الماء ثم يهدأ. ثلاث ملاعق بنّ، يفور الماء من جديد. القهوة تعلو وتغلي

ثمَّ تنخفض. كنت أحبّ تلك الرّغوة اللّزجة، وتذكّرني بطعم الحليب الممزوج بالقهوة التركيَّة (عندما كنت صغيرة لم يكن ثمّة نسكافيه بعد. كنَّا نشرب الحليب مع القهوة التركيَّة المغليَّة، طعمها لا يزال طازجًا في فمي وشهيًّا). أغلي القهوة حتى يختفي أثر الرغوة تمامًا. أضعها على صينيَّة صغيرة، وإلى جانبها فنجان القهوة سكّريّ اللّون، سميك الحوافّ، تزيّنه ورود زيتيَّة. أحملها وأمشي ببطء كي لا تنسكب القهوة. كنت أرتدي ذلك الحين قبقابًا، علّمتني أمّي أن أمشي به كأنّني حافية القدمين. أمشي في البيت كالأشباح، ولا يسبقني وقع قدمَيّ. أعصاب قدميّ وأصابعي صارت مصمَّمة بعد تمرين يوميّ، على شدّ القبقاب أو أيّ مشاية أخرى إلى الكعب عند المشي. وبالتالي، لا يسمع صوت تشحيط على البلاط.

دخلت إلى غرفته، لا يزال شاحبًا. كان سريره إلى الجانب الأيمن. كلّ ستّة أشهر تغيِّر أمّي موقع سريريهما. مرَّة هي تنام على السَّرير الأيمن ومرَّة على الأيسر.. وهكذا. السَّرير الأيمن كان رماديًّا تزيِّن ظهره زخرفات نافرة على شكل وريقات وورود. أبي يجلس مسندًا ظهره على الوسادة واللّحاف يغطِّيه حتّى صدره. سكبت القهوة ووضعتها على الكومّود الصغير إلى يمينه. طلب منّي أن أجلس بالقرب منه. ابتسم لي بحنان كبداية للحديث. ثمّ قال جملة واحدة بسيطة بصوت واثق ومتماسك: «قال لي الطبيب في باريس إنّني سأعيش ثلاثة أشهر فقط. لا يزال أمامنا ثلاثة أشهر!» لم أستطع تلك اللّحظة الإمساك بمشاعري، وتلك الغصّة الجارحة صعدت إلى عينيّ، فامتلأتا بدموع صامتة. أذكر أنّ صوتي اختفى، وجسدي أصابه التشنّج. وحدها عيناي امتلأتا بالدُّموع، ولم أعد ألمح سوى الغبش أمامي. وأذكر كيف كان الجفنان مترعين بماء يهتزّ ويطفو قبل أن ينسكب وأشعر بحرارته على وجهي. لكنّني لم أقوَ

على الحراك. لم أكن أعرف أنَّ تلك اللَّحظة ستغيِّر حياتي إلى الأبد. لم أكن أعرف أنَّ ذلك التشنُّج سيبقى ممسكًا بجسدي حتَّى هذا اليوم. فتح ذراعيه لاحتضاني، وأنا ذهبت إليه كتلة واحدة كأنَّني تمثال يتحرَّك من مكان إلى آخر. ارتميت على صدره، وصوت نشيج مقهور وموجوع يتسلَّل من صدري وينفلت ولا أقوى على ابتلاعه. قبّلت رقبته كما اعتدت دائمًا. كنت أحبّ رقبته، وأكاد ألتقط الآن ملمسها على شفتيّ. تلك الرُّقعة كانت البيت بالنسبة لي. تشعرني بأمان وسكينة. تلك الرُّقعة، حيث أرخي رأسي على الكتف وألصق وجهي بجدار الرَّقبة وأغفو في طمأنينة، لم أعثر عليها ولا مرَّة واحدة بعد ذلك.

لا أعرف ما الذي قادني إلى هنا. هل هو تمرُّد على نصيحة كميل بعدم كتابة اليوميّات، أم أنَّها حاجة مفرطة إلى الهرب لمرَّة واحدة على الأقلّ إلى تلك السَّنوات الطويلة والقاسية، التي لم تتوقَّف يومًا عن اللَّعب بحياتي والعبث بأماني؟ ماذا قال كميل ذلك المساء أيضًا؟ لم يكتفِ بموضوع اليوميّات. راح يتحايل على صمتي وعدم رغبتي بالكلام. راح يستدرجني إلى تلك المساحة المغرية لمخيِّلتي. فأنا لم أمضِ طفولة تعيسة بأكملها. لا بدَّ أنَّني نجوت في سنواتي الأولى من ذلك الجحيم؛ إلَّا أنَّ السَّعادة لا تنطبع في الذاكرة. ظلُّها خفيف وهشّ ومؤقَّت، ينجلي مرَّة واحدة أمام الحزن. وحده الحزن يبقى متربّعًا بثقل، فارشًا ظلَّه هنا وهناك، مستحوذًا على مساحة المشاعر الأخرى حتَّى ليخيَّل إليَّ أنَّني لم أعش مشاعر أخرى سواه.

راح كميل يستدرج ذاكرة أخرى لا بدَّ أنَّها موجودة. أقول له إنَّ حياتي مليئة بالنِّساء. وأبي هو الرَّجل الوحيد. لديَّ أمّ وخالة أصبح لها ماما منذ تعلُّمي النُّطق. خالتي لديها ابنتان، وإحدى ابنتيها تزوَّجت باكرًا

وأنجبت بنتًا من عمري. لديَّ عمّة وعندها ثلاث بنات وثلاثة شبّان. لديَّ جدَّتي لأمّي التي رحلت باكرًا، ولا أزال أحتفظ بصورتها وهي تقدِّم لي صحنًا شفَّافًا بنِّيّ اللّون، يملأه سكّر أبيض، آكله بنهم بالخفية عن أمّي. ولا أزال أميِّز طعمه وقرقشة ذرّاته ترنّ في أذنيّ. ولديَّ جدَّتي لأبي ولاتزال على قيد الحياة. أقول لكميل إنَّ طفولتي مليئة بالنِّساء. وليس أيّ نساء. نساء صلبات، يتحدَّثن بثقة، أصواتهنّ مطبوعة في ذاكرتي من كثرة ما يصرخن، نساء يتحكَّمن بالعائلة ويسيِّرن أمورها من دون أيّ عناء. أمَّا الرجال، فلا أملك سوى أبي. جدّي لأمّي رحل باكرًا أيضًا، وفي سنواته الأخيرة لا أذكره سوى ممدَّدًا في غرفته الصغيرة في الطبقة الأرضيَّة من البيت الدمشقيّ في حيّ العفيف. يخبِّئ إلى جانبه كيس سكاكر يطلق عليه إسم «كرملّس»، يطعمني منه ويأكل هو، وأنا أتستَّر على شهوته تلك غير مدركة أنَّه مصاب بالسّكريّ والـ«غرغرينا» تنخر ساقيه. جدّي لأبي رحل متأخّرًا مجتازًا المئة عام بسنوات، إلّا أنَّ علاقتي به كانت معقَّدة وفاترة بالعموم. لديَّ خال وحيد، كان شابًّا وكنت طفلة في الخامسة من عمري، عندما انقلبت به سيّارة التكسي التي كان يقودها عائدًا من حلب. أصيب بشلل نصفي وصار خالًا آخر تعرَّفت إليه من جديد بعدما فقدت ذاك الشّابّ الضحوك، الدمث، الممتلئ بالحياة. لديَّ عمّ كبير، تعرَّفت عليه عندما كنت في الثانية عشر من عمري، وكان على خلاف مع والدي. عندي عمّ آخر أعشقه، رحل باكرًا أيضًا، وكان مصابًا بشلل أطفال، يلازم سريره طوال الوقت في غرفة صغيرة بُنيت على عجل فوق سطح بيت في الضيعة (البيت كان ملكًا له). يمضي يومه في احتساء القهوة والعرق وتدخين سجائر «الحمرا الطويلة» والاستماع إلى الراديو. رائحة غرفته نتنة، إذ لا أحد يهتمّ به سوى أخت مهملة، هي عمّتي الثانية التي لا أعرفها

أيضًا بما يكفي بسبب خلافها مع والدي. عمَّتي هذه أجَّرت البيت الذي يملكه أخوها المشلول لإحدى عائلات الضَّيعة، شرط أن يبنوا غرفة على سطحهم يسكنها أخوها غارقًا بالوسخ والبرد والرطوبة. رحل عمِّي قبل أربعة عشر عامًا بعد احتسائه عرقًا بلديًّا مغشوشًا.

لا رجال في حياتي سوى والدي. ثمَّة مرضى وراحلون فقط. يهزّ كميل رأسه، وابتسامته الغريبة التي لا تتغيَّر معالمها ترتسم على شفتيه. ابتسامة طويلة تمتدّ لثوان، ثمَّ تختفي فجأة مع هزَّة من رأسه. وكأنَّ شفتيه مربوطتان برأسه، ما إن يهزّه حتَّى تختفي الابتسامة ويعود إلى أوراقه وأسئلته. «ماذا عن جدّتك لأبيك؟»، يسألني كميل، ولا أفهم سؤاله. إذ ما الذي يريده من علاقتي بجدَّتي خديجة؟ وكيف يمكن لعلاقتي بجدَّة، تسكن في ضيعة بعيدة ولا ألتقي بها إلَّا في العطل، أن تكون أساسيَّة في حياتي؟ إلَّا أنَّ كميل يصرّ على سؤاله. يريد أن يعرف أكثر عن تلك المرأة.

لم أقابل في حياتي أحدًا بلا مزاج سوى جدَّتي خديجة. لا تمتلك مزاجًا يتعكَّر أو يفرح مثلًا. بل مزاج يحافظ على إيقاع ثابت ومستقرّ لا يهتزّ ولا للحظة واحدة. هي تغضب كثيرًا، لكنَّ غضبها لا يغيِّر مزاجها. تبقى مبتسمة لنا حتى وهي غاضبة. وذلك الغضب ليس عشوائيًّا، بل موجَّهًا إلى جدّي تحديدًا. هو من يثير غضبها دائمًا. لا أحد غيره. ولم أقابل في حياتي أحدًا يحدِّث نفسه كما تفعل جدَّتي. أسمع صوتها دائمًا وهي تحادث نفسها في المطبخ أثناء الجلي أو التنظيف. تروي قصصًا لا أفهمها، وتتغيَّر نبرة صوتها بين متكلِّم ومجيب. ويحدث أن تغنِّي عتابا أو موّالًا.

كنَّا نصل إلى الضَّيعة بعد الظهر، أبي وأنا، تقلُّنا سيَّارة أجرة صفراء. أبي يجلس إلى جانبي في الخلف، يدخِّن طوال الطريق. وأنا كنت إن مرَّت خمس دقائق، ينتابني إحساس أنَّ ساعة مرَّت، فأسأل والدي: كم

من الوقت تبقّى لنصل إلى الضَّيعة؟ ثلاث ساعات ونصف الساعة تمرّ ببطء ثقيل. والدي شارد في الطريق وفي سيجارته، وأنا أتفرّج على أشجار السَّرو المائلة بالقرب من حمص. الأشجار المعمَّرة كلُّها أخذت شكل الرِّياح العاتية في تلك المنطقة، وانحنت إلى جهة دمشق على ما أذكر، وصار شكلها مائلًا. بالقرب من تلك الأشجار، على الطَّرف الآخر من الطريق، ذلك العائد إلى دمشق، ثمّة استراحة يحبُّها والدي، لا أعرف لماذا يحبُّها! إسمها «استراحة البحر». نتوقَّف عندها في طريقنا إلى الضَّيعة ومنها إلى دمشق. أذكر أنَّني كنت أحبّ الألعاب الكثيرة المنتشرة وراء فيترين مغبّرة. بابا يطلب فنجان قهوة ويكمّل تدخينه المتواصل، وأنا آكل سندويشة جبنة مسخَّنة. أذكرها رفيعة من شدَّة التَّسخين، وجبن القشقوان يتدَّلى من فتحاتها، ذائبًا شهيًّا. نمضي هناك ربع ساعة تقريبًا ثمَّ نكمّل طريقنا. كنت أحبّ الجزء الثاني من الرِّحلة. الطريق بين حمص وطرطوس، أقصر من جهة، وأجمل. يصبح مخضرًّا بالتدرُّج وتختفي مساحات الصَّحراء الشاسعة بلونها الترابيّ الكئيب. ويفقد الطريق استقامته، يصبح متعرِّجًا وملتويًا إلى اليمين وإلى اليسار، صعودًا ونزولًا حتَّى نصل إلى مشارف طرطوس. (بعد أن رحل والدي، صرت أحبّ الجزء الأوّل من الطريق أكثر من الجزء الثاني. الجبال الصخريّة المتدرِّجة في الأفق وراء مساحات صحراويّة، تشعرني بالاطمئنان). أذكر معمل الإسمنت ينفث دخانًا أسودَ، ويرخي بظلاله على أشجار الزيتون مخرِّبًا الزرع ومسمِّمًا النَّاس هناك، فزاد معدَّل الإصابة بالسرطان في المناطق المحيطة. وبابا أصيب بالسرطان في دمشق. وكأنَّ دخَّان المعمل وصله إلى بيته البعيد مئات الكيلومترات عن ضيعتنا. وأذكر تمثال حافظ الأسد واقفًا، رافعًا يده، ملقيًا التَّحية على القادم والذاهب. وأذكر من الطريق

أيضًا، تمثالًا آخر له بالقرب من حمص. تمثال نصفيّ يظهر فيه وكأنّه متربّع. وعلى الطرف الأخر، تمثال بالحجم الحقيقيّ، أو أكبر ربما، يقف على تلّة وحيدًا. وأذكر لافتة «إبتسم.. فأنت في دير عطيّة».

أبي كان شخصًا غريبًا. ولا أعني غريب الأطوار والمزاج. بل كان غريبًا من الغربة وليس الغرابة. يعيش في غربته غريبًا عن كلّ ما يحيط بجسده من أشياء وأشخاص وأصوات وروائح. كأنَّ حدود وجوده هي لحم جسده وجلده الرقيق. كثير الصمت، حاسم، يتأمّل الحياة تمرّ من شبّاك سيّارة التكسي كمن يتأمّل مصيره. ثمّة خوف ما يفرّ من نظراته دون قصد. فهو، على الرغم من صلابته الداخليّة وثقته بنفسه وبأفكاره، يخاف من تفاصيل غريبة. يخاف من البرد مثلًا ومن الرّشح ومن التهاب الحلق. يخاف من السّفر والانتقال من مكان إلى آخر. يخاف الزُّحام، وترهقه التجمُّعات الكبيرة. كان يخاف مثلًا أن أختنق وأنا أتناول طعامي، فيظلّ يراقبني طوال الوقت. يفتح فمه في الهواء، وأنا أفتح فمي لأضع اللُّقمة فيه. ويغلقه على الفراغ عندما أغلقه على الطعام. ويمضغ الهواء ببطء وأنا أمضغ لقمتي ببطء لأسايره. يبتلع ذلك الفراغ، وأرى حنجرته تتحرَّك، فأبتلع بدوري تلك اللُّقمة. حتّى كان يخيَّل لي أنَّه يهضم الفراغ أثناء هضمي لطعامي. وها أنا أختنق بالفراغ وليس بالطعام. أيكون ذلك الفراغ نفسه الذي يغلق أبي فمه عليه ويبتلعه؟

بعد رحيله بسنوات طويلة، أهداني صديقه الطرطوسي الذي انتقل للعيش في لبنان منتصف الخمسينيّات، مجموعة من الرّسائل التي كتبها له والدي عندما كانا في الصفّ العاشر. في واحدة من تلك الرّسائل، كتب له والدي عن أرقه وعدم استطاعته النوم خوفًا من سرطان الحنجرة! كان وقتها في الخامسة عشرة من عمره، أصيب بسرطان الحنجرة في

أواخر الأربعينيَّات. هل استدعى مرضه؟ هل عاش في خوف منه كلّ تلك السَّنوات؟ هل كان في انتظاره؟!

نصل بعد الظهر، وتكون جدَّتي في استقبالنا عند باب البيت الخارجيّ. تقف هناك بفستانها القماش المهلهل، بأكمام طويلة، ومنديل رقيق يغطِّي شعرها الأبيض بياضًا خالصًا. جدَّتي عبارة عن كومة صغيرة من اللَّحم والعظام. منذ صغري، أستطيع معانقتها كاملة من دون أن أشعر بهول جسدها. وهي تمسكني بيديها الخشنتين المشقَّقتين المحفورتين بالزَّمن، وتقبِّل رأسي وجبيني ووجنتيَّ وكتفيَّ ويديَّ. لم يقبِّلني أحد بالحرارة التي تقبِّلني بها جدَّتي. هي تقبِّل وكأنَّها تبوح. ليس ثمَّة ما يفصل جسدها عن روحها. تقبِّل ولا تقوى على التوقُّف. تظلّ تقبِّل حتَّى أنفلت أنا من بين يديها متوجِّهة إلى دكَّان عمَّتي المحاذي لبيت جدِّي. عمَّتي أيضًا واقفة على باب الدكَّان تنتظر قدومنا. أعانقها. تقبِّلني بحرارة محسوبة ومدروسة، لا تزيد ولا تنقص، كدرس الفيزياء. أيضًا عمَّتي ترتدي فستانًا مزركشًا، وتضع منديلًا رقيقًا يكشف عن بضع خصلات من شعرها المصبوغ بأسود باهت يميل إلى الأحمر تحت ضوء الشمس. جسمها ممتلئ وصدرها عارم، ولديها ابتسامة شاردة تبقى مرتسمة على شفتيها حتَّى في لحظات الحزن. هي تعيش حزنًا دائمًا بالأصل. تعيش في تذمُّر متواصل من حياتها ووضعها، ولا تتوقَّف عن الشكوى من الحظ السَّيِّئ الذي رافقها منذ ولادتها. كلّ مصيبة، تردُّها عمَّتي إلى الحظ الأعثر. «الناس حظوظ»، عبرتها في الحياة وشعارها الذي تلفظه بين الجملة والأخرى كلازمة للحديث. أتسلَّل إلى بيت جدِّي من باب الدكّان الداخليّ. أرى جدِّي جالسًا على كرسيِّه الكبير حاملًا القرآن بين يديه، يردِّد آياته التي يحفظها عن ظهر قلب، لكنَّه يقرأها في الكتاب طوال اليوم. يبتسم لي ببشاشة، وأنا لا أعرف ما الذي

يؤرِّق علاقتي به. أقبّل وجنتيه الكبيرتين والمستطيلتين. «كيفك يا جدِّي؟ كيف الماما؟ شو أخباركم؟ لشو مانك مَتجي لعنّا؟ ولّا أبقا تحبينا؟ الشام أحلى من هنّا؟» وهكذا، يكرّ جدِّي عبارات العتب واللّوم الدائمين، ولا يصمت كي أجيب على أسئلته. هو لا يريد أن يسمع إجابات، فقط يريد أن يعاتب. وجدَّتي تسكته بتمتماتها التي تردِّدها بصوتها الخفيض والرَّفيع. هل ورثت كرهها له، فلم أحبّه كما ينبغي؟ لم تكن جدَّتي تحبُّه. تشكو من تسلُّطه وبخله. جدَّتي لا تعاتب. لا تعرف أن تعاتب. فقط تعرف أن تحبّ. العتاب من اختصاص جدِّي وعمَّتي. والعتاب هنا لا يعني الشوق أو الفقدان، بل مشاعر معقَّدة بين الرِّيف والعاصمة دمشق، بين أبي وزوجته السنّيّة الدمشقيَّة التي سرقته وسرقتني! إنَّه تأنيب دائم على ذنب لم أقترفه، ذنب التخلّي عن الأصل والتعالي عليه. ولا ينفع الدِّفاع عن النَّفس في هذه الحالة، لأنَّ الذَّنب مثبَّت ومؤكَّد، والتعامل معي ينطلق من هذه الفرضيَّة المسبقة. تجلس جدَّتي بالقرب منِّي على الكنبة الطويلة تحتضن يدي الصغيرة بين يديها، وتكمِّل تقبيلي وتمسِّد شعري وتغمرني، ثمَّ تصطحبني معها إلى المطبخ كي أجالسها وهي تعدّ ركوة قهوة كبيرة لأبي وجدِّي. طاولة المطبخ واطئة كأنَّها مخصَّصة لي. وكراسي القشّ منخفضة أيضًا. تلك الكراسي تملأ كلّ بيوت الضيعة. لا أعرف لماذا! ربما لأنَّها تجعل الجلسة أكثر حميميَّة وأقلّ رسميَّة. في المطبخ، تروح جدَّتي وهي تعدّ القهوة، تسألني عن أحوالنا وعن أمِّي وعن المدرسة وصحَّة والدي. جدَّتي تصمت بعد كلّ سؤال، لأنَّها تنتظر جوابًا.

تنام في التَّاسعة مساء وتستيقظ في الرَّابعة والنصف فجرًا، لكنَّها لم تكن تأوي إلى فراشها قبل أن نعود، أبي وأنا. وأحيانًا نتأخَّر حتّى منتصف اللَّيل في بيت أقرباء أو أصدقاء، فنجدها تكبو جالسة على الصوفا، يداها

في حجرها، واحدة في كفّ الأخرى، ورأسها يميل إلى اليمين أو اليسار ورقبتها ملتوية. تصحو على وقع أقدامنا. «ليش ما نمتي يا أمي؟» يسألها والدي. لكنَّها لا تقول إنَّها تنتظرنا كي لا نشعر بالحرج، بل تقول إنَّها كانت جالسة فغفت. تنتظرني حتَّى أرتدي بيجامتي وتضعني في السَّرير المعدن، وتسدل الناموسيَّة زهريَّة اللَّون. الشِّتاء كان باردًا في الضَّيعة، ووسائل التدفئة بدائيَّة ولا تنفع مع انقطاع الكهرباء. تغطِّيني جدَّتي باللِّحاف الصوف السَّميك، أذكر ثقله فوق جسمي، وأذكر أنَّه لا يتيح لي الحركة، فأبقى نائمة على ظهري ويداي مستقيمتان تحت اللّحاف حتَّى أصحو. أبو بريص كان يؤرق نومي. ألمحه ينسلّ من بين شقوق حائط الغرفة المطلَّة على حاكورة المنزل، يتمشَّى على الحائط صعودًا ثمَّ نزولًا. أحيانًا كانت جدَّتي تروي لي قصصًا قبل النوم، وتنصحني بالنوم على جانبي الأيمن، كي لا أضغط على قلبي، فأصبح وجهًا لوجه مع الحائط البارد، تفصلني عنه الناموسيَّة. جدَّتي تتمدَّد بالقرب منِّي بفستان نومها الأبيض، ومنديل رأسها السَّميك تفوح منه رائحة نظافة. لا أذكر أنَّني لمحت يومًا أصابع قدميها. ترتدي «القلشين»، أي الجوارب صيفًا شتاء. تروح تروي لي قصصًا شعبيَّة شيِّقة من وجهة نظرها وتنطوي على عبرة ما. وهي لا تكتفي برواية القصَّة بل تدلّني على العبرة كي تتأكَّد من أنَّني فهمتها جيِّدًا. (رجلان يتسلَّقان جبلًا ما بحثًا عن فريسة يصطادانها لتأمين طعام الغداء. فجأة، يفتح أمامهما باب مغارة فيدخلان إليها. يعثران على تلّة من ليرات الذهب. الرَّجل الأوَّل يملأ كيسه بما يحتمل من ليرات ويرحل. أمَّا الثَّاني، فيملأ الكيس حتَّى آخره وجيبيْ سترته ويضع في فمه بعض اللِّيرات، فلا يقوى على الحراك من ثقل ما يحمل، يُفرغ الجيبين فيتخفَّف من ثقله ويمشي، لكنَّه يغيِّر رأيه فيعود ليملأهما من جديد..

وهكذا حتَّى يحلّ الظلام، فيغلق باب المغارة عليه ويموت هناك وحيدًا).
تقول لي جدَّتي: «شفتي يا ستّي، شفتي يا عيني، «الطمع ضرّ ما نفع».

أستيقظ في السَّادسة صباحًا. أبي لا يزال نائمًا على السَّرير المحاذي لسريري. وأنا أنهض محاولة قدر الإمكان عدم إصدار أيّ صوت. السَّرير المعدن لا يسعفني، صريره يزقزق مع أخفّ حركة. أنسلّ من الغرفة ببطء شديد، وأكاد أجزم أنَّ التشنُّج المزمن، الذي أعاني منه، يلازمني منذ ذلك الحين. جدّي يجلس في الصالون يقرأ في قرآنه. أصيح: «صباح الخير يا جدّي». فهو ضعيف السَّمع. يهزّ برأسه ويقول مبتسمًا: «أهلًا أهلًا..». أذهب إلى المطبخ الصغير والبارد. جدَّتي تعانقني وتحضّر لي الفطور، وهو أطيب فطور تذوَّقته في حياتي (بيض مخفوق ومقلي بزيت الزيتون، لبنة بلديَّة، زبدة مخضوضة من صنعها، زيتون، زيت وزعتر، صحن حمّص، خبز طازج من مخبز جارتنا ليلى). وليلى تلك تصنع الخبز وفقًا لمواصفات سكَّان الضَّيعة. فتزيد ملحه بحسب الرَّغبة وتحت إلحاح الزبائن، ثمَّ تقلِّله تلبية لرغبة أصحاب الضَّغط المرتفع. لكنَّه خبز لذيذ في كلّ حالاته. وعندما تمرض ليلى، وتغيب عن مخبزها ليوم أو يومين، يصبح حديث الخبز على كلّ لسان.

جامع الضَّيعة كان ملتصقًا ببيت جدّي، حائطه يلامس حائط البيت، ممَّا كان يغيظ والدي ويثقل زياراته القليلة إلى الضَّيعة. وفي الضَّيعة، لم ألمح في حياتي سجَّادة صلاة في بيت من البيوت الكثيرة التي زرتها. هم لا يصلّون على الإطلاق، فقط يصومون. ومع وجبة الإفطار الرَّمضاني، يحتسي البعض العرق، فقليل منه يقرِّبك إلى اللّـه، كما كان يردِّد جدّي. عندما بُني جامع الضَّيعة الوحيد، ذاك الملتصق ببيت جدّي، كان أطفال الضَّيعة يمرُّون من أمام بابه، فيلمحون الشيَّخ يؤدِّي الصلاة واقفًا ثمَّ ساجدًا

فجائيًا، فيضحكون ويسخرون من عدم لياقته: «ليكوا، أفيه ما يقلزا»، أيّ أنَّه يحاول عبثًا، القفز والوقوف على يديه، ظنًّا منهم أنَّه يمارس رياضة الجمباز.

أنقِّل يديَّ بين الصحون العديدة المرتَّبة فوق الطاولة المنخفضة، وجدَّتي التي لم أرها تأكل إلَّا نادرًا، تكتفي بتأمُّلي وبرواية القصص لي. غالبًا، تروي لي قصصها مع والدي. كيف كانت حبلى به في شهرها التاسع، عندما استيقظ جدِّي مذعورًا، مغمومًا، العرق يتصبَّب من جبينه. رأى جدَّتي تلد طفلًا ذكرًا في أرضه في الوطن. إلَّا أنَّ باشقًا انقضّ عليه وانتشله من بين يديها. تقول إنَّها تخاف على أبي منذ ولادته. كيف لا وهو طفلها الوحيد. حملت بعدها بعمَّتي وانقطع نسلها. جدِّي كان متزوِّجًا بامرأة أخرى لا أعرفها، ولا أعرف إن كانت لا تزال على قيد الحياة. أنجب منها عمِّي الذي لم أعرفه إلَّا لاحقًا وعمِّي الآخر الذي توفي بعد ارتشافه عرقًا مغشوشًا، وعمّتي الكبيرة التي لا أذكر منها سوى سوء معاملتها لأخيها المشلول. نعم، ستتحقَّق النبوءة في يوم من الأيَّام، وسينتشله الباشق من بين يديها. جدِّي كان يحبُّني لا بدّ. لكنَّ الأطفال يعرفون أكثر من غيرهم كيف تجري الأمور. لديهم حاسَّة عجيبة تلتقط الحبّ والحذر والكراهية والقلق. ثمَّة نظرة مفعمة بالحسرة تفرّ من عينيْ جدِّي غصبًا عنه ربَّما. جدِّي لم يكن يعترف بأولاده من زوجته الأولى، وكان على قطيعة معهم. لا أذكرهم يدخلون البيت إلَّا نادرًا، لا هم ولا أولادهم. كان يتمنَّى لو أنَّ أمِّي أنجبت ذكرًا. وبما أنَّ والدتي أصيبت بسرطان حميد في رحمها بعد إنجابي، لم تعد قادرة على الحبل. وجدِّي لم يتوقَّف عن إقناع والدي بالزواج من أخرى كي يحظى بحفيد ذكر من ولده «الوحيد».

عمَّتي وبناتها، كنَّ يسخرن منِّي وأنا صغيرة. ينادونني «سودا» لأنَّ بشرتي سمراء. بينما كانت بنات عمَّتي شقراوات بعيون ملوَّنة وشعر

فاتح اللَّون. وكنّ مهووسات بالحفاظ على بياضهنّ. يتجنَّبن التعرُّض للشَّمس، ويشترين من دكّان قريب من البيت حنجورًا صغيرًا يحتوي كريمًا لزجًا ودبقًا إسمه «دعبول». يدهنّ به وجوههنّ مرّتين كلّ يوم ليزيد من بياضهنّ. ولم يكن ذلك «الدعبول» سوى كريم معزّز بمادَّة الزئبق. كما كنّ يستخدمن سِيف الألمنيوم المخصّص لجلْي أواني النُّحاس وتبييضها، يمرِّرنه على أجسادهنَّ بعد الاستحمام، فيستحيل لون بشرتهنّ إلى الأحمر من شدَّة الحكّ. وأنا أزور الضَّيعة في الصَّيف غالبًا، وأقضي معظم الوقت على الشاطئ ألعب وأسبح حتَّى ألمح آخر انطفاءة لقرص الشَّمس، فأعود مشيًا على الأقدام.. طريق العودة أكثر شقاء من الذهاب، لأنَّ الضَّيعة تتسلَّق جبلًا مطلًّا على البحر. بعد أسبوع من الإجازة الصيفيَّة التي تستغرق شهرين ونصف الشهر، أُصبح أكثر اسمرارًا، وتزداد وتيرة سخريَّتهم منِّي ومن لوني ومن نحولي. جدِّي لا يزعجه لوني الأسمر، إلَّا أنَّه دائم التذمُّر من ملابسي. ويكون شهر آب قد حلّ والحرارة قد تجاوزت الخمس وثلاثين درجة مصحوبة برطوبة مرتفعة ودبق لا يُطاق، فيقول لي: «يا جدِّي.. برد برد.. بلالك هالتنورة.. البسي بنطرون (بنطال).. أحسن ما تاخدي صفقة هوا وتمرضي». وأنا لم أكن أبالي، بل أصرّ على ارتداء كلّ ما أحرم من ارتدائه في دمشق. ولم يكن والدي من يمنعني عن الملابس القصيرة، بل والدتي التي تخشى من التحرُّش في الحيّ الشعبيّ الذي كنَّا نسكنه. وجدِّي على الرُّغم من تلك اللَّامبالاة التي كان يقابلني بها، وكأنَّني شخص عابر، هلاميّ، طارئ، إلَّا أنَّني كنت المفضَّلة إلى قلبه من بين أحفاده الكثر. وذلك يعود لأسباب عديدة. أوَّلًا، لأنَّني إبنة ولده الوحيد من زوجته الثانية، وليس أيّ ولد، بل ذلك الذي تركهم بعد أن أتمّ الثامنة عشرة، ويكاد لا يزورهم إلَّا نادرًا. جدِّي المعروف ببخله

كان يمضي على سبيل المثال وقتًا لا يستخفّ به، جالسًا في الحاكورة الصغيرة أو متجوِّلًا بين أشجار اللَّيمون والبرتقال والتِّين والرُّمان والعنب، يعدّ حبَّات الفواكه ليعرف إن سرق أحد أحفاده برتقالة أو ليمونة. بينما كان يلحّ عليَّ أن أقطف وآكل، مع أنَّني لا أحبّ الحمضيَّات. كان يخبِّئ أيضًا رزمة الموز فوق البرَّاد، لكنَّه يطلعني على المخبأ كي أتمكَّن من الوصول إليها متى شئت. وكنت أفكِّر ساخرة أنَّه ربما كان يفعل ذلك لمعرفته بانعدام شهيَّتي. وفي الأعياد، كان يعطي بنات عمَّتي اللَّواتي يكبرنني بالسِّنّ، ثلاث ليرات. أمَّا أنا، فأحصل على عشر ليرات كاملة. علبة الكازوز كانت حينها تساوي خمس ليرات. وعلبة البسكوت ليرتين ونصف الليرة، أي أنَّ تلك المبالغ الطائلة بالنسبة إليه، لم تكن لتساوي شيئًا في الحقيقة. جدِّي الذي كان إقطاعيًا، لم تتغيَّر قيمة النقود في ذهنه. وكان يعتقد أنَّنا مسرفون إذ نصرف في اليوم الواحد خمسين أو مئة ليرة. ولم يكن يجد أيّ حرج بالسُّؤال عن رواتب أبنائه وأصدقائهم. بالنسبة إليه، الرَّجل يساوي ما يملكه من نقود. وعندما تزوَّجت إبنة عمَّتي بشابّ من غير طائفتها، غضب جدِّي وامتنع عن استقبالها في بيته المحاذي لبيت أهلها. وظلَّ مصرًّا على زعله حتَّى علم أنَّ معاش زوجها الشهريّ يبلغ عشرة آلاف ليرة سوريَّة، أي ما يعادل حينها مئتي دولارًا، مع أنَّ ذلك المبلغ كان أقلّ من عادي وسط الغلاء الآخذ في التمدُّد شيئًا فشيئًا، إلَّا أنَّه بالنسبة إلى جدِّي يساوي ثروة طائلة. وكان يرفع حاجبيه بدهشة ويصرخ: «يا خلق.. كيف بتصرفوا هالمصاري كلّها؟ شو بتعملوا بالعشرتالاف؟» بالنسبة إليه، يكفي هذا المبلغ الشهريّ لشراء أرض وتعمير بيت. النقود وحدها كانت تهزم طائفيَّته وحرصه على ألَّا تهدر أموال وممتلكات العائلة. وتلك الممتلكات ليست سوى بيته وأرض صغيرة في الوطن لا

يكفي ثمنها لشراء سيَّارة كركوبة. إلَّا أنَّ زوج إبنة عمَّتي السنّيّ لم يكن يقبض عشرة آلاف ليرة شهريًّا فقط، ذلك المبلغ الخرافيّ بالنسبة إلى جدِّي، بل أيضًا تخلَّى عن سنِّيَّته وصار علويًّا! زار مشايخ الضَّيعة والضيع المحيطة، وتعلَّم العقيدة العلويَّة، وصار يتباهى بالمراتب التي يتسلَّقها واحدة تلو الأخرى، إلى أن غيَّر إسمه في قيود حلب من ديبو إلى علي. ولم يكن يتوانى مع من ينسى اسمه الجديد وينادي له باسمه القديم.. يغضب ويمتعض.

عمَّتي التي كانت ترمي على الحظّ ثقل كلّ المصائب التي تحيط بها، رمته أيضًا على بقاء بناتها الثلاث في البيت، وفشل علاقاتهنّ بالرِّجال وتأخُّر زواجهنّ. الكبيرة كانت حينها في الخامسة والثلاثين، والوسطى في الثلاثين، والصغرى في السَّادسة والعشرين. ثلاث بنات لم يكمِّلن تعليمهنّ عدا الكبيرة بينهنّ، يجلسن في البيت طوال النهار، ولا يقمن بأعمال المنزل إلَّا بعد رزمة من الصراخ تنفلش دفعة واحدة في البيت ويصل صداها إلى الشارع والجيران. أذكر أنَّ ابنة عمَّتي الصغرى التي تزوَّجت بديبو الذي صار عليًّا وعلويًّا، كانت تمتلك صوتًا ناتئًا وثاقبًا يدوِّي في الحارة كلّها إن غضبت. وأذكر أنَّ عمَّتي كان همّها طوال الوقت منسكبًا على احتواء ذلك الصَّوت خوفًا من الفضيحة. «ولك اسكتي اسكتي.. حَيج تفضحينا بالحارة»، هذه الجملة التي حفظتها عن ظهر قلب، ولم أكن أعرف ما تعنيه الفضيحة بالنسبة إلى عمَّتي. هي دائمًا تداري فضيحة ما من الوصول إلى أفواه جيرانها الثرثارين كما تصفهم. وابنة عمَّتي الصُّغرى لم تكن تلك الجملة قادرة على كتم صراخها عندما ينفلت من صدرها، ويتسرَّب إلى بشرتها البيضاء فتصبح حمراء كالشمندر. في الواقع، لم يكن ثمَّة قوَّة على الأرض قادرة على كتم صراخها والسَّيطرة عليها.

زوج عمَّتي، كان عاجزًا عن الإمساك بزمام الأمور. يدرِّس مادَّة اللُّغة العربيَّة للمرحلة الابتدائيَّة، ويحظى باحترام الجميع عدا بناته وزوجته. رحل باكرًا، فلم يتح لي أن أعرفه عن قرب. ذاكرتي عنه بعيدة يكسوها الغبش. أذكر ابتسامة لا تفارق شفتيه وكأنَّها جزء من ملامحه. أذكر عبارة يردِّدها كلّما صادفني في البيت أو في الشارع، عبارة مصحوبة بهزَّة رأس وتنهيدة «إيه إيه إيه.. شو بدنا نعمل.. ياللّـه بتمرق». لم أكن أعرف عماذا يتحدَّث. أذكره أيضًا ممسكًا بكتاب يقرأ فيه ويهزّ رأسه. هو الوحيد الذي كان يقرأ في ذلك البيت الكبير والرخو، جدرانه مطليّة بلون سكّريّ كئيب، وثمَّة رائحة غثَّة تنبعث من أثاثه. الكنبات العديدة الموزَّعة في الصالون وفي غرفة الطعام، تتسرَّب منها رائحة أجساد متراكمة، رائحة طبقات من الجلد، تساقطت يومًا بعد يوم فتشرَّبها قماش الأثاث. لم يكن زوج عمَّتي يجلس على الكنبات، وكأنَّه يلمح يوميًّا تلك الطبقات تتساقط من أجساد أولاده والأقرباء والزوّار، فيجرجر كرسيّ الخيزران من غرفته ويضعه إلى جانب الكنبات. يقرأ بهدوء ويهزّ رأسه مبتسمًا. متوسِّط الطول، بعض الترهُّل يجعل جلده متدليًّا عند الرَّقبة والساعدين. كرش صغير يبرز من ذلك النحول الحزين. يتحدَّث بصوت خفيض. يتحرَّك في البيت ببطء وبحيِّز مدروس ومحدَّد. وكأنَّ ذلك الحيِّز المرسوم هو انتماؤه الوحيد لذلك المكان، لا يملك سواه. كأنَّه زائر مؤقَّت، وغير مرحَّب به. ولم أفهم يومًا إحساسهم بوجوده ثقيلًا، مع أنَّه خفيف كالخيال، يعكِّر صفو حياتهم. اختلافه عنهم يؤرّقهم. وهو ليس مجرَّد اختلاف في وجهات النَّظر، بل اختلاف جذريّ عميق يصبّ في المعايير الأخلاقيَّة وفي نظرة كلّ منهم للحياة. وجوده يذكِّرهم كلّ لحظة بإخفاقاتهم وعجزهم والفراغ الذي يبرطعون فيه سعيدين، غير عابئين

بالمصير الذي يقودهم إليه. لا يرتاحون إلى عدم استسلامه للحظ الأعثر. بالنسبة إليه، لا ينمّ رسوب ابنه الصغير لثلاث سنوات متتالية في فحص الشهادة العامّة، سوى عن الكسل وعدم الاهتمام. لا علاقة للحظ بذلك. بينما تصرّ عمّتي على أنَّ حظّه لم يسعفه من جهة، وعلى أنَّ الأساتذة «يتحطّطون» عليه لأسباب خفيّة. هكذا هي عمّتي. شعورها بالظلم يتعاظم في روحها سنة بعد أخرى، وآلامها تأخذ بالتفتّح رسوبًا بعد آخر. لم أعرف سببًا لذلك الشعور. هي لا تتحدَّث صراحة عن الأسباب، تكتفي بهزّ رأسها وزمّ شفتيها في ابتسامة مقهورة لا تخلو من الادّعاء، ثمّ تتأوّه وتفتح عينيها الصغيرتين على اتّساعهما، وغالبًا ما ينتهي الأمر بالبكاء. هي ابنة أمّها الوحيدة. تزوّجت بابن عمّها الذي لا أعرف إن أحبّته في يوم من الأيّام. أعطاها والدها بيتًا محاذيًا لبيتهم وغرفتين من بيته تطلّان على الشارع، لتحوّل إحداهما إلى دكّان والأخرى إلى مستودع للبضائع. ومع ذلك، لم تتخلّ عمّتي عن إحساسها المزمن بالغبن والظلم. كانت تحلم ربما بزواج أفضل. ابن عمّها الطيّب لا يناسبها. كانت تفضّله «حربوقًا»، بارعًا في تسيير أموره وفي استثمار منظومة الفساد التي يعيشون ضمنها، ليحسّن أوضاعهم. دائمة الشكوى هي. لا تكتفي ولا ترضا. كان دكّانها من أوائل الدّكاكين في الضّيعة الصغيرة، وكلّ أطفال الأحياء المجاورة أو البعيدة يقصدونها خاصّة في أيّام الجمعة والأعياد. ونساء الضّيعة أيضًا يستثقلن الذّهاب إلى طرطوس لشراء أغراضهن، فيأتين إليها حتّى وإن كنّ على خصام معها. وأنا أرى الدكّان يغصّ بالنّاس وهي تبيعهم، ودمعتها تكاد لا تجفّ من إحساسها بالظّلم والغبن. تقول إنّ الدكّان لا يكاد يطعمها خبزًا مع أنّه مكتظّ دائمًا. أذكر المستودع الذي نمرّ فيه لنخرج من بيت جدّي إلى الشارع، معتمًا، تملأه صناديق الكازوز والبيرة والعرق وأكياس

الألعاب والموادّ الغذائيّة. عندما توفّي زوجها، توقّفت عمّتي عن البكاء. باتت أكثر خفّة. كلُّهم باتوا أكثر خفّة.

كان يمضي والدي أربعة أيّام من كلّ شهر في المشفى، مستلقيًا في سرير ضيّق، غارقًا في غثيان يستمرّ لأسابيع بسبب العلاج الكيماويّ. وأنا كنت في العاشرة، ولا أستطيع النوم بمفردي في البيت. تشقّ عمّتي طريقها من طرطوس إلى دمشق لتنام عندي تلك الأيّام الأربعة. وأنا كنت أصاب بوحشة هائلة. فهي، منذ عودتي من المدرسة، تبدأ بالحكي عن مآسيها دون توقّف. وأذكر كم كان وجودها ثقيلًا. الحيّز الذي تسكنه روحها في المكان، طافح، ويسرق حيّز أيّ روح أخرى في البيت. كانت تنام بالقرب منّي في السّرير ذاته. وأنا لم أكن أغفو. أشعر بجسدي يميل من الجانب الأيسر حيث تنام هي محدثة فجوة في السّرير. ألصق جسدي قدر المستطاع بالحائط البارد والمتعرّج. وهي تشخر وتشخر، ثمّ تقول لي صباحًا: «ما غمضت عيني طول اللّيل.. أبعرف ليه أفيي نام.. أفيي غيّر مخدتي.. أبغفى». عمّتي تشخّر ليلًا، لكنّها لا تنام. وأيضًا، عمّتي لا تأكل! وأيضًا لا تتغوّط. ملاك بهيئة إنسان. هكذا كانت تروّج لنفسها. على الرغم من اكتنازها واستدارة بطنها، تقول إنّها تصاب بدوار من خواء معدتها. نجلس مساء في الصالون. نشاهد مسلسلًا على إحدى المحطّتين السوريّتين الوحيدتين المتاحتين. عمّتي ترخي رأسها وتغطّ في نوم عميق. أوقظها لتدخل إلى الغرفة وتنام. فتقول لي: «ماني نايمة يا عمّتي.. ماني نايمة.. غمّضت عيوني شويّ تإرتاح.. مَإتفرّج عالمسلسل». لم أكن أعرف حينها ماذا يعني لامرأة مغبونة لامست الخمسينيّات، أن تترك بيتها في الضّيعة وتأتي إلى دمشق مرّة كلّ شهر، بهدف البقاء مع ابنة أخيها الوحيدة في البيت.

مضى عام بأكمله من دون أن أتواصل مع كميل. أخاف أن أتَّصل فلا أجده. الآن، في هذه اللَّحظة، عندما كتبت عن خوفي من ألَّا أجده، ابتلعت نصف حبَّة كزانكس. ورغبة بالبكاء تمور وراء صدري. ليست مجرَّد رغبة بالبكاء والنَّشيج وذرف الدُّموع. بل أبعد من ذلك. إنَّها رغبة في اقتلاع ذاكرتي كلّها. ذاكرتي توجعني ولا تهدأ. فجأة، تفور الذكريات وترتطم بعضها ببعض، تبرطع في رأسي وتغلي، وأنا أتحوَّل إلى روح تتعذَّب في جسد مقفول. هل ترك كميل دمشق؟ هل أغلق باب عيادته ورحل مع من رحل؟ كيف له أن يرحل ويتركنا؟ من سيعيدني إلى صوابي؟ والأوراق البيضاء السَّميكة التي فكفكني كميل فوقها وبعثرني، هل ما تزال في الخزانة الحديد البيضاء أم أنَّه أحرقها؟ الخزانة البيضاء تشبه برّاد الموتى. في جواريرها العديدة، ترقد أرواح العشرات أو المئات. اختزالات لحيواتهم دوِّنت هناك. يفتح كميل الجارور بهدوء، يفتِّش بحياديَّة عن ورقتي. وأنا تؤرقني فكرة أنَّ حياتي، مجرَّد ورقة. ورقة واحدة طوال ستّ سنوات. حتَّى أنَّ كميل لم يضطرّ إلى الاستعانة بورقة أخرى. مازال ثمَّة متَّسع لتدوين المزيد. أقول له إنَّ ذاكرتي تزعجني، وأحدِّثه عن زحمة في رأسي وخوف من الانهيار، يبتسم ابتسامته التي لم أعرف طوال ذلك الوقت فكّ لغزها. ابتسامة حياديَّة، خليط من استهزاء بخوفي، استهزاء يرمي إلى تهدئتي والتَّخفيف من هول ما أشعر، وجرعة مكثَّفة ومدروسة من الحنان لا أكاد ألمسها حتَّى تنجلي، وتختفي الابتسامة كعادتها، فجأة، في رمشة عين وراء الدُّخان الكثيف المتسلِّل من شفتيه وفتحتيْ أنفه. يهزّ رأسه هزَّة استدراك، كأنَّه يمسك بيدي لأعبر إلى حديث آخر وذكرى أخرى، تفتح باب الرُّوح فتتخلَّص من خوفها. وهزَّة رأسه أيضًا تتفاوت حدَّتها، ويختلف إيقاعها، بين الاستدراك أو الموافقة أو إنهاء الجلسة. كميل وحده ينهي الجلسة. لا يحقّ لي إنهاؤها

على مزاجي. أو أنَّ مزاجي يخضع حينها إلى مزاجه الذي يتحوَّل بدوره إلى مرآة لروحي. الموضوع معقَّد. وأنا لا أجرؤ على الاتِّصال به.

أصعد الدرج الطويل إلى الطابق الثالث. ألتقط أنفاسي وراء الباب الخشب، وألملم لهاثًا تتعدَّد أسبابه بين تعب وقلق. أدخل إلى العيادة وأجلس على الكرسيِّ ذاته إن كان فارغًا. تستقبلني ليلى بابتسامتها الدَّافئة. ليلى التي أناديها بيسات، كما كان يناديها والدها قبل رحيله. اخترع لها اسمًا مشتقًّا من بسّة أيّ قطّة. غالبًا ما أصل أبكر إلى الموعد كي أجلس معها قليلًا. ندخِّن وندردش بأمور الحياة. نتحدَّث الفرنسيَّة إن كانت العيادة ممتلئة بالناس. بيسات كانت امتدادًا للموعد بالنسبة إليَّ، أو أنَّها تمثِّل الوعي في موعد يشتغل فيه كميل على اللَّاوعي. أحدِّثها عن أموري بوعي، وهي تبادلني قصصها بوعي أيضًا. كانت بيسات تفتح لي باب المطبخ الصغير جدًّا والمقفول دائمًا، عندما أخرج باكية ومنهارة من الموعد. تعدّ لي القهوة ريثما أهدأ. ومرَّة، أحضرت لي نبيذًا أحمر صنعته قريبتها. تذوَّقناه في المطبخ خلسة عن الجالسين في العيادة. غالبًا ما أخرج متعبة من الجلسة التي تستغرق خمسين دقيقة. رأسي يكون مزحومًا بالأسئلة والارتباك. إذ إنَّ كميل يحملني إلى طريق واحد للنجاة، ويتركني هناك وحيدة. وأنا أرى الطريق جيِّدًا وأعرف أنَّه الوحيد، لكنَّني أصاب بالشلل وأعجز عن المشي فيه. وأؤجِّل. كأنَّ التأجيل يحلّ الأمور. وبقيت معظم الأمور مؤجَّلة إلى اليوم. إلَّا أنَّني في محاولة مستميتة للتأقلم مع فشلي في اتِّخاذ قرارات حاسمة، عثرت على سعادة ما. إذ كيف سأعيش من دون حلم ما؟ وصارت تلك القرارات الحاسمة هي الحلم الذي أتنفَّس لأجله وأعيش في سبيله. هل ثمَّة أقسى من تحقيق الأحلام؟ إذ ماذا يتبقَّى لنا؟ أليس محبطًا الإمساك بالحلم والبحث عن آخر؟

وصلت إلى بيروت قبل أربعة أعوام ونصف العام. كان شهر آب والحرّ الدبق ونزق الانتقال إلى مكان آخر. لا أذكر أنّني عشت وحشة تلامس وحشة طفولتي إلّا في ذلك الانتقال المفاجئ والسّريع إلى مدينة، لطالما حلمت بالانتقال للعيش فيها. هنا، من قلب تلك الوحشة، عادت أسئلة الانتماء تلحّ عليَّ وترهقني. ألست خارج أيّ انتماء؟ ألم أعش ثلاثين عامًا من حياتي، مفترضة أنّني لا أنتمي إلى البيوت التي سكنتها ولا إلى الأشخاص الذين عشت معهم؟ من أين أطلّت إذًا تلك الوحشة والسوداويّة مع انتقالي إلى بيروت؟ فكّرت أنَّ عدم الانتماء يصاحبه ربما بحث عميق ولاهث عن طمأنينة ما، أخترعها في أمكنة وتفاصيل غريبة. يصبح السّرير انتماء ألوذ به. الدفتر الأسود. الصُّور العديدة التي أروح أستعرضها في لحظات الاختناق. شبّاك المطبخ المطلّ على حدائق الجيران وأشجارهم وضجيجهم. حتّى فنجان القهوة يصبح انتماءً. والكرسيُّ الذي أعتاده في أيّ بيت من البيوت التي أعيش فيها أو أزورها ولا أرتاح إلّا في الجلوس فيها. الاستيقاظ في السّاعة السّادسة يصبح انتماءً للوقت، ينهار يومي إن فوّتّه في إحدى الصباحات. أصدقاء معيّنون، كانوا انتمائي الوحيد طوال سنوات. كيف سأحمل معي كلّ تلك التفاصيل إلى بيروت؟

في إحدى الزّيارات إلى دمشق، قال كميل إنّني لا أفعل سوى الغوص في عمق الكآبة عن قصد. قال إنَّ رفضي للسّكن في بيت كبير، واختياري لمكان أشبه بغرف الفنادق الرحراحة، ليس سوى رفض للتأقلم والانتماء، وإصرار على جعل المكان الجديد مؤقّتًا. وذلك المؤقّت استغرق أربعة أعوام ونصف العام مضت كرمشة عين، لكنّها رمشة موجعة ومكلفة. يسألني كميل ما الذي يمنعني من الاستقرار؟ ويذكّرني بأنَّ اختياري لبيت واسع لا يعني أنّني لن أعود قريبًا. ليس ذلك سوى

تطيّر واهم. باستطاعتي الاستقرار ولو لأسبوع واحد، هذا ما يقوله كميل. وأنا أرفض أيّ مظهر من مظاهر الانتماء والاستقرار. كلّ ما أفعله مؤقّت. العمل مؤقّت والصداقات كذلك. البيت وأغراض البيت. عشت سنة ونصف السنة ولا يوجد في خزانة المطبخ الصّغير جدًّا، والموجود ضمن الصالون الصّغير جدًّا أيضًا، سوى ثلاثة صحون وثلاث ملاعق وثلاث شوك وثلاث سكاكين. فنجانا قهوة وفنجانا شاي. طعام يكفي ليوم واحد، فقط وكأنّني سأعود في أيّ لحظة. ملابس قليلة ومؤقتة. حقيبة السفر لا أضعها في الخزانة بعد عودتي من دمشق. تبقى في الغرفة مفتوحة، لأشعر أنّني سأغادر بعد وقت قصير ومتى شئت. أنام باكرًا كي ينتهي اليوم. ماذا أيضًا؟ أهمس في سرّي أنّ هؤلاء الأصدقاء الرّائعين الذين خفّفوا قدر استطاعتهم وطأة الغربة والوحشة، ليسوا سوى أصدقاء سفر عابرين. وكنت باللّاشعور، أحافظ على مسافة بعيدة عنهم في البداية. نجلس سويًّة لساعات، لكنّهم يلاحظون تلك المسافة واضحة وحادّة. اختفت مع الوقت، وباتت انتماءً جديدًا أعيشه ضمن مجموعة انتماءات أخرى، جعلت من بيروت مدينة أليفة من دون أن تلغي شوقي المتّقد إلى دمشق الممنوعة من الذهاب إليها، منذ أكثر من ثلاثة أعوام ونصف العام.

كميل طلب منّي ألّا أكتب يوميّاتي، لكنّه لم يطلب ألّا أفعل الأمر ذاته مع آخرين. هربت من يوميّاتي في يوميّات الآخرين وحيواتهم. لم أقل لهم إنّني أريد سرقة بعضًا من ذاكرتهم لأستطيع الهروب من ذاكرتي. حالة الهرب تلك أعيشها منذ سنوات. توق للهرب من أيّ مكان إلى أيّ مكان. لا أخرج إلّا هربًا، ولا أعرف إلى أين! أمشي وأركض وأتعرّق ونبضات قلبي تكاد تشقّ صدري، وأنا لا أرى خطواتي ولا أرى إسفلت الشارع الذي أدعس فوقه. فقط، أرى أفكارًا وذاكرة تدفعني للهروب.

أباجور شبّاك الصالون، لا أذكره إلّا مزقزقًا، كان أوّل جدار يعبث بطمأنينتي ويفتح عينيّ على غواية الهروب. ثمّ باتت الفسحة النحيلة بين العمارتين، قبالة باب شرفة المطبخ، هي المأوى اليومي بين السّاعة الرّابعة والخامسة بعد الظهر، تتلوّن بأحمر شفيف مائل إلى الزرقة، أحلم عبرها بأنّ ثمّة أفقًا آخر ينتظرني وراء تلك العمارات المبنيّة على النمط الاشتراكي. كتل إسمنتيّة متجاورة، رماديّة وموحشة. شبابيكها صغيرة وأبواب شرفاتها ضيّقة، تحجب الشمس وتبعث على الضّيق. أراقب الجيران الغريبين عنّي، يقضون معظم وقتهم في بيوتهم متنقّلين بين غرف الجلوس والشرفات والمطابخ. لا حياة اجتماعيّة ولا زيارات ولا ضجيج يشي بحياة صاخبة. وثمّة ما كان يؤرّق مراقبتي لهم من خلف الزجاج الضيّق. ستائر سميكة يسدلونها على حيواتهم، وأنا أتلصّص من بين فتحاتها ليلًا، وتكون أضواء بيوتهم منارة فتبدو تحرّكاتهم واضحة. وكنت أعشق التلصُّص واختراع قصص لهم والتقاط عاداتهم وأمزجتهم. فكرة الشبابيك كانت تذهلني. وكنت أمضي الوقت في التكسي مع أبي أو أمّي بالتحديق إلى شبابيك بيوت العمارات، والتقاط ألوان جدرانها وأشكال أضوائها بين النيون الكابي والكئيب والثريّات المتلألئة. عوالم البيوت من الخارج يختلط فيها الافتراضيّ بالحقيقيّ بالمزاج والذائقة والحلم. وكنت أحلم دائمًا ببيت عاديٍّ نسكن فيه، شرط أن يطلّ على بيت جميل، لا العكس. ثالث جدار، حفّز رغبتي على الهرب والخلاص، شبابيك صفوف المدرسة التي درست فيها من الرّابعة وحتّى الثامنة عشرة. صفوف في الطابقين الثاني والثالث، شبابيكها الكبيرة مزروعة بقضبان بالطول وبالعرض، خوفًا من أن يهرب الطلاب! المدرسة كانت سجنًا، لولا انصرافنا منها في الواحدة والنُّصف والعودة إلى بيوتنا لكانت سجنًا

حقيقيًّا. أذكر أنَّني كنت أمضي وقتًا طويلًا، جالسة أمام الشبَّاك بقضبانه السميكة، أتفرَّج على الشارع الضيِّق والصاخب. أحسد المارَّة وأتخيَّلهم منصرفين إلى أعمالهم، أو إلى المقاهي الكثيرة المحيطة بالمدرسة.

سعادة غامرة كانت ترتجف في قلبي كلَّما مررت من أمام مدرستي، بعد أن أنهيت البكالوريا. أعبر من أمامها كإنسانة طليقة، غير معنيَّة بما يدور في الداخل، خلف القضبان الحديد الصدئة. وكنت أستمتع بالوقوف تحت شبَّاك صفِّي الذي قضيت فيه المرحلة الثانويَّة كلَّها، أتفرَّج على الطُّلَّاب يعبرون أمام الشُّبَّاك ويلوِّحون للمارة كأنَّهم في مشفى أمراض عقليَّة، يرمون القبل هنا وهناك، وضحكات لا تخلو من التوتُّر يرشقون بها الشُّبَّان المارِّين. ثمَّ يصلني صوت المعلِّمة الغاضبة دائمًا، كما هو حال كلّ المعلِّمات والمعلِّمين، تصرخ على الطالبات بأن يرجعن إلى مقاعدهنّ ويلتزمن الصمت، فتصيبني رغبة مجنونة بالصُّراخ فرحًا، أنَّني أقف في الشارع منفلتة من تلك السُّلطة التي عشت تحت وطأتها خمسة عشر عامًا.

ليس التحرُّر من جوّ الكراهية والخوف والهلع والشكّ الذي عشناه في المدرسة لسنوات طويلة، أمرًا هيِّنًا. المديرة تكره الأساتذة والأساتذة يكرهون بعضهم بعضًا، ويكرهون الطُّلَّاب الَّذين يبادلونهم الكراهية ويكرهون بعضهم بعضًا أيضًا. لكلّ صفّ، عريفة تضع شريطًا أخضر حول ساعدها الأيمن، تكرهنا ونكرهها. العريفة هي المسؤولة عن تسيير أمور الصف، واختراع تهم تعسُّفية تثأر عبرها من خلافات قديمة مع بعض الطالبات. وهي مطالبة حتمًا بدفتر مليء بالشكاوى والتُّهم والملاحظات التقييميَّة لأداء الطالبات وسلوكهن والتزامهن الهدوء بين الحصص الدراسيَّة الستّ الموزَّعة على خمس ساعات ونصف الساعة. كلَّما امتلأ دفتر العريفة، حافظت على مكانتها واستحقَّت اللَّقب. وليس الدَّفتر

سوى تمرين على الوشاية وكتابة «التقارير» المدرسيَّة بالزميلات، وإثارة الشكوك بينهن حول مصدر الوشاية وتهريب الأسرار. معظم الطالبات كنَّ توَّاقات للعب دور العريفة. عدد قليل جدًّا، لم يكن يكترث، الأمر لا يعنيه. عريفة الصفّ، تتمتَّع بامتيازات هائلة. فهي قبل أيّ شيء، تحظى بإعجاب المعلّمين والمدراء والموجّهين وعمَّال وعاملات النظافة. ثمَّ إنَّها لا تطلب من أمِّها صباحًا أن تعدّ لها سندويشات، لأنَّ معظم الطالبات يمنحنها سندويشاتهن. تجلس العريفة في المقعد الأوَّل مهما بلغ طولها. الكلّ يتجنَّب إغضابها. وأنا كنت أحبّ لعب دور العريفة! لا أعرف من أين ينبت ذلك التوق للتسلُّط والتحكُّم بأمور الآخرين! كيف لطفلة كبرت في بيت لا سلطة فيه، أن تكون توَّاقة لامتلاك سلطة ما؟

إضافة إلى العريفة، كانت هناك شلَّة بنات تثير رعب الطلّاب، خاصَّة الأصغر سنًّا. كانت إبنة رئيس مجلس الشعب تمشي في باحة المدرسة محاطة بمافيا من البنات الشرسات، تباعد ساعديها عن جسدها الممتلئ، ترخي شعرها الأشقر، مع أنَّ الشعر المفلوش ممنوع في المدرسة. تربط جاكيت البدلة المدرسيَّة العسكريَّة على خصرها، وهذه أيضًا كانت تعتبر من الكبائر بالنسبة إلى مدرِّبة مادة التربية العسكريَّة. تتمشّى مع صديقاتها في باحة المدرسة وتمارس لعبتها المفضَّلة: اختيار طالبة لا على التعيين، وصفعها، أو شدِّها من شعرها، أو ركلها، ولا تتوقَّف حتى يعلو صراخ البنت واستجداؤها أن تتوقَّف عن إيلامها، وسط ضحكات باقي المنتسبات إليها.

مرَّة، ضربتني. كنت ألعب مع صديقتي بالحبلة، عندما أتت من ورائي، وشدَّت شعري الطويل المربوط، وصفعتني على وجهي. تلك كانت الصفعة الأولى التي أتلقاها في حياتي، والأخيرة. أذكر كيف حفرت

أصابعها على وجهي احمرارًا دام لساعات. بكيت بحرقة وشعرت بإهانة كبيرة. نعم. المدرسة كانت ذلك المكان الذي يختبر فيه الطلّاب أنواع الحياة في بلد كسوريّة الأسد. المكان الذي يُدجّنون فيه، ويتعلّمون تلقّي الإهانة بصمت، ويُدرَّبون على الطاعة وعلى احترام القويّ والمتسلّط. يدرَّبون على السُّخريَّة من بعضهم بعضًا، واستضعاف البنات المنتميات إلى عائلات متوسّطة الدَّخل. يتعلّمون الاستهزاء ممن لم يشترِ لها والدها معطفًا جديدًا أو حذاء أنيقًا باهظ الثمن. ولم يكن اللِّباس الموحّد الذي اختُرع لـ«المساواة بين الطلّاب ولإخفاء الفوارق الطبقيّة»، سوى مزحة هزليّة. لأنَّ كنزات الصُّوف التي ترتديها البنات تحت البدلات العسكريَّة في شتاء الشام القارس، تظهر ببساطة تلك الفوارق. الأحذية الجلديَّة السوداء، أيضًا تميِّز بين ثريّ ومتوسِّط دخل وفقير. الحقائب المدرسيَّة التي تُجدّد كلّ عام أو التي تبقى ملازمة للطالب لسنوات، حتى يطالها الاهتراء ويبوخ لونها، وتتآكل الصورة المطبوعة عليها سنة بعد سنة. الأقلام والدفاتر والمحّايات والبرّايات، كلُّها أدوات استعراض، تثير الغيرة والقهر في قلوب الطلّاب المعدمين. والخرجيَّة اليوميَّة التي يعطيها الأهل كلّ صباح لأولادهم، أيضًا كانت دليلًا إضافيًّا على الفقر أو الغنى. البعض يأتي مع ليرتين اثنتين فقط والبعض مع خمس ليرات، وآخرون مع مئة أو مئة وخمسين».

أغلق نسيم الخطّ، وانكفأ على نفسه. لم أعد أسمع سوى الصمت. شعرت بالطمأنينة كمن يغمض عينيه فجأة. وليس الإغماض هنا مجرَّد فعل عضليّ، بل كمن يغمض عينيه وقلبه وروحه، وينطفئ فجأة كلّ القلق وكلّ الخوف ويحلّ محلّهما إحساس بالخفّة والتخفُّف من كلّ ما سبق وكلّ ما سيأتي. إنَّه التخفُّف من الذاكرة. كم مرَّة حلمت أنَّني أنفض رأسي في الهواء، فتتسرَّب منه كلّ الذاكرة وأرتاح. كم تمنَّيت أن أنسى من أنا وماذا أدعى وأين ولدت ومع من عشت ومن صادقت وأين مشيت، في أيّ شوارع بالضبط عثرت على نفسي وعلى من أحبّ، تمنَّيت أن أنسى، أن أفقد ذاكرتي كلّها دفعة واحدة. لأنَّني أعرف أنَّ الذّاكرة إمَّا تكون أو لا تكون. إمَّا أن تتصالح معها بكلّ ما تحمله من وطأة وهشاشة وفرح وذعر، أو تتخلّى عنها نهائيًّا، إلى حدّ أنَّك تنسى اسمك. وأنا أريد أن أنسى اسمي. أن أنسى اسمي؟ فعلًا؟ أم أنَّني أريد أن ينسوا اسمي؟ هل أنا موجوعة من نفسي أم مما ينتظره الآخرون من نفسي؟ عشت لسنوات طويلة مقتنعة بكراهيَّتي لذاتي. ثمَّ استفقت في يوم من الأيَّام، واكتشفت أنَّني أحبُّها وأستحقُّها، إلَّا أنَّ ما يؤرّقني هو الآخرون. أولئك الذين احتملتهم وحملتهم على كتفي لسنوات طويلة، حتى سكنني نفور ما. وظننت أنَّه نفور من نفسي. إلَّا أنَّه لم يكن في الواقع سوى اشتياق لذاتي، لمن أكون. أشتاقها وحيدة، خفيفة، لا تعيش إلَّا متطلّباتها. إذ لماذا نرهق أرواحنا لتعيش متطلَّبات الآخرين، لتلبّيهم، وتمنحهم الطمأنينة؟ ما فائدة أن نمنح الآخرين الطمأنينة في حين أنَّنا نعيش قلقًا مرعبًا؟

أغلق نسيم سمَّاعة الهاتف وانكفأ على نفسه، وأنا شعرت بطمأنينة غريبة. نهضت من السَّرير وشعرت بجوع رهيب، وكأنَّني لم أتذوَّق لقمة واحدة منذ أيَّام. فأنا فعلًا، لم أعد أتذوَّق الكثير. صرت كائنًا ضدّ الأكل.

عدوّة للأكل. أمسك بقطعة الخبز، وكأنّني أمسك بحجر سأبتلعه ويعلق في حنجرتي، ويصل بشقّ النَّفس إلى معدتي ويصيبني بالتعب. لم أعد أجرؤ على ابتلاع الكثير. ما إن يلامس الطعام معدتي حتّى أشعر بالتعب والإعياء كمن ابتلع خروفًا. الجوع يشعرني بالأمان. الجوع يشعرني بالأمان، فراغ معدتي يشي بفراغ رأسي وذاكرتي وروحي. أحبّ ذلك الفراغ. أروح أبرطع فيه كغيمة صغيرة وحيدة في سماء شاسعة. الجوع يشعرني بالخفّة، يحرّرني من أيّ التزام مرهق، حتّى التزام الهضم. عمليّة الهضم تحتاج إلى جهد لم أعد أحتمله. القلب يضطرّ للخفقان أكثر من المعتاد والمصارين تنقبض وتنفرج، والبطن يصدر أصواتًا. نهضت من سريري مستمتعة بجوعي هذه المرّة، وعرفت أنّني رغم ذلك الجوع الكبير لن آكل إلّا القليل. خرجت من غرفتي إلى الصالون. أمّي تجلس على الكنبة الحمراء تمسك بكتاب بدأت به قبل أسابيع طويلة. وأقسم أنّها تحدّق في الصفحة ذاتها (٢٤) منذ أيّام. أمّي التي صارت كومة صغيرة مرمية على الكنبة تحت غطاء رقيق، تقرأ الجملة وتعيدها وتعيد قراءتها، وما إن تنتقل إلى الجملة التالية حتّى تكتشف أنّ عليها إعادة قراءة الجملة السّابقة التي قرأتها مرّات ومرّات. تروح تحدّق في الجملة ذاتها وتقرأها وتعيد. لا أعرف إن كانت تقرأها فعلًا لساعات طويلة، أم أنّها تصفن فيها كي لا تصفن في الفراغ. ذلك الفراغ يزيد إحساسها بالجنون. هي لم تفقد عقلها، لكنّها تتوهّم ذلك. تقول لي إنّها ستصاب بالزهايمر قريبًا جدًّا. وأنا أرجوها مازحة أن تستعجل. تنظر إليّ بعتب وتبتسم ابتسامة غريبة لا أعرف كنهها، لكنّني ألمح مرارة ما تتسلّل من تلك الابتسامة المقفلة والشاردة والمحدّدة بثوان قليلة. فتنة أمّي كانت في ابتسامتها. هي التي تجيد الضحك والفرح، ها هي كومة جسد هزيل تحت غطاء رقيق. أقول لها إنّ الزهماير يخفّف من

وطاة الموت. يجعلنا نتمنّى موتها بدلًا من ترقُّبه بخوف. يجعلنا نستبدل المأتم بالاحتفاء. يجعلنا؟ من نحن؟ تسألني أمّي، فأصمت.

أمّي الجالسة الآن على الكنبة تقرأ في الصفحة (٢٤) ذاتها منذ أيّام، كبرت فجأة. لم أستوعب كيف كبرت أمّي. نمنا وكانت شابّة، استفقنا وإذ بها كبرت. أتكون كبرت في اللّيل؟ أتكفي ليلة واحدة؟ أتكفي حفنة أحلام ليلة واحدة ليكبر المرء إلى هذا الحدّ؟ وأقول لحسن الحظ أنّها كبرت في اللّيل وليس في قلب النهار مثلًا، لكنت أصبت بالذعر. لو أنّها مثلًا دخلت إلى المطبخ لتحضّر فطورها، وخرجت منه بعد دقائق وقد كبرت. أو لو أنّها قالت لي بصوتها الهادئ إلى حدّ مغيظ: «سليمى أنا فايتة إتحمّم»، ثمّ خرجت من الحمام كبيرة. لحسن الحظ، كبرت أمّي في اللّيل، واستفقنا عليها كبيرة في السّنّ. من نحن؟ هي وأنا فقط. حتى عندما اختفى فؤاد، لم تكبر أمّي. بكت كثيرًا، لكنّها لم تكبر. أتكون الدُّموع هي السّبب؟ ربما. الدُّموع تغسل الروح كما تقول أمّي. أو أنّ الدُّموع أخذت محلّ الكبر. إما كانت ستبكي أو ستكبر. بكت كثيرًا وبحرقة حتّى جفّت دموعها، كما تعيد لي مرّات ومرّات. وعندما جفّت دموعها، نامت أمّي شابّة، واستفاقت عجوزًا. لم أقل لأمّي إنّني لم أنم منذ اختفائه. لم أقل لها إنّني أتمنّى موته كلّ مساء وكلّ صباح وكلّ لحظة. أدعو اللّه وأصلّي وأحفظ آيات من القرآن، ليستجيب ربٌّ ما إلى دعواتي. أحاول عبثًا إبعاد صورته عن مخيّلتي.

ظننت في الأشهر الأولى من اختفائه، أنّ فعل إغماض عينيّ هو الذي يستحضر صورته إلى مخيّلتي، فامتنعت. امتنعت لليالٍ عن إغماضهما حتّى أصبت بالإنهاك، ونمت ساعات طويلة، ثمّ صحوت مستعيدة بعض الطاقة وفتحتهما من جديد على اللّيل والنهار لأسبوع.. وهكذا. لم أقل لها

ولم تقل لي. كنت متأكّدة من أنّها تتمنّى موته أيضًا. إذ كيف لقلب الأمّ أن يهدأ ويبرد إن كان ابنها حيًّا يتعرّض للتعذيب كلّ لحظة؟ وأنا كنت لأسعف روحي، أقول لنفسي إنّ قلب الأمّ دليلها، وإنّ أمّي تحسّ أنّ فؤاد رحل عن هذه الدنيا، لذلك تنام مطمئنة. لا بدّ أنّها تعرف.. أو كيف استطاعت الاستمرار كلّ هذه الأشهر؟ صحيح أنّها كبرت فجأة في اللّيل، إلّا أنّها تجلس الآن هادئة على الكنبة تقرأ الصفحة (٢٤).

مرّة، رويت لكميل كيف أنّني في صغري كنت أتخيّل والدَيّ وأخي الوحيد يتعرّضون للإهانة أو الضرب أو التعذيب. أتخيّلهم يغرقون. ليس غرقًا طبيعيًّا من ذاك الذي يخاف منه نسيم، بل أتخيّل أشخاصًا شرّيرين يتلذّذون بإغراقهم وتعذيبهم. وكنت أبكي في اللّيل وحيدة في فراشي مع معرفتي بأنّهم جميعًا بخير، يرقدون في أسرّتهم. رحنا نفتّش، كميل وأنا، عن أسباب تلك الخواطر والأفكار. إذ كيف لطفلة في التاسعة أو العاشرة، تعيش في بيت هادئ لا ينقصه الحبّ ولا السّكينة، أن تخطر في بالها أفكار عنيفة كهذه! لا أذكر ردّ فعل كميل بدقّة. لكنّني أذكر أنّه وصف ما كان يحدث معي بجلد الذات. نعم كنت أجلد ذاتي، ومازلت. أرى أبي راكعًا على ركبتيه يقبّل قدميْ شخص ما. اليوم أظنّ أنّ الشّخص كان ضابطًا. لكنّني لست متأكّدة إن كنت في طفولتي أتخيّله ضابطًا، أم أنّ فكرة الضابط مكتسبة مع الوقت ومع مرور زمن من الصور الشبيهة والحقيقيّة. لم تعد هذه الصّور متخيّلة! هناك من يقبّل قدميْ ضابط كلّ لحظة في اليوم! هل الفكرة بسيطة إلى هذا الحدّ! هل تصدّقون؟ ألا نقول في جلساتنا إنّ ثمّة إنسانًا يموت كلّ لحظة في هذا العالم الشاسع؟ ألا نقول إنّ ثمّة امرأة تضع طفلًا كلّ ثانية؟ وأيضًا بتنا نقول إنّ ثمّة كائنًا سوريًّا يركع على ركبتيه كلّ لحظة من اليوم ليقبّل مرغمًا قدميْ ضابط ما.

بعد أن اختفى فؤاد، عاتبت نفسي. إذ ما نفع ذلك الاستغراق في جلد الذات في طفولتي؟ ها أنا اليوم أضطرّ لفعل الأمر ذاته، لأسباب مقنعة وليست مجرَّد خيال. لو أنَّني كنت أعلم. لو أنَّني توقَّعت حدوث الأمر، لما استغرقت في تلك الأفكار في وقت مبكّر. لاستمتعت بنوم هادئ لا يعكّره خيال مريض. ثمَّ صرت أواسي نفسي بموت أبي. لقد مات أبي قبل عشر سنوات. لم يمت تحت التعذيب، ولم يتعرَّض للإهانة كما كنت أتخيَّله دائمًا. أمّي تقول إنَّ الخوف قتله. لكنَّني لا أصدِّقها. ربما لا أحبّ تصديقها. لقد مات أبي. كان في الستِّين ومات. نام ولم يستفق. مثل أمّي التي نامت واستفاقت عجوزًا. هو لم يستطع أن يحقِّق تلك القفزة بين العتبتين، فسقط في الموت. ربما لم يشأ أن يكبر، ففضَّل أن يموت. لكنَّه مات وأخذ معه «جلد ذاتي» المتعلِّق به. فلم أعد أتخيَّله إلَّا بكامل أناقته ورهافته واقفًا أو جالسًا وليس راكعًا.

كنت في الخامسة عندما تركنا مدينتنا راحلين إلى دمشق. لا أذكر عن تلك المرحلة إلَّا نتفًا من الصُّور، أرجِّح أنَّها ليست ذاكرتي بل ذاكرة أمّي المرويّة. فأنا أضيع في ذكريات طفولتي بين ما أحتفظ به في ذاكرتي فعلًا وما روي لي أو أمامي. تحكي أمّي كيف تبوَّل أبي في ثيابه، وراح يرجوها أن يحزموا أمتعتهم ويحملوا طفليهم ويرحلوا إلى دمشق. أمّي لم تعثر على الكلمات. بنطال أبي البنّيّ صار داكنًا تحت منطقة المثانة وعند الفخذين. لقد تبوَّل أبي في ثيابه. اليوم، أفكِّر كيف أنَّ تلك القصَّة روتها لنا أمّي في إحدى الصباحات بعد موته. لماذا روتها بعد موته؟ لماذا أرادت لنا أن نعرف؟ هل لتقنعنا أنَّ الخوف هو الذي قتله؟ وقالت أيضًا إنَّه قرَّر الرَّحيل عن مدينتهما حماة مع أنَّه طبيب! قالتها بالضبط هكذا. بعد أن أنهت جملتها، تخيَّلتُ إشارة تعجُّب تغلق فمها. رفعت حاجبيها وهزَّت

رأسها هازئة به. لم أعرف حتَّى اليوم إن كانت تفتقده. ينتابني شعور بأنَّها ارتاحت مع موته. هي لم تقل لي يومًا إنَّ موته أسعدها. لكنَّني أرى ذلك في جسدها وروحها وعينيها. قالت مرَّة ما معناه إنَّ الخوف مرهق ومنهك. قالت إنَّها عاشت معه إثنين وثلاثين عامًا من الخوف. عندما تقول أمِّي الرَّقم تكزّ على الأحرف وتفصلها بعضها عن بعض، لنشعر بوقع الأعوام ووطأتها «تنين وتلاتين سنة!». نعم، لقد ترك والدي مدينته خوفًا ممَّا رآه في الشوارع من قتل وإبادة. هرب مع عائلته إلى دمشق، وظلّ هناك حتَّى بعد أن انتهت المجزرة، وعاد كلّ من نجا إلى بيته وحياته. بالتأكيد، عادوا إلى بيوتهم، لكنْ هل عادوا إلى حياتهم فعلًا؟ هل تستوي الحياة وتعود إلى إيقاعها وكأنَّ شيئًا لم يكن؟ هل يستعيد من تنفَّس رائحة الموت حاسّة الشمّ؟ أبي لم يحدِّثنا ولا مرَّة عن حماة. وكأنَّه استطاع الوصول إلى ما أعجز عن الوصول إليه. استطاع محوها من ذاكرته. استطاع الاحتفاظ بما يريد من تلك الذاكرة. سكنَّا في منطقة «عين الكرش» وأبي استأجر عيادة في العمارة ذاتها. «كيف له أن يعالج الدمشقيِّين بعد أن هرب من إسعاف أبناء مدينته؟» هذا السّؤال يتردَّد في مخيّلتي كالصدى من كثرة ما ردَّدته أمِّي أمامنا. وأنا كنت أشفق على أبي. وعندما أتخيَّل حفلات التعذيب التي يتعرَّضون لها هو وأمِّي وفؤاد، أكثر ما كان يوجع قلبي هو أبي. أراه الأكثر تأثُّرًا بينهم من الوجع. ألمح وجهه ينكمش من الألم. وأكثر ما كان يقهرني، مفردات الاستجداء والاستعطاف التي تخرج من فمه الجريح على شكل تمتمات متعبة. أتخيَّله يقول لهم: «دخيل اللَّـه اقتلوني، ريّحوني، ما عاد اتحمل». وأبكي. وأشتاق إليه في اللَّيل، فأتسلَّل من سريري إلى غرفتهما، أروح إلى حافَّة السَّرير اليمنى حيث ينام والدي. أقف فوق رأسه. أمدّ إصبعي الصغير إلى أنفه فأطمئنّ إلى أنَّه ما يزال على قيد الحياة، رغم

حفلة التعذيب الدامية تلك. (عندما قرأت مخطوط رواية نسيم الأخيرة، رأيت نفسي. سرقني نسيم وكتب روايته تلك. لم أقل له ذلك). أمّا أمّي وفؤاد، فكانا دومًا أشدّ مقاومة! وملامح وجهيهما لا تستجدي شفقة. على العكس، فيها شجاعة وعناد. أبي وحده كان منظره يشلّع روحي. لحسن الحظّ، مات أبي ولم يضطرّ إلى إبراز هويّته على أحد الحواجز والتعرُّض إلى أسئلة محرجة.

هل ربط كميل بين ولعي بجلد الذّات وبين مجزرة حماة وانتقالنا إلى دمشق؟ لا أذكر ولا أعتقد أنّه فعل، لأنّني لا أعرف ما حدث بالضبط، ولم أعش في دمشق إلّا حياة مستقرّة. أذكر أنّ صورة الرئيس كانت معلّقة في عيادة والدي. وأذكر أنّ الأمر كان يغضب أمّي إلى حدّ بعيد. «حاطط صورة اللّي قتل أهلك؟ فرحان فيه؟ ما بيكفي إنّك هربت؟ بتعرف اللّي بيقتل القتيل وبيمشي بجنازته؟» كانت تسأله هذا السُّؤال، دون أن تكلّف نفسها عناء الإجابة عنه. فلا تقول له مثلًا: «أنت هو الذي يقتل القتيل ويمشي في جنازته»، بل تتركه حائرًا موجوعًا على الأرجح أمام إلحاحها الدائم على لومه. وتضيف غالبًا بما يشبه التمتمة: «ما عتب على باقي الشوريّين اللّي سكّروا أبواب بيوتهم بوجهنا». وهنا أيضًا، لا تضيف أنّ العتب لا يجوز في هذه الحالة، لأنّ بعض أبناء البلد (والدي على رأسهم) هرب، تاركًا أبناء جلدته يموتون وحدهم دون أن يسعفهم أو على الأقل أن يقف إلى جانبهم، يتنفّس رائحة موتهم، ويحدّق في جثثهم مرمية في الشّوارع يرشح منها الدم. وأبي كان يردّ عليها بائسًا: «إي، لأنّي من حماة علّقتها للصورة! لأنّ ذنبي أعظم»، يقول هذه العبارة وعبارات أخرى مشابهة، ويرحل من البيت إلى العيادة أو إلى المقهى حيث يلتقي بأصدقائه. كانت الصُّورة، بشكل من الأشكال، اعتراف بأنّه لا ينتمي إلى ذلك المكان، بأنّه فكّ

ارتباطه وانتزع ما حدث من ذاكرته، وسامح وتسامح وتصالح. أبي لم يكن يريد سوى أن يعيش ويعيِّش عائلته الصغيرة. فماذا أرادت أمّي طوال تلك السّنوات من العتب واللّوم والإلحاح على تذكيره بخيانته العظمى؟ ماذا أرادت غير أن تعيِّشنا بكرامة؟ أكانت تتمنّى لو بقينا في حماة وقتل زوجها مثلًا؟ هل كان موت زوجها كغيره من الحمويّين سيساعدها على الاستقرار في ذاكرة عاشها الآخرون من أبناء مدينتها؟ هل الموت، في بعض حالاته، تحفيز للحياة والكرامة؟ هل كانت أمّي تفضّل العيش أرملة بكامل كرامتها وشجاعتها عن العيش بصحبة زوج «جبان» و«خنوع» طوال «تنين وتلاتين سنة» ـ مع التشديد على الأحرف والمباعدة بينها!

قلت لنسيم مازحة أن يكتب قصّة أبي، لكنّه لم يستجب للمزحة حتّى في إطار المزاح. نعم، نسيم جدّي إلى حدّ الضجر. حتّى إنّه لا يجيد المزاح. يرمي نكتة ما أو مزحة بنبرة مفرطة الجدّيّة، محتفظًا بعبسة حاجبيه وتلك العقدة التي تربط بينهما حتى باتت جزءًا من خطوط وجهه، وكأنّها ولدت معه وولد معها! عقدة موجودة بينهما ومستقرّة بقوّة، وكأنّ روحه خرجت منها وليس من صدره ولا من رحم أمّه، وكأنّ تلك العقدة هي التي بثّت الرّوح فيه. نسيم لم يكتب قصّة أبي. وأمّي أيضًا لم أعثر عليها في مخطوط روايته الأخيرة. لكنّه سرقني. لم أقل له ذلك. ثمّ إنّني لو قلت، سينفي حتمًا. سيقول إنّ قصّة بطلة روايته لا تتلاقى مع قصّتي ولا بأيّ شكل من الأشكال. وأنا سأرتبك وأتلعثم، لأنّني لن أجد مهما حاولت بشقاء أيّ دليل ملموس على أنّني هي، تلك مجهولة الاسم. لماذا تركها بلا اسم؟ هل لأنّه أراد الكتابة عنّي؟ فهو لن يتجرّأ على تسميتها سليمى بالتأكيد، ولو اختار لها اسمًا آخر، ستتعطّل مخيّلته ويصيبها شرود ما. لذلك تركها على الأرجح بلا اسم محدّد. لكنّها أنا! صحيح أنّها تنتمي

إلى عائلة أخرى، وعاشت ذاكرة مختلفة تمامًا، إلَّا أنَّ روحينا تسبحان في الفلك ذاته. لم أقل له. لا أملك حجّة قوّيَّة. سيقول لي ربَّما إنَّنا ننتمي للجيل ذاته ونعيش في المدينة نفسها، ونتشارك تفاصيل عامّة عاشها كلّ السوريِّين. إضافة إلى أنَّنا نزور كميل. لن أعرف كيف أشرح له أنَّ شبهنا لا ينطلق من تلك المسائل، ولا حتَّى من زيارتنا لكميل. ثمَّة ما هو أعمق من مسألة الجيل والبلد والطبيب.

لفتتني لغة روايته تلك. لم أعثر فيها إلَّا على يوميَّات مكتوبة بلغة صحافيَّة متفاوتة العذوبة. وكأنَّه في عجزه عن كتابة رواية عن الثورة، اختار اليوميَّات ليبرّر لنفسه تلك الرّكاكة.

«كنتُ إن أشرقت الشمس، أُصاب بكآبة ووحشة. وإن اختبأتْ وراء غيوم لدنة وداكنة، أفرح. وكأنَّ الشَّمس إن غابت في السَّماء، أشرقت في روحي. أحمل الكومبيوتر وأذهب إلى المقهى القريب من بيتنا. لا أستفيض بالكتابة إلّا عندما تغيب الشمس، وعندما تشرق موحية بأنَّها مستقرَّة في إشراقتها تلك، ألملم أغراضي وأعود خائبة إلى البيت. ثمَّ فقدت تلك المتعة مع وصولي إلى بيروت. لم أعد قادرة على الكتابة. وصارت الغيوم تصيبني بإحباط كبير. فقدتُ عادة القراءة، وصار مشهد الكتب الكثيرة المصفوفة قبالتي في صالون صغير جدًّا، يزيد من إحساسي بالتقصير. فأنا كنت أمضي معظم وقتي في القراءة. صارت الكتب مضجرة بالنسبة إليَّ، وكأنَّها تخرجني بالقوَّة ممَّا لا أريد الخروج منه. فأنا مرهونة بكلّ حواسي لما يجري في بلدي. في بيروت، كرهت الغيوم والأمطار. ببساطة، لأنَّها تجعل بيتي أكثر بعدًا. أكره عدم قدرتي على الذهاب إلى بيتي متى شئت. حتَّى لو أنَّني لن أذهب اليوم، إلَّا أنَّ فكرة تراكم الثلوج وإغلاق الطرقات، كانت تحوِّل بيروت إلى سجن خانق. أذكر أنَّني كنت أمضي وقتًا طويلًا في اللَّيل متصفِّحة «غوغل ايرث». أروح أصغِّر الخريطة أكثر فأكثر كي ألمح دمشق على الخريطة. وتمتعني فكرة أنَّ المسافة بيني وبينها قصيرة جدًّا. وأنَّها تكاد تكون أقرب من طرابلس اللُّبنانيَّة. وعلى الرَّغم من تراكم الثلوج، كنت أزورها مرَّة كلَّ أسبوعين. علقنا في «ضهر البيدر» أكثر من مرَّة. وكان الطريق منهِكًا إلى حدّ بعيد. الثلوج في كلّ مكان. حتَّى الهواء، أذكر أنَّه كان أبيضَ، مشبعًا بنتف الثلج. يبدأ النُّور بالخفوت شيئًا فشيئًا. تحلّ العتمة. لا أضواء تنير جانبيْ الطريق، ولا شيء يشي بالحياة. كنَّا نعلق في مكان لا بيوت فيه

ولا مقاهٍ ولا صيدليّات. فقط تلال من الثلوج وهواء من ثلج وبرد قارس وسيّارة التكسي مطفأة ليوفّر السّائق البنزين القليل المتبقي، وانتظار طويل كان يصيبني بالاختناق. أشعر بالحرّ من التوتُّر، فأفتح الشُّبّاك. أبرد فأغلقه. أضجر، فأنزل من السّيّارة، وأتمشّى على الثلج بين السّيّارات الكثيرة المنتظرة وراءنا وأمامنا. أعطش ولا أعثر على الماء الكثير الذي أحضرته وارتشفته من التوتُّر. ثمّ يصيبني الهلع من أن نموت محشورين في هذا المكان الضيّق، أو أن يطمرنا الثلج مع السّيّارات الأخرى ونموت ميتة جماعيّة كما يموت السوريُّون. ثمّ فجأة، تحدث المعجزة، وتبدأ السّيّارات بالتحرُّك واحدة تلو الأخرى نزولًا إلى شتورا. وعندما نصل إليها، يكون الخطر قد انزاح تمامًا، ويبدأ قلبي بالخفقان، لأنّني سأصل إلى بيتي قريبًا.

أزور كميل في كلّ مرّة أزور فيها دمشق. أقصد عيادته يوم السبت، وأشعر بالاطمئنان عندما أحجز موعدًا مسبقًا قبل أسبوعين من الموعد القادم. تقول لي ليلى لا داعٍ لذلك، فقط عليّ أن أتّصل قبل يومين من زيارتي القادمة. لكنّني أصرّ، وكأنّ الموعد المحدّد مسبقًا يخفّف وطأة العودة إلى بيروت. إلى أن قال لي كميل في آخر زيارة لي إلى دمشق (ولم أكن أعلم أنّها ستكون آخر زيارة): خلص. لم يعد ثمّة داعٍ لأن أزوره. سألته إن كان لملمني جيّدًا، قطعة قطعة، ذاكرة فوق الأخرى، خليّة خليّة، هزّ برأسه أن نعم. أفكّر الآن أنّ كميل لم يقل لي ذلك اليوم: خلص، إلّا ليمنحني خيار التأقلم في بيروت. كأنّه يعرف أنّ ارتباطي بزيارته يقلّل من فرص اعتيادي على حياة جديدة، ويعيق إحساسي بالديمومة. ما الذي يقودني إلى هذه القناعة؟ ربّما لأنّ حاجتي إليه مستمرّة، ووضعي النفسي يزداد سوءًا يومًا بعد يوم. مازلت أختنق وأصارع الخوف والقلق ونوبات الهلع.

مازلت أحصي خطواتي من الصَّباح الباكر وحتَّى غروب الشَّمس. يبقى جسدي ملعبًا للتوتُّر حتى تنطفئ الشَّمس ويحلّ الظلام معلنًا عن نهاية يوم آخر. وماذا أنتظر؟ لم أعد أنتظر شيئًا. لا الكتابة صباحًا ولا القراءة ولا لقاء الأصدقاء، ولا أيّ متعة أخرى. والأهم أنَّ العودة باتت خيالًا. والحرب عبثت بالجغرافيا وأعادت رسم الطرقات والحدود، وبيتي يتراجع كلّ يوم خطوة إلى الوراء، حتى باتت باريس أو لندن أو ألمانيا أقرب منه.

لا أعرف كيف حدثت القطيعة. فعلًا، لا أعرف. لا أتذكَّر كيف بدأت. لأنَّها لم تكن بداية واضحة، في تاريخ محدَّد وساعة معيَّنة. وكأنَّ تواطؤًا ما حدث بالخفية وخارج إطار الكلام والبوح والآراء المتبادلة. وهو ليس تواطؤًا مشتركًا بل من طرف واحد. فجأة، اكتشفت أنَّ القطيعة حدثت. وفي ذلك الحين، لم أنوِ أن أقاطع. لم تكن الدِّماء قد سالت بعد. في قلبي، كان مايزال هناك متَّسع للاختلاف والإصغاء، وربما، ربما (لست متأكِّدة) مكان للتسامح ومحاولة فهم وجهة نظرهم. صحيح أنَّنا كنَّا مختلفين طوال الوقت، لكنَّ الخلاف لم يكن في يوم من الأيَّام سياسيًّا. اقتصر على سخريَّتهم من لوني الأسمر، واعتدادهم بلون بشرتهم الأبيض وأعينهم الزرقاء أو الخضراء أو العسليَّة على الأقلّ! وأيضًا تعدَّى لون البشرة إلى لومهم الدائم بأنَّني «قليلة أصل» وبأنَّني لا أعترف بتاريخي وانتمائي لهم. وأنا، فعلًا، لم أكن أشعر بأدنى انتماء إلى العائلة، بل إلى بعض أفرادها ممن أعثر بصحبتهم على حديث وهمّ مشتركيْن. كان أقربهم إلى قلبي ابن عمَّتي، أخت والدي من أمِّه وأبيه، فريد. وهو الأكبر بين أولادها. كنت صغيرة عندما تزوَّج واصطحبني معه إلى بيت أهل حبيبته ليخطبها، وحضرت عرسهما، وحملت أطفالهما الثلاثة وكنت في الخامسة عشرة. أزورهم في بيتهم المحاذي لبيت عمَّتي، ونسهر سويَّة على البلكون المطلّ

بمشقَّة على البحر بعد أن علت العمارات آكلة جزءًا يسيرًا من المشهد. نحتسي العرق، زوجته وهو وأنا، ونتحدَّث في أمور العائلة وفي السياسة. نتشارك كلّ الآراء ولا نختلف إلّا على أمور سطحيَّة. كان فريد معارضًا في آرائه. ومعارضته تختلف في منطلقها عن معارضتي أو معارضة الكثيرين. فهو إبن الضَّيعة الذي درس الفلسفة وقرأ واطّلع وحلم، ثمَّ وجد نفسه حبيس معمل الإسمنت، يقضي فيه كلّ النهار، ويعاني من أزمات صحِّيَّة بسبب مخلَّفات الإسمنت المسرطنة. وجد نفسه هناك، لأنَّه لم يجد مكانًا آخر يلجأ إليه ليعيل أسرته. ثمَّ اضطرّ إلى فتح دكان صغير يبيع فيه ملابس مستوردة من تركيا، لأنَّ راتب معمل الإسمنت لا يكفي. هو معارض لأنَّه درس الفلسفة بلا جدوى، وضاعت حياته ركضًا منهكًا ليؤمِّن لعائلته حياةً كريمة. أخوه الأصغر لديه الأسباب نفسها ليكون معارضًا لكنَّه لم يكن كذلك. بل وجد نفسه في اللاجدوى، واستمتع بها إلى حدّ بعيد. درس الفنون الجميلة، وكان رسَّامًا ومدرِّسًا لمادَّة الرَّسم في إحدى مدراس طرطوس. إلى أن تزوَّج، ولم يعد راتب أستاذ الرَّسم يكفي لشيء. فوجد نفسه عازفًا على «الدربكَّة» في ملهى ليليّ مطلّ على البحر يرافق الراقصة في وصلتها. طلبت منه مرَّة أن يصطحبني معه لأتفرَّج، فرفض. لأنَّ المكان لا يليق «بنا». إلَّا أنَّه وجد نفسه في ذلك المكان «غير اللائق» على حدّ تعبيره. ثمَّ إنَّه اشترى مسدَّسًا غير مرخَّص، بعد أن بدأ عمله في الملهى. (لم أكن أعرف أنَّ المسدَّس سيُستخدم لأغراض أخرى بعد الثورة). إبن عمِّي الكبير، عمِّي أخي والدي من أبيه فقط، كان مهندسًا. كنَّا صديقين، نلتقي كلَّ شهرين أو ثلاثة. يزورنا في بيتنا في دمشق ويقضي اللَّيل عندنا، نسهر وندردش. زوجته من اللاذقية وأهلها «شبّيحة». لم تكن علاقتهما جيِّدة. حاول الانفصال عنها، لكنَّهم هدَّدوه بالقتل، فانصرف عن الفكرة.

عاش معها غصبًا عنه، وكان معارضًا. ثمَّ قال لي المهندس بعد سنتين من الثورة إنَّه قتل تسعة أشخاص، ولا مانع لديه أن أكون العاشرة.

في آخر زيارة إلى دمشق، قبل أن يفكّ كميل أسري ويطلقني إلى الحياة، كائنًا طبيعيًا وسويًا، استعدت معه حديثًا قديمًا عن أن حياتي مملوءة بالنِّساء، وأنَّ الرِّجال كانوا إمّا مرضى أو معوَّقين أو راحلين.. في تلك الزيارة الأخيرة، أضفت: «أو قتلة». ارتعشت عينا كميل، واستطعت أن ألمح تلك الارتعاشة من وراء الدُّخان الكثيف. أتكون هذه الجملة هي ما جعل كميل يحرّرني من زيارته ليحميني من المجيء إلى دمشق؟ وكأنَّه يقول لي: «عودي إلى بيروت ولا ترجعي إلى دمشق». كان ذلك قبل شهرين بالضبط من حادثة إبنة عمَّتي الكبرى التي كتبت لي رسالة تقول فيها: «لا أتمنَّى أن يقتلوا أمَّك، لا، بل أتمنَّى أن يغتصبوكِ أمام عينيها ويذبحوكِ لتعيش حياتها معذَّبة». نعم، هذا ما كتبته إبنة عمَّتي الكبرى، الوحيدة بين أخواتها الثلاث الحاصلة على شهادة جامعيَّة بالأدب الإنكليزيّ، والتي تدرِّس الإنكليزيَّة في طرطوس. الوحيدة بين أخواتها التي كانت تقرأ بنهم، وتطلب منِّي في كلّ زيارة أن أزوِّدها بأجمل كتب قرأتها في الرواية والقصَّة والمسرح والفلسفة وأدب اليوميَّات والسجون. أذكر أنَّني أصبت بنوبة هلع بعد قراءة ذلك المقطع. صرت أرتجف بين الكلمات. ثمَّة جرعة من العنف لا أقوى على احتمالها. كيف أوصلنا الاختلاف إلى هذا الحدّ؟ هل ينام الإنسان إنسانًا، ويستفيق وحشًا؟ أم أنَّ ذلك الوحش كان مختبئًا يلوذ بجسد امرأة متعلِّمة ومُحبَّة وتدَّعي الرِّقَّة، وقرَّر الخروج مهما كلَّفه الأمر. وماذا كلَّفه الأمر؟ لا شيء. لقد تعاطفت معه الوحوش الأخرى المختبئة في قلب الرَّسام عازف الدربكّة في الملهى اللَّيليّ، وفي قلب ابنة العمَّة الصغرى التي تزوَّجت

برجل تحوّل من ديبو إلى علي في وضح النّهار وعلى مرأى الجميع، وفي قلب الأخ الأصغر الذي رسب في الشّهادة العامّة «لأنَّ حظّه قليل»، والّذي وجد في سنوات الثورة ملاذه وتوقه للسُّلطة، فصار شبّيحًا يسلِّم أبناء الضّيعة المتخلِّفين عن «خدمة العلم والوطن»، يشي بهم ويسلِّمهم للموت. وحديثًا، تطوّع في المخابرات الجوّيّة، مخبرًا وقاتلًا. الوحش الذي خرج من فم ابنة عمّتي الكبرى أخرج باقي الوحوش ورماها دفعة واحدة في وجهي وفي وجوه باقي أفراد العائلة المختلفين عنهم. وأنا التي ظننت دائمًا أنَّ روحي هي وحدها تسبح في جسدي، نبت وحش صغير في داخلي، وتمنّيت موتها بعد أن قرأت المقطع الذي كتبته. صحيح أنّني لم أتمنَّ أن تموت ذبحًا ولا اغتصابًا، لكنّني تمنّيت موتها! وهذا يكفي. هذا القدر من التوحُّش يكفي، لأعلم أنّنا لن نعيش معًا بعد الآن، لا نريد أن نعيش معًا في الواقع. فمن منّا يلائمه العيش مع وحش وقاتل؟ ثمَّ أخذها خيالها إلى حدّ الكتابة عن رحم أمّي. قالت إنَّ رحمها السُّنّي قذر وتمنّت له السرطان: «الرّحم السُّنّي اللّي حملك يبلاه بسرطان». ثمّ شطحت أكثر في خيالها، وراحت تحكي عن النطف الوسخة. وأنا صرت أرى نفسي أتضاءل وأنكمش وأتحوّل إلى بذرة في رحم أمّي. صرت أفهم كيف يقتلون الناس ويعذّبونهم ويستلّذون. إنّهم لا يرون بين أيديهم المتوحّشة أجسادًا، بل نطفًا قذرة يجب سحقها.

تلك الوحوش التي شتمت وشبّحت لنظام يقتل أشخاصًا تخفق أرواحهم وراء صدورهم بدم بارد، نامت واستفاقت، فاكتشفت أنَّ أمّي سنّيّة! طوال تلك السّنوات التي عاشت فيها أمّي مع والدي ومعهم في ضيعتنا أو في بيتنا في دمشق، أو في بيوت بعضهم في دمشق أيضًا، لم يكتشفوا أنّها سنّيّة! الثورة جعلتهم يفتحون أعينهم الزرقاء والخضراء على

اتِّساعها محدِّقين بسنِّيَّتها؛ وهي التي لم تشتم، واستهجنت الدعوات إلى قتلنا، لم تكتشف أنَّهم علويُّون! كانت تعرف طوال الوقت أنَّهم كذلك، ولم تجعلهم الوحوش، الخارجة أفواجًا من أفواههم وأيديهم وأرواحهم، علويِّين في نظرها. بل أشخاصًا متوحِّشين، لأنَّهم كذلك، وليس لأنَّهم ينتمون إلى طائفة بعينها. أو كأنَّ الثورة كانت طلاقًا وحالة انفصال، حينها يبدأ أهل المطلَّقين باستذكار العيوب واستكشاف الأزمات النفسيَّة، فيبدأون بالقول على سبيل المثال: «أصلًا هي طول عمرها بلا أصل، وما عندها مبادئ، منيح اللِّي طلَّقها»، أو العكس. وكأنَّ اندلاع الثورة، جعل أمِّي مطلَّقة وليس أرملة. «أصلًا هي كلّ عمرها بلا أصل، سنِّيَّة»! ها أنا أصاب بنوبة هلع في استذكار تلك التفاصيل. ألم أتمنَ أن أتخلَّص من ذاكرتي نهائيًّا؟ أن أرميها. فظيعةٌ الذاكرة. ما إن أتسلَّل إليها حتَّى تعبث تلك التفاصيل بدقَّات قلبي وبالكهرباء المنظَّمة لضرباته.

تلك القطيعة أحدثت ثقبًا في ذاكرتي. فهي لم تأتِ بعد تراكمات أو بالتدرُّج، بل جاءت دفعة واحدة بلا مقدِّمات. كيف يصبح الإنسان وحشًا؟ وهل يصبح فجأة أم بالتدريج؟ وهل كان الوحش مختبئًا في روحه، ينام مع نومه ويستفيق مع استفاقته، ويأكل معه ويتغذَّى ويلبس ويتأنَّق ويكبر ويدخِّن، منتظرًا اللَّحظة المناسبة للتسلُّل؟ الثَّورة انطلقت في لحظة واحدة.وفي تلك اللَّحظة، خرجت الوحوش وملأت المدينة والبيوت والجلسات، ضربت وصفعت وشتمت وقتلت ودمَّرت تاريخًا من علاقات إنسانيَّة».

والدي كان في عيادته، أو في مستشفى الطِّلياني، يجري عملية ما، لا أذكر بالضبط. أمّي في المطبخ تحضّر الطعام. أنا وفؤاد نجلس في الصالون ملتصقيْن بمدفأة الحطب. أدارت أمّي التّلفاز لنا كي لا نضجر ونضجرها. نشرة أخبار الظهيرة كانت تُعرض على المحطّة الوحيدة المتوافرة آنذاك «القناة السُّوريّة». المذيعة تقول إنَّ رئيس مجلس الوزراء افتتح صرحًا «حضاريًّا» ما. ثمّ تختفي المذيعة، وتعرض محلّها مشاهد من حفل الافتتاح. المشاهد صامتة. رئيس مجلس الوزراء يقصّ الشَّريط الأحمر، فيصفّق الحاضرون. لا نسمع صوت تصفيقهم ولا وقع ضحكاتهم وابتساماتهم العريضة. يشبهون بعضهم بعضًا. البدلة الكحليّة ذاتها. والقميص الأبيض ذاته. الشارب الكثيف ذاته. الشَّعر المصبوغ نفسه مع اختلافات طفيفة بالسَّماكة والتسريحة. فؤاد يغمض عينيه فجأة ويروح يصرخ. تأتي أمّي استجابة لصراخه. فترى المشهد ذاته الذي تسيل أمامه دموع فؤاد غزيرة في كلّ مرّة، وكأنّها المرّة الأولى. كان فؤاد يخاف. يقول لي: «لماذا لا نسمع صوت تصفيقهم؟ لماذا يصفّقون في الهواء؟». ذكَّرني فؤاد بذلك الخوف في أوّل مظاهرة شارك فيها مع أصدقائه في حيّ الميدان. قال لي: «كنت أصرخ وأسمع وصوتي. الكلّ يصرخ ويصفّق. الكلّ يسمع الكلّ. زمن الصمت ولّى». ولم تكن عبارته تلك تنتمي إلى الكليشيه ولا بشكل من الأشكال. كان يعني ما يقول. زمن الصمت الذي أرعبه على شاشة التلفاز وفي المدرسة والبيت والشَّارع ولّى دون رجعة.

أمّي كانت تعرف أنَّ ابنها الوحيد يشارك بالمظاهرات. كانت سعيدة به. كأنَّ مشاركته تأخذ لها حقَّها الذي سرقه منها والدي. تثأر لنفسها. وأنا كنت أتفاجأ بها وهي تحثُّه على الإسراع في الخروج والمشاركة. ألا تخاف عليه؟ أسأل نفسي. لم أسألها. خطر في بالي أن أسألها بعد أن اختفى،

لكنّني امتنعت. كان فؤاد ذاهبًا إلى عمله ولم يعد. بهذه البساطة. خرج ولم يعد. كان ذلك قبل عامين ونصف العام. وأنا أصلّي له كلّ يوم أن يكون ميّتًا. وهدوء أمّي التي كبرت فجأة، يطمئنني. لقد مات فعلًا. وإلّا من أين لقلب الأمّ كلّ هذا الهدوء!

كان فؤاد أستاذًا في المعهد العالي للفنون المسرحيّة. هذه الـ«كان»، تؤلمني. إلّا أنّها فعل ماض ناقص وليس منتهيًا. مع أنّني أتمنّاه منتهيًا، كماضٍ بعيد. أرادت له أمّي أن يكون طبيبًا، مثلها كمثل والدة نسيم. إلّا أنّ أسبابها مختلفة لا بدّ. أرادت أن تعوّض به عن زوجها «الخائن». هل كانت تتوقّع مذبحة أخرى؟ مجزرة ثانية ترسله في خطاها لينقذ جيلًا آخر من الحمويّين؟ إلّا أنّ فؤاد لم يستجب لطلبها. أراد أن يدرس النقد المسرحيّ، وأن يصبح أستاذًا في بلد يعيش أزمة مسارح وتمويل وثقافة وتبعية وفساد. كان المعهد بالنسبة إليه ملجأ من وحشة المدينة. «كان» من جديد؟ أحبّ جوّه وطلّابه وذلك التنوّع الطائفيّ والمناطقيّ الفالت نوعًا ما من قبضة النظام والأجهزة الأمنيّة. كأنّه منطقة محايدة، محميّة، تخضع لسلطة أعلى من كلّ السّلطات. هناك، في المعهد، القريب من مبنى «الإذاعة والتلفزيون» ومن «مكتبة الأسد»، كان ثمّة سوريّة أخرى. هذا ما كان يردّده فؤاد أمامي ليحرّضني على الانضمام إليه بدلًا من الفنون الجميلة. ثمّ بعد الثّورة، نفث ذلك المبنى الأبيض الأنيق روحه، وتقمّصته روح أخرى. دبّت فيه الخلافات، ودخلته الأجهزة الأمنيّة متحصّنة بسيّاراتها وأسلحتها. وذلك التنوّع الطائفيّ والمناطقيّ، لم يعد في صورته البهيّة التي روّج لها فؤاد. ظهرت الانقسامات بأوضح صورها، وراح الكثير من الأساتذة يستعيض عن المسرح في دروسه بمحاضرات توضيحيّة عن أماكن تجمّع «الإرهابيّين» وعن نيّتهم القضاء على الأقليّات وذبحها بدم بارد. واختفى فؤاد. هل كان

المعهد مدرجًا على خارطة تجمُّع الإرهابيّين؟ هل اعتبروه إرهابيًّا؟ هل تحوَّل في لحظة واحدة إلى مجرَّد أستاذ من حماة يحمل ذاكرتها؟

عندما اختفى فؤاد، لم يبدِ نسيم أيّ تعاطف. فقط، نظر إليّ وكأنَّه يقول: «ألم أقل لك؟» لم يكن قد بدأ حينها بضرب نفسه وصفع وجنتيه. كان مايزال قادرًا على النَّظر في عينيّ والتَّحديق في الفراغ المحيط بالبؤبؤين. عيناي كانتا مركز الكون. هذا ما قاله لي في أكثر من مناسبة. لم يكن نسيم يجيد الشرح. هو الذي يكتب روايات عن أشخاص آخرين، لا يجيد الحكي عن نفسه. وكأنَّ الكتابة تجعله في اكتفاء، تغنيه عن الحياة. يسكت في الحياة ويحكي على الورق. يجلس معي، وفي عينيه دائمًا يلوح ضجر ما وقلّة جَلَد على الحكي والإصغاء. إنَّه يجيد الصَّمت فقط. وفي الفترة الأخيرة، بات يجيد ضرب نفسه. أعرف أنَّ نسيم لم يستوعب بعد ما حدث. لكنَّني لا أفهم كيف أنَّه لم يستوعب؟ ألا تكفي السَّنوات الخمس؟ لم يتوقَّف الزَّمن ذلك اليوم، ومرَّت خمس سنوات ونسيم كأنَّه أغمض عينيه ولم يفتحهما إلَّا الآن. دخل في غيبوبة منتصف العام ٢٠١١ واستفاق الآن، فاكتشف أنَّ بيت والديه في حمص دمِّر تحت قذيفة، وأنَّ أمّه وأخته الوحيدة توفِّيتا تحت الأنقاض، ووالده شُلّت أطرافه وفقد عقله بعد أن نجا وحده من تلك الحادثة. فجأة، استفاق نسيم ووجد نفسه وحيدًا مع أب مشلول ومجنون يحدّث نفسه طوال النهار. أيكون فقد عقله هو أيضًا؟ لا أظنّ ذلك. لقد أرسل لي مخطوط كتابه قبل أيّام أو أسابيع أو أشهر، لم أعد أذكر. لأنَّ الزَّمن فقد معناه. وأنا لم أقل له حتَّى الآن إنَّه سرقني، وإنَّ إرساله للكتاب ليس سوى محاولة لتبرير سرقته تلك. وددت أن أقول له توقَّف عن الكتابة. لقد تعطَّل خيالك، ولم تعد قادرًا على رسم ملامح شخصيَّات لا تعرفها. لم تعد قادرًا على الابتكار فاتَّكأت عليّ، على

خوفي وقلقي وطفولتي وهواجسي وملامح وجهي. لقد سرقت شوقي إلى نفسي وإلى ما أضعته سنة بعد سنة من دون أن أعثر عليه. ما يضيع، يضيع إلى الأبد، لا سبيل لاستعادته، وكلّ محاولة لاستعادته لن تكون سوى طريق لإحباط جديد وخيبة تضاف إلى كومة الخيبات.

لماذا كتبت عنّي؟ هل لأنّك لم تعد قادرًا على الكتابة؟ هل استعرتني لتهرب من قصّتك؟ نسيم قال لي في آخر لقاء، إنّه لم يعد قادرًا على الكتابة. في كلّ مرّة يشرع في رواية جديدة، يغوص في نفسه وفي قصّته الشخصيّة وقصّة أهله، فيرمي ما كتب ويبدأ من جديد. يقول إنّ الكتابة عن الذات ليست سوى دليل على الإفلاس، إضافة إلى أنّ الكتابة هي تجربة العيش مع آخرين لا نعرفهم.

إلّا أنّه يعرفني!

«كنت جالسة في الصالون، أحتسي القهوة وأدخّن سجائر الصباح الأربع. السّاعة العاشرة والربع تقريبًا. أمّ مالك تجلس إلى يساري تحتسي قهوتها كعادتها عندما تصل إلى البيت. في أواخر العشرينيّات. جسدها مكتنزٌ، وقد أنجبت أطفالًا ثلاثة، كبيرهم في التّاسعة وصغيرهم في الثالثة.

ثمّة حزن متّقد يتراءى من خلف نظرتها الأليفة والدّافئة. حزن عميق، لكنّه عابر، كأنّها تتلقّفه وتضنّ به كنور عينيها وتمنعه من التسلّل إلى روحها، لتنجو. عيناها شاهدتان. وإن تكلّمت تساقط ذلك الحزن بجرعة طفيفة ومدروسة، سرعان ما تلتقطه شفتاها الباسمتان والمشقّقتان من تراكم طبقات البرد، فينجلي. تحكي قصّتها كمن يحكي عن سرب غيوم عبر السّماء ذات صباح. تسقط الكلمات من فمها ببساطة، غير مدركة ربّما الوقع الذي تحدثه عند الآخر. هادئة أمّ مالك ومتمهّلة. ليست جزءًا ممّا ترويه. إنّها خارج حكايتها، تتفرّج عليها من بعيد لتحمي نفسها من السّقوط في الخوف. لا مكان للخوف في حياتها. الخوف ترف، إذ يعطّل الحياة ويشلّ طاقتها التي تعيش بفضلها. أمّ مالك الحمصيّة لا تعرف من بيروت سوى البيوت الكثيرة التي تزورها كلّ يوم لتقوم بأعمال التنظيف والطبخ. وتعرف الغرفة الصغيرة التي تسكن فيها مع أولادها الثلاثة، في مخيّم «برج البراجنة». تتركهم كلّ صباح وترحل. تتركهم وحدهم. لا تخاف عليهم، لأنّ الخوف ترف يشلّ طاقتها. ثمّ تعود مساء إليهم، تلوذ بهم ويلوذون بها. «في النهار، أكون ابنتهم، وفي اللّيل يصيرون أبنائي». هذا ما قالته أمّ مالك ببساطة من يتحدّث عن سرب غيوم عبر السّماء ذات صباح. ابنها الكبير لم يعد طفلًا. لقد نبت له شاربان، تقول أمّ مالك هذه

العبارة مازحة، مبتسمة تلك الابتسامة الفرحة بشقّ النَّفس. كان في السّادسة من عمره وقت نبت له شاربان، يوم وقف على حافّة الحفرة، وأخفض رأسه قليلًا فرأى والده ممدًّدًا هناك. نبت له شاربان وقال لأمِّه إنَّه يحلم بدراسة طبّ العيون ليداوي عينيْ والده. عينا والده كانتا مغمورتين بالتراب. خرج في مظاهرة، وضربه أحد الشَّبِّيحة على رأسه بعصا حديد. لم تسل منه قطرة دم واحدة، نزيف داخليّ أودى بحياته. تترك أولادها كلّ صباح، وتسمع مالك يقول برقَّة مفرطة: ارجعي المسا، لا تتركينا. وأمّ مالك تقول لي ممسكة بابتسامتها طوال الحديث: «يا قلبي.. بيخافوا اتركهم متل ما تركهم أبوهم. بيخافوا ما ارجع». لأغيِّر الحديث، أسأل أمّ مالك في أيّ منطقة تحديدًا من حمص كانت تعيش. «باب دريب». ثمّ تقول إنَّ خالها الكبير في العمر، مايزال في حمص، لكن خارج «باب دريب» المدمَّرة. يدخلها كلّ شهر مرَّة ليحصل على معاشه التقاعديّ، يمرّ من أمام بيتهم ويطلعهم كلّ مرَّة على المشاهد التي رآها. بيتهم كمعظم البيوت أكله الشَّبِّيحة والجيش النظامي قضمة بعد الأخرى. قالت إنَّهم سرقوا الأثاث كلّه. حتَّى اللّمبات انتزعوها وأخذوها. ثمّ استعانوا بمكواة لينزعوا سيراميك الحمامات. ثمّ خلعوا بلاط البيت. وأخذوا الشّبابيك والأبواب والزجاج العازل أيضًا. والآن، بدأوا بخلع درابزين الشُّرفات. لأنَّ أحد أمراء الحرب المقرَّبين من النظام افتتح معملًا للحديد، بحسب ما سمعت أمّ مالك. وأنا كنت أتابع خطواتهم في كلام أمّ مالك. أتنقَّل معهم من الصالون إلى الغرف، وأراهم يحملون المكواة ويسخِّنوها ليسهل عليهم اقتلاع السيراميك. أركض معهم إلى الشُّرفات الخالية من أصحابها، وأنتزع الدرابزين وألهث. رحت ألتقط أنفاسي وأحاول الإمساك بنبضات قلبي، وأشهق بعمق لأداري ضيق التنفُّس. تركتها تتكلَّم وركضت إلى

غرفتي، نظرت في المرآة، ابتلعت حبَّة كزانكس، وغبت في البكاء. كيف يمكن للمرء أن يصبح هشًّا إلى هذا الحدّ؟ كيف يمكن للكلمات أن تدعس على الرُّوح وكأنَّها ضرب مبرّح. كيف تتحوَّل الكلمات إلى ذاكرة كاملة، إلى تاريخ يستعاد كلّه غير منقوص في لحظة واحدة. مجرَّد كلمة واحدة أو كلمتين تحمل الجسد من مكانه الآمن على الكنبة وترميه في قعر بئر تلك الذاكرة، وتتركه ينازع بأظافره وأسنانه، يحاول عبثًا أن يتسلَّق ويتعربش ويخرج. وحدها حبَّة الكزانكس تنتشله، لأنَّه كائن خائف ليس إلَّا. وأفكِّر بذلك التناقض غير المفهوم، فأنا اعتقدت دائمًا أنَّ الأزمات تجعلنا أقوى وأكثر قدرة على احتمال المصائب الصغيرة. ألم نتعايش مع مشاهد الموت؟ ألا تكفي السَّنوات الخمس لإزاحة الخوف من يومي؟ في الواقع، هي لم تزحه ولم تستبدله بمخاوف أخرى، بل راكمت فوقه مخاوف جديدة، حتَّى بات دماغي معملًا لإفراز كلّ أنواع القلق والخوف والهلع والوحشة وضيق التنفُّس واضطراب نبضات القلب وكلّ ما من شأنه العبث بطمأنينة عابرة لا تزورني إلَّا في اللَّيل مع انقضاء يوم جديد. أخاف، فأفكِّر بالخوف. وإذ فكَّرت بالخوف، أخاف. وربما يكون الخوف هو الشعور الوحيد الذي يصعب توطين الروح عليه. يصعب التعايش معه أو التصالح. يعشِّش في الداخل، ولا علاقة لشيء خارج حدود الجسد والرُّوح به. إنَّه خيال بديع، خصب، يتجدَّد كلّ لحظة. يتأجَّج خيالي في إنتاج الخوف والقلق، ويتلكَّأ أمام الطمأنينة، ربَّما لأنَّه يدافع عن نفسه بالخوف».

هل ثمّة ما هو أوضح من الخوف؟ ها هو نسيم يسرق قصص والدي وطفولتنا الخائفة ويلبسها لشخصيّته. لو قلت له، لادّعى أنّني وأسرتي لسنا سوى أربعة من أصل ٢٣ مليون سوريّ خائفين. أو سيقول لي ببساطة إنّه هو أيضًا شخص خائف يتخفّى وراء اسم مستعار. سيقول لي إنّه فقد عائلته كما فقدت أمّ مالك زوجها. لقد أصبحنا قصّة واحدة. كما كنّا نسخًا عن بعضنا بعضًا، في المدرسة وفي البيوت وفي الشوارع وفي صالات السينما القليلة الموجودة في دمشق وفي المسارح وفي الدوائر الحكوميّة.. ها نحن نصير قصّة واحدة، نسخًا مريضة عن بعضنا بعضًا. وأنا أقرأ بسرعة على عكس أمّي المتوقّفة منذ أيّام أو أسابيع عند الصّفحة ذاتها. ألتهم الصّفحات، علّني أعثر على فؤاد. هل يُعقل ألّا يكون قد ذكره في الرواية. ألم يكونا صديقين؟ نسيم الذي حمل والده المشلول والمجنون إلى تركيا ومنها إلى ألمانيا، يقول إنّه فاقد للذاكرة، وإنّ حياته توقّفت منتصف العام ٢٠١١. تعطّلت، ولم تعد قادرة على استيعاب الأحداث المتعاقبة والراكضة على عجل.

هل أحبّ غيري؟ أيضًا لم أسأله. لم أعد أطرح الأسئلة. لا مكان لأيّ سؤال. ثمّ إنّه سيجيبني بتأفّف: «يا ريت عندي وقت حبّ. مقضّيها ضرب بحالي». هذا ما كان يقوله نسيم دائمًا عندما أسأله هذا السّؤال. يقول بشرود ونزق ما معناه إنّه لا يمتلك الوقت حتى للاستحمام، فما البال بوقت للحبّ! لم يشعر ولا مرّة واحدة بحرج من إجابة كهذه! هو لا ينفي فكرة الخيانة، لأنّه يحبّني وممتلئ بي، بل لافتقاره لوقت كافٍ للخيانة! أتكون الخيانة مسألة وقت؟ لم يطلب منّي أن أرافقه إلى تركيا ولا إلى ألمانيا. هو يعرف لا بدّ أنّني مسجونة في دمشق مع أمّي ريثما نسمع خبرًا عن فؤاد. هو متأكّد من أنّني لن أستطيع مرافقته. لكنّه لم

يسألني ولم يطلب منّي ذلك. وهو أمر لا يستغربه من يعرف نسيم الذي لا يتفوَّه بالمفردات والأفكار لمجرّد التفوُّه. هو لا يقرقر جملًا لا تعنيه، وليس متأكّدًا من إمكانية حدوثها. مجرّد معرفته بأنّني لن أترك أمّي وحدها، ولن أغادر الحدود حتى يعود فؤاد حيًا أو ميّتًا، يجعله غير قادر على أن يطلب منّي مرافقته. غير قادر حتى على أن يعبّر لي عن مدى رغبته بذلك. وها هو يلطم خدَّيْه في كلّ مرّة نتواصل فيها.

كنّا متخاصميْن ولا أذكر السّبب. أو أنَّ الأسباب غالبًا ما تكون غير واضحة. لا يحكي نسيم عن انزعاجه منّي أو من أمر يتعلّق بي. يروح يراكم ذلك الانزعاج طبقة فوق الأخرى، ثمَّ ينفجر دفعة واحدة. عيناه تنفجران، وتلك العبسة التي تربط بين حاجبيه تختفي وراء تشنُّج كلّ ملامحه. يداه تتحرّكان في الهواء. يزمّ شفتيه بغضب. حتّى إنَّ التكشيرة تلك تمتدّ إلى أنفه والخطّين النازلين على طرفيْ الفتحتين. المهمّ أنّنا كنّا متخاصميْن، وأنا كنت مصابة بإحباط كبير. عندما نتخاصم، يختفي نسيم. وكأنّه يطردني من حياته، يطردني كلّي، مثلما ينفجر كلّه بالضبط. يختفي في حياته بمعزل عنّي، وكأنّني لم أكن موجودة في يوم من الأيّام. أتصلّ به مرّات ومرّات، يقفل الخطّ، أو في أحسن الأحوال يمتنع عن الإجابة. كنت أشعر بوحدة رهيبة حينها. وحينها تعني أحيانًا كثيرة.

رأيتني جالسة معه. كان موجودًا بكلّ تفاصيله وعظامه، كاملًا، مملوءة به، أحسّه بعمق وثقة، وكأنّه في جوفي. كان نسيم آخر، يحمل الملامح ذاتها، يرتدي الملابس نفسها، يحمل تلك الرّائحة الأليفة المتكوّمة في مساماتي، إلّا أنّه نسيم آخر، غير الذي تخاصمت معه. كان رقيقًا كالنسمة، مدَّ يده الجميلة إلى وجهي، لمس وجنتي برفق، راح يداعب خصل شعري ويبعدها عن وجهي إلى وراء أذنيّ. وأنا كنت مطمئنة كما

لم أكن في حياتي. إحساس بالأمان والسَّكينة استقرّ في روحي. نظرت في عينيه، شكوت له نسيم. وهو كان نسيم! بالضبط كذلك الحلم الذي كنت أقود السَّيَّارة فيه وإلى جانبي تجلس نفسي. رحت أشكو نسيم الذي خاصمني واختفى عنّي ببرود، لنسيم الرقيق الجالس قبالتي هناك، في مكان أجهله. ونسيم أحزنه إحساسي بالغبن. رأيت الحزن يمسك بعينيه الواسعتين، فترتجفان. أمسك بي كلّي، ذلك الكلّ الذي يطرده نسيم إن تخاصمنا، أخذني إلى صدره، ضمَّني وأنا كنت مذهولة من تلك الطمأنينة المتسرِّبة من بين ذراعيه، تتلقَّفني، تلفُّني وتغمرني، ولم أكن لأمانع أن تنتهي حياتي في غمرة ذلك العناق. استفقت بعد العناق بثوانٍ قليلة، وكنت مازلت أحتفظ بدفئه بين أضلاعي. بكيت بحرقة، وتمنَّيت لو أعثر على ذلك النسيم الآخر. ولا أعني هنا، رجلًا آخرَ، بل نسيم آخر كما في الحلم.

أوراق نسيم

«كنت في الرَّابعة عشرة، وكان يوم جمعة. أكره أيَّام الجمعة منذ ذلك الحين. وهذا لا ينفي أنَّني أكره أيَّام المدرسة أيضًا. إلَّا أنَّني أفضِّل كراهيَّتي لأيَّام الأسبوع المدرسيَّة عن كراهيَّتي ليوم الجمعة، يوم العطلة الكئيب، حيث يخفت الزُّحام وتنخفض أصوات المارَّة والجيران ويقلّ إيقاع الزيارات الاجتماعيَّة. الكلّ نائم أو حبيس البيت في ضجر وتململ. وأنا جالسة في غرفتي أنهي فروض المدرسة المرهقة التي تزيد من وحشة يوم الجمعة. سمعت صوت بابا ينده لي من غرفته المحاذية لغرفتي. ركضت إليه. طلب منِّي أن أجلس على حافَّة السَّرير إلى جانبه. كان ينظر إلى شبَّاك الغرفة والأباجور الخشب مفتوح يزقزق مع نسمات شتاء قارس. قال لي: «انظري إلى تلك المرأة العارية المتمدِّدة على أريكتها». استدرت بسرعة نحو الشُّبَّاك مدهوشة من فكرة أنَّ في حيِّنا امرأة تتمدَّد على الأريكة عارية، غير عابئة بنظرات الجيران المحافظين. فلم أعثر على شيء. رحت أستفسر منه بإلحاح وهو يمدّ إصبعه ليدلّني عليها. قال: «إنظري هناك، على منخل الشُّبَّاك المقابل لشبَّاكنا». فعلًا، كان شبَّاك البيت في العمارة المقابلة لعمارتنا محجوبًا عن الخارج بمنخل قديم وعتيق، يتعرَّج ممَّا مرَّ عليه من زمن طويل فيه البرد والحرّ والجفاف والأمطار والثلوج. بابا كان يرى المرأة العارية الممدَّة على أريكتها في تعرُّجات المنخل! كان يتخيَّلها. شعرت بالذُّعر. ابتسمت، ومسَّدت رأسه الناعم بعد أن سرق العلاج الكيماويّ كلّ شعره الأسود الذي وخطه الشيب قبل مدَّة. قبَّلته على عنقه في تلك الفسحة الصغيرة جدًّا، التي تتَّسع في قلبي لتسكن مساحته كلّها. انسحبت إلى غرفتي تاركة بابا يسرح في خياله مع نسائه.

كنت أغار من كلّ امرأة تطأ عتبة بيتنا. أجالسهنّ في أقرب نقطة ممكنة إلى أبي على الكنبة البيضاء الطويلة. لا أكتفي بالجلوس بالقرب منه، بل ألتصق به إلى حدّ مزعج. لكنّه لم ينزعج ولا مرّة. لم يتأفّف أو يطلب منّي الابتعاد قليلًا. كان يعانقني بدوره، فأروح أقبّله بين الحين والآخر وهنّ جالسات ضجرات منّي. أو هكذا كنت أحسّ. لأنّني بدوري ضجرة منهنّ، أشتهي أن يرحلن بسرعة ويختفين من حياتنا. وبابا كان لا يكتفي بعدم الانزعاج من التصاقي به، بل كان يفرح من غيرتي تلك، يستفزّني لأغار. وبعد أن يرحلن، يتفرّج عليّ باستمتاع غريب، وأنا أقلّدهنّ وأسخر من طريقة كلامهنّ أو من ألوان ملابسهنّ أو حتّى من تسريحة شعرهن. أصفهنّ بالغباء وقلّة الحساسيّة والبلاهة والسماجة، وهو يبتسم بصمت.

مرّة، في إحدى سفرات علاجه إلى باريس بصحبة والدتي، أقمت في بيت أصدقائنا وبناتهنّ الثلاث، يقاربنني في السّنّ. اتّصلت ببيتهم صديقة لوالدي، طلبت منّي أن أمضي يوم الجمعة عندها في البيت، وأن نطبخ ونحضر فيلمًا ونتسلّى. كنت حينها في الحادية عشرة من العمر. لم أكن أحبّها لمعرفتي بأنّها كانت على علاقة بأبي قبل زواجه من ماما. ولم أكن أحبّ طريقة تقرّبها منّي ولطفها معي، لأنّه ليس سوى تقرّب من والدي. أحاسيس الأطفال طازجة لا تعرف المواربة. جاءت إلى بيت أصدقائنا لتصطحبني. كنت أكره فكرة أنّها شقراء بعينين ملوّنتين. ربما لأنّها تلامس بذلك ذائقة عمّتي وبناتها المواظبات على السّخريّة من بشرتي السمراء. ذهبنا إلى بيتها مشيًا على الأقدام. استغرقنا نصف ساعة للوصول تقريبًا. كنت أحبّ بيتها لأنّها قسّمت الصالون بسقفه العالي إلى طبقتين، غرفتها بأرضيّة خشب تطلّ على الصّالون وتصل إليها بدرج خشب قصير. أذكر أنّها حضّرت المعكرونا مع صلصة بندورة ولحم مفروم

وصنوبر. تناولنا الغداء في المطبخ الصغير، ثمَّ جلسنا في الصالون. قلت لها إنَّ بيتها جميل، وإنَّني أحلم لو كان عندي غرفة كالعلِّيَّة، أختبئ فيها. ابتسمت وسألتني، ولا أعرف لماذا سألتني هذا السُّؤال من دون مناسبة: «هل تحبِّين أن يكون سقف غرفتك ملوَّنًا، مليئًا بالرُّسومات والملصقات؟» أجبتها بنعم. فقالت: «بالعكس، عندما تملأين السَّقف بصور ولوحات وألوان، وتستلقين في اللَّيل على السَّرير تحدِّقين بتلك الرُّسومات، سيتعطَّل خيالك». ثمَّ بعد دقائق قليلة، ولم تكن السَّاعة قد تجاوزت الثالثة بعد الظهر، رنَّ الجرس. فتحت. كان صديقها واقفًا خلف الباب، ممسكًا بباقة ورود صغيرة. قبَّلها. أدخلته. صافحني ببرود. شعرت بانزعاجه من وجودي! توقَّع أن يأتي فيعثر على صديقته بمفردها. وما إن التقطت صفيّة ضيق صديقها وانزعاجه من وجودي حتَّى نظرت إليَّ، وقالت برفق يشوبه بعض اللؤم: «يلّا حبيبتي، انبسطت فيكي كتير، بتعرفي ترجعي لحالك ما هيك؟» وأنا إبنة الحادية عشرة، لم أكن أغادر بيتنا إلَّا بصحبة أبي أو أمِّي. لم أكن أعرف أسماء الأحياء بشكل دقيق. إلَّا أنَّني قرَّرت بعد ظهر ذلك اليوم الشهير، أن أرحل وحدي. أصلًا، صفيَّة لم تمهلني لأقول لها إنَّني غير قادرة على العودة وحدي، وإنَّها ملزمة بإعادتي إلى بيت أصدقائنا. خرجتُ إلى الشَّارع. لا أذكر أنَّني شعرت بالخوف. إلَّا أنَّ وحشة هائلة سكنت روحي وشوقًا عارمًا لماما وبابا راح يتنطَّط وراء أضلاعي. رحت أمشي في الشَّوارع. أحاول أن أستهدي على الطريق الصَّحيح. في لحظة خاطفة، شعرت بالضياع. دخلت إلى بقّالية صغيرة، وطلبت من صاحبها استخدام الهاتف. في رأسي ثمَّة دفتر هواتف، أحفظ فيه أرقام بيتنا وبيت خالتي وبيت جدَّتي في الضَّيعة وبيوت أصدقائنا. اتَّصلت بهم، وطلبت من صاحب البقاليَّة عنوانه ليأتوا ويرجعوني إلى البيت.

كانت هذه القصّة الأولى التي رويتها لبابا لدى عودتهما من باريس.
رأيت الضيق يفور في صدره ويصل إلى عينيه الجميلتين. عانقني برفق. وحدثت القطيعة. قاطعها بشكل حاسم، لأنَّها تركت ابنته تعود أدراجها وحيدة إلى بيت لا تعرف عنوانه. وأنا فرحت. القصّة الثانية، تكفَّل بابا برواياتها لي عندما طلب منِّي فنجان قهوة معلنًا رحيله بعد ثلاثة أشهر. أذكر جيِّدًا كيف قالها: «ما يزال أمامنا ثلاثة أشهر!» تلك الـ«مايزال»، تعطي الانطباع بأنَّ الثلاثة أشهر هي ثلاثون سنة. اليوم، أشعر بصدق أنَّها كانت ثلاثين سنة. ما إن علم بابا بأنَّ الزَّمن ينفلت من بين أصابعنا كالماء، تعلَّم الاختزال. استحضر المستقبل. صار يعيش معي سنواتي الإحدى عشرة وسنواتي القادمة. عاش معي في السّنوات الثلاث الأخيرة، ما يقارب الثلاثين عامًا. اتَّفقنا مساء ذلك اليوم، بعد أن ابتلعت دموعي وتحايلت على جملته تلك، أنَّ الثلاثة أشهر قليلة جدًّا، وأنَّه لن يرحل خلالها ولا بعدها مباشرة، وأنَّه سيقاوم ليبقى إلى جانبي. وأنا صدَّقت. كانت فكرة رحيله مستحيلة بالنسبة إليَّ. وكنت مقتنعة أنَّه لن يتركني. وأنا مع قناعتي بأنَّه لن يتركني، عشت تلك السّنوات الثلاث على حافَّة الموت. أتلمَّس خطواتي من الصَّباح إلى المساء على وقع خوف راح يتشكَّل في اللَّاوعي، ملامحه تكتمل وتتراكم، تتراكم.. إلى أن استفقت في الثامنة والعشرين من عمري على اضطراب نبضات قلبي وضيق في الصدر ونوبات هلع تصل اللَّيل بالنَّهار. إنَّه الخوف. قال لي كميل إنَّه الخوف. ذلك الخوف من الفقدان لا نشعر به. إلَّا أنَّه ينمو في الروح ويكبر، وتنبت له يدان وقدمان وعينان. يروح يحدِّق بنا ولا نراه. ينطُّ في عروقنا، ولا نشعر بدعساته إلى أن ينفجر على شكل نوبة هلع. والرُّوح إن تعبت لا تجد إلَّا الجسد لترمي تعبها هنا وهناك. تعبث بنبضات قلبه، تنشر الخدر في أطرافه وتشلّ يديه،

تقبض على الهواء في صدره، فيروح يختنق ويبرطع كالغريق، تصيبه بالدوار وتعمي بصره، وتجعله غير قادر على التفكير بشيء إلّا بخوفه. إنَّه الخوف. وأنا خفت كثيرًا في طفولتي. إذ إنِّي لا أذكر سوى الخوف.

كانت امتحانات الشهادة الإعداديّة «البروفيه» بعد شهر ونصف الشهر تقريبًا. توقَّفنا عن الذهاب إلى المدرسة تحضيرًا للامتحانات. كتب كثيرة كان عليّ حفظها عن ظهر قلب «من الجلدة للجلدة»، تعبير شائع بين الطلّاب يعني أنَّه علينا حفظ الكتاب من الصَّفحة الأولى حتَّى الأخيرة. وأنا تركت بيتنا، وانتقلت للعيش في بيت قريبة والدي وزوجها الضابط وأولادها. بيتهم الفسيح كان يضيق ويضيق كلّ مساء إلى أن يقبض على أنفاسي. ومستشفى الشامي القريبة من بيتهم، كنت أشعر أنَّها في كوكب آخر. أتَّصل بأمِّي كلَّ ساعة، لأطمئنّ. صوتها المتعب ظلّ بشوشًا إلى اللَّحظة الأخيرة. خصّصت لي قريبة والدي غرفة منفصلة لوحدي، كي أستطيع أن أدرس بهدوء بعيدًا من ضجيج أحفادها الأربعة، ثمَّ باتوا ستَّة، بعد أن جاءت ابنتها إلى دمشق في زيارة، وكانت تعيش في بلد أوروبيّ مع زوجها الطبيب.

أستيقظ في تلك الغرفة التي تطلّ شرفتها على بيوت الضبّاط الأصغر رتبة من زوج قريبة والدي. تلك العمارات الملتصقة إحداها بالأخرى، موحشة إلى حدّ بعيد. مطليّة بأخضر واهٍ، وأصفر تشقَّق مع مرور الزَّمن والفصول، وأزرق كابٍ. مبنيَّة على شكل مجمَّعات أو علب إسمنتيَّة ضخمة، متلاصقة، بيوت عديدة في الطابق ذاته، وشرفات محاذية لبعضها بعضًا. أغلق الستائر لأحمي روحي من وحشة إضافيَّة.

فتحت عينيَّ في أحد صباحات أيَّار الحارَّة، نهضت من فراشي، لم أتَّصل بماما كما أفعل كلَّ صباح، أدرت مسجِّلة إبنة قريبتنا الصغرى.

رحت أستمع إلى الأغاني والموسيقى، وأبكي. كلَّما ينتهي الشريط (بامبوليو، جيبسي كينغز)، أقلبه. من الثامنة صباحًا حتَّى الثامنة مساء. لم أخرج من الغرفة، ولم أستجب لمحاولات أهل البيت الحثيثة لجعلي أخرج وآكل. لم أفعل ذلك اليوم سوى البكاء. وكنت من بين الدُّموع، أتحدَّث مع بابا، أرجوه ألا يرحل وألا يتركني وحدي. أذكِّره بما قاله لي مئات المرات: «أنا معك، لا تخافي». لا تتركني، أقول له، وكنت واثقة من أنَّه يسمعني. ثمَّ جفَّت الدُّموع في عينيّ ولم أعد قادرة على ذرف المزيد. وفي الثامنة، غفوت. استلقيت على السَّرير وغفوت حتَّى منتصف اللَّيل. فتحت عينيَّ على عتمة الغرفة. الجوع يعصر معدتي والخوف يفتِّت أعصابي والوجع يأكل كلّ مفاصلي. اتَّجهت إلى المطبخ حيث كنت أضع في الفريزر ملعقة كبيرة، اعتدت على وضعها هناك دائمًا. أستخدمها بعد البكاء، لتخفِّف من تورُّم العينين واحمرارهما ـ كنت في الرَّابعة عشرة، ومازلت».

ها هي الدُّموع تجفّ من عينيْ بطلته، كما جفَّت عينا أمِّي الثرّتان.
ها هو نسيم يسرق كلّ تفصيل رويته له. لا أعرف إن كان سرقني، أم أنَّنا تماهينا إلى درجة بات يصعب عليَّ أن أميِّز حياتي عن حياته وعن حيوات شخوصه. أبي مات أيضًا وأخي كذلك. وها أنا أعيش وحيدة مع أمِّي التي كبرت فجأة عندما جفَّت الدُّموع من عينيها. وأنا أقرأ أوراقه تلك، أتساءل عن دوافعه. لماذا حمَّل بطلته كلّ قصصنا؟ ألم تكن قصصي كافية لرواية؟ لماذا كلّ هذا الشّقاء؟

أكتب له أنَّني مشتاقة إليه. يصمت. أتخيَّله جالسًا في غرفتهما الصغيرة، والده وهو. يسمع صوت الهاتف. يفتحه. يقرأ الرّسالة. يشرد. يغلقه. يجد صعوبة في الكتابة. أو أنَّه لا يعثر على كلمات مناسبة للردّ على شوقي. وأقول لكميل إنَّه تغيَّر. لا أتفوَّه باسمه. مع أنَّني تجرَّأت أخيرًا واعترفت لكميل أنَّني على علاقة بـ«زميل مريض». ضحك كميل من وصفي لنسيم بالزميل المريض. لا أعرف لماذا اعترفت له، رغم اتِّفاقنا المسبق، نسيم وأنا، بألَّا نبوح له بهوِّيَّة الآخر. هل لأنَّني شعرت ذلك اليوم بالضياع والخوف من فقدانه؟ هل لأنَّني فقدت كلّ قدراتي للاحتفاظ به كما هو، كاملًا كما تعرَّفت إليه، واسعًا كالأرض، هَمومًا كالبحر؟ كميل يقول إنَّه لم يتغيَّر. أنا من تغيَّر إذًا؟ أسأل كميل باستعجال. يرفع رأسه نافيًا. يقول إنَّه لم يتغيَّر: «كان هيك طول الوقت». فكَّرت طويلًا بما قاله. هو يقصد أنَّني لم أحبّ نسيم كما هو، بل كما أردته أن يكون. تخيَّلته، حمَّلته ذلك الخيال، ثمَّ أحببته. ثمَّ هل كانت صدفة أن أعشق طبيبًا كأبي؟ أقول لكميل بنزق إنَّني لم أكن أعرف أنَّه طبيب ذلك الحين. ولماذا قد أكون توقَّفت عن تخيُّله؟ لماذا اكتشفت فجأة أنَّه تغيَّر؟ «لأنَّ الزّمن يبدِّد الخيال»، يجيبني كميل. وبالتالي، تبدأ الحاجة مع الزّمن لخيال جديد. لقد أفسدت السّنوات لعبتي

مع الخيال. أو أنَّ نسيم لشدّة واقعيَّته أفسد خيالي وأعادني إلى الأرض، هناك، قبالته، في بيته، حيث أفتّش عنه ولا أعثر سوى على صمت بارد.

في آخر لقاء لنا، قبل عام وسبعة أشهر وعشرين يومًا، أعددت له سلطة الخسّ مع التفاح التي يحبُّها. فتحنا زجاجة نبيذ أحمر. أذكر المشهد جيِّدًا وكأنَّه البارحة. ملأ صحنه بالسَّلطة. راح يلتقط قطع الخسّ والتفاح بشوكته بقوّة مفرطة، كأنَّه يغرز الشوكة في الصَّخر. يروح يغرز ويغرز كالطعنات في صدري. ثمَّ عندما تمتلئ الشوكة حتَّى آخر استطاعتها، يضعها في فمه ويعلك اللُّقمة بسرعة رهيبة، وكأنَّه يحرّك فكّيه في الهواء في سباق سرعة المضغ. أخذ كأس النبيذ، اشتفَّه ككأس ماء، ثمَّ أشار لي بطرف عينيه أن أملأه من جديد. سكبت له مزيدًا، فابتلعه دفعة واحدة من جديد. وأنا بدأت أشعر بالتعب. ارتخت يداي من عزم ارتطام الشوكة بالصحن الزجاج. وكأنَّني أنا من يغرز الشَّوكة وليس نسيم. كنت أنظر إليه في حيرة وارتباك، وهو يكمّل معركته مع صحن السَّلطة وفكّاه يعلكان الخسّ والتفاح بعزيمة من يعلك صلصالًا أو لحمًا مقدَّدًا. شعرت بالإرهاق، وبدأت أسمع لهاثًا بطيئًا يخرج من صدري. عينا نسيم كانتا مسمَّرتين في الصَّحن أمامه على الطاولة. لم ينظر إليَّ إلَّا بعد أن غرز شوكته في آخر قطعة خسّ. قلت له إن وجعًا هائلًا يعكّرني، ولا أعرف من أين يطلع. ليس وجعًا محسوسًا في القلب أو اليد أو الرأس أو البطن، بل أكثر اتِّساعًا وعمقًا. كأنَّه ينبت من قعر روحي ويمشي في شراييني. هزّ نسيم رأسه في إشارة إلى أنَّه سمع ما أقول.

في حين أنَّه لم يطلب منِّي أن أرافقه في هجرته تلك، رحت أتوسَّل إليه ألا يرحل ويتركني وحدي. لم يقل لي كما قال والد بطلته لها عشرات المرَّات: «لن أتركك، سأبقى معك». لم يقل شيئًا. ربما لأنَّه ليس

والدي. ربما لأنّه هو يفتقد إلى أمّ وأب. أعطاني مفتاح بيته ورحل. قال إنّ باستطاعتي المجيء متى أردت ذلك. أشعرني ذلك بالأمان. فأنا شديدة التعلُّق بالأماكن. وإن امتلكت مفتاح بيته، ظننت أنّني امتلكته. أو على الأقل أنّني لم أفقده بعد. ثمّة بيت بيننا! بيت أملك مفتاحه. تركه نسيم بدل أن يبيعه أو يؤجّره، وهو لي الآن في انتظار عودته. لم أكن أعرف أنّ البيت لا يعني شيئًا، وأنّ نسيم نسي ربما أنّ هناك بيتًا ينتظره في منطقة الطلياني. الحيّ نفسه الذي تسكن فيه صفيّة، صديقة والد بطلته، التي طردتها بتهذيب من البيت لتتفرّغ لحبيبها.

وفي لحظة خاطفة، شعرت بالغيرة. هل يعرف نسيم بطلته؟ هل كان قريبًا منها إلى هذا الحدّ؟ هل سرق قصصي ليداري خيانته لي؟ هو لم يترك لي بيته فقط، بل كلّ ما يحتويه ذلك البيت. ترك أوراقه ودفاتره وصوره. ترك ذاكرته ورحل. استطاع نسيم أن يتخلّى عن ذاكرته مرّة واحدة. ألم يخطر في باله أنّ فضولي وشوقي له سيقودانني لفلفشة تلك الأوراق والدفاتر؟ ألم يفكّر بمشاعري؟ أم أنّه كان واثقًا من أنّني لن أقترب من تلك الذاكرة؟ الأنكى أن يكون واثقًا من اقترابي وغير مكترث. كأنّ عبثي بأشيائه سيوفّر عليه عناء الاعترافات. «خذي.. اقرأي.. ثمّ قرّري إن كنت ستحتفظين بي أم ستهجرينني». تلك العبارة التي تخيّلته يقولها لي مرّات ومرّات، أعادت إلى ذهني فكرة فقدانه. ليس هو من ضاع عنّي، بل أنا التي أضعته لحظة دخلت إلى جارور مكتبه، وبدأت أقرأ يوميّاته وأوراقه وأفتّش بين صوره الكثيرة.

صور عديدة لنساء تتراوح أعمارهنّ بين العشرين والأربعين. مرتّبة بعناية، بعضها فوق بعض، ولم أعرف إن تقصّد نسيم ترتيبها وفق معيار محدّد (أسماؤهن بحسب التّرتيب الأبجديّ أو تواريخ علاقته بهنّ من

الأولى حتَّى الأخيرة أو العكس، أو درجة تعلُّقه بهنّ مثلًا.. لا فرق). غيرة لاسعة اشتعلت في روحي، وشعرت بكتلة نار تتحرَّك في معدتي صاعدة إلى الصدر والحلق. رحت أتأمَّل وجوههنَّ وملامحهنَّ. كان نسيم يشارك بعضهنّ الصورة، الأخريَّات يظهرن وحيدات. زاغت عيناي، وخز حارق راح يضرب أناملي. أخذت نَفَسًا عميقًا. بحثت عن جزداني بهياج مبالغ به. ابتلعت نصف حبَّة كزانكس مع ماء بارد أخذته من البرّاد. كنت أملأ برّاده كأنَّني في بيتي، أو كأنَّ نسيم سيعود في أيّ لحظة. ابتعدت عن غرفة نومه حيث الجارور مفتوح وأشياؤه مفلوشة على الأرض. جلست على الكنبة التي اعتدت الجلوس عليها مع نسيم. لكنَّني جلست في الطَّرف الذي يجلس هو عليه، وكأنَّني بذلك أستمدّ منه بعض تلك الصلابة والبرود علَّني أستعيد أنفاسي. لم يمنعني اللُّهاث من استعادة بعض ملامح تلك الصُّور. حاولت عبثًا إغماض عينيّ والتخلُّص ممَّا رأيته قبل لحظات. تلك الذاكرة اللَّعينة، لو باستطاعتنا غربلتها وحذف مشاهد وأحاسيس معيَّنة منها كالحاسوب. أتكون بطلة روايته، مجهولة الإسم، واحدة منهنّ؟ أزعجتني فكرة أنَّ صورتي ليست بين تلك الصُّور! ومن أين سيأتي بصورتي؟ لم نتصوَّر ولا مرَّة واحدة، لأنَّ نسيم يكره الصُّور والذِّكريات، كما قال لي أكثر من مرَّة. وإن كنت تكره الصُّور يا نسيم، ما حاجتك للتواجد في صور كثيرة مع نسائك الأخريات؟ ثمَّ تسلَّلتْ من قلب الهلع الذي أصابني سعادة ما، لا أعرف كنهها. كيف يمكن للسعادة أن تخرج من قلب الهلع؟ رحت أفكِّر، أنَّ الصور التي أمسكتها بين يديَّ قبل دقائق، جعلتني أمسك بحياته كلِّها، بماضيه الذي كان عصيًّا على الإمساك أو اللَّمس. بدأت نصف الحبَّة زهريَّة اللَّون تلك تسري في عروقي صاعدة إلى رأسي، مخلِّفة وراء صعودها طمأنينة هشَّة. تنفَّست بعمق، لأتأكَّد من أنَّني

استعدت هدوئي. دلفت إلى الغرفة من جديد. تربّعت على الأرض إلى جانب الجارور والصُّور المرمية هناك. أمسك بها من جديد. تأمّلت تلك الأعين بثبات جعلني أشعر أنّها تنظر إليّ، ولا بدّ لها أن تخرج من الصور لتدنو من عينيّ أكثر، لتنظر فيهما، لتحدّق بالخوف الطافح منهما، على حدّ تعبير كميل. لفتتني ملامح نسيم في الصُّور العديدة تلك. الملامح نفسها بالضبط! وكأنّه التقط الصُّور في اللَّحظة ذاتها، بعد أن بدّل ثيابه وبدّل نساءه. اللامبالاة ذاتها، وشرود العينين، وتلك النظرة الطالعة من الفراغ إلى الفراغ، كأنّها تنتمي إلى اللاشيء. أيعقل أنّ الحبّ أيضًا، لم يجعل منه شخصًا مختلفًا في كلّ مرّة؟ هل روحه محصّنة إلى هذا الحدّ؟ توطّنت الغيرة في روحي أكثر فأكثر. ولم أعد أبالي بنسائه متفاوتات السّنّ والجمال ولون البشرة والأعين. شعرت بغيرة من صلابته، من تخلّيه، من قدرته على عدم الاكتراث، وكأنّ حدود العالم هي جسده فقط، وأيّ شيء آخر منفصل عن تلك الحدود، لا يعنيه على الإطلاق. ما الذي صنع منه هذا الكائن الغريب عن محيطه؟ أيكون هو والد بطلته في تلك القصّة؟ أليس مثله؟ هل أحبّته بطلته لأنّه كوالدها، كاتب وغريب؟ وأنا، هل أحببتك لأنّك كوالدي، طبيب، وتخاف من أن تخاف؟

«كنت في الرَّابعة عشرة.. ومازلت.

رنَّ جرس بيت قريبة والدي. لا أذكر أنَّ أحدًا كان مستيقظًا في البيت غيري. لا أذكر بصدق. عندما أستحضر تلك المشاهد، لا أعثر إلَّا على نفسي جالسة في بيت أقربائنا، وأبي ممدَّد في سرير الغرفة ٢٠٣. قطعت المسافة القصيرة بين البرّاد حيث ترقد الملعقة، وبين باب البيت، بخطى ثابتة يشوبها قلق مبهم. فتحت الباب. كانت ماري تقف هناك، وجهها متعب. قبّلتني بحياديَّة، وكأنَّها قبلة عاديَّة في يوم عاديّ. لم تقل شيئًا وأنا لم أستدرجها لتقول. لا داعي للكلام. فقط تركتها واقفة عند باب البيت، وتوجَّهت إلى الغرفة التي سكنت فيها طوال الفترة الماضية. ارتديت ملابسي على عجل. ربطت شعري الطويل كما اعتدت دائمًا. انتعلت حذائي. ورحلت معها. كان التكسي في انتظارنا عند مدخل العمارة. لم تتفوَّه ماري الرَّقيقة ولا بكلمة واحدة طوال الطريق، بين بيت أقربائنا في آخر أوتوستراد المزّة وبين مشفى الشامي. رحت أنظر من نافذة السَّيَّارة إلى الشوارع المضاءة، وأندهش من أنَّ إشارات المرور مازالت تعمل، تتلوَّن بالأحمر ثمَّ البرتقالي فالأخضر! وأنا ظننت أنَّ الحياة ستتوقَّف تلك اللَّحظة. ستتعطّل إشارات المرور، والسَّيَّارات ستتوقَّف عن السَّير، وسكَّان المدينة الكبيرة سيدلفون إلى منازلهم، سيختفون وراء الجدران، لن يكون هناك سوى الصمت.

كنت في الرَّابعة عشرة، ومازلت.. وكنت أعرف! ألم أمضِ اليوم بطوله أجفِّف دموعي وأرجوه ألَّا يرحل؟ وصلنا إلى المشفى. صعدنا إلى الطبقة الثانية. مشينا في الممرّ الذي حفظت أدقّ تفاصيله مع

مرور السّنوات. إلّا أنّ الممرّ لم يكن على حاله. كان يغصّ بالأصدقاء. استقبلوني بصمت. أعينهم الدامعة تنظر إليّ كمن ينظر إلى ماضٍ بعيد. هل صار الماضي بعيدًا إلى هذا الحدّ؟ ليس ذلك الماضي سوى ساعات قليلة يا بابا! هل صرت ماضيًا بعيدًا؟ وأنا كنت أفتّش عنه في أعينهم وأفتّش عن أمّي. أذكر سعاد تدفعني بإصرار لأدخل إلى الغرفة ٢٠٣. لم أستجب لها. قاومتها. قلت إنّني لا أرغب بالدُّخول. لا أحتمل أن أراه جسدًا. كيف يتحوّل ذلك الكائن الطافح بالحياة بشهقة واحدة، إلى مجرّد جسد أسدل عينيه إلى الأبد. اختفت الجدران فجأة، وصار باستطاعتي أن أتخيّله في غرفته ممدّدًا على سريره. ماما كانت معه في الغرفة. طلبت من الطبيب أن يتركهما بضع دقائق. راحت تنظّف جسده وتغنّي له أغنيته المفضّلة: «تحت هودجها وتعانقنا..». أين ماما؟ رحت أسأل عنها بخوف. لن أحتمل رحيلين في اليوم ذاته. أنا التي لم أظنّ يومًا أنّني قادرة على ابتلاع رحيل واحد فقط. وجاءت ماما. خرجت من الغرفة. انتهت من مهمّتها. سلّمته إلى سفيان. أودعته للأطباء وإجراءات الموت الموحشة. مشت في الممرّ الضيّق ببطء. جفناها متورّمان بالدُّموع. ذلك الأسى الشفيف، لن أستطيع التخلُّص منه حتّى بعد مرور عشرين عامًا، لأنّني، مازلت في الرّابعة عشرة. لم أستطع أن أكبر. لم أستطع الخروج من ممرّ الطابق الثاني، مازالت روحي عالقة هناك في الممرّ، النفق. اقتربت منّي ماما. عانقتني. لم أقوَ على البكاء. حاولت. لم أستطع. عانقتها، واستطعت احتواءها كلّها بجسدها الهزيل المكسوّ بالوهن والإرهاق. «خلص». هذه الكلمة الوحيدة التي التقطتها تخرج من بين دموعها: «خلص».

ورحلنا تلك اللّيلة إلى بيتنا الذي انقطعنا عن زيارته لشهر تقريبًا. دخلنا بحذر. بيت فارغ من الحياة، من معنى الحياة، من معنى أن أكون

أنا على قيد الحياة. رحل الجميع وبقينا وحدنا. لم نعثر على الكلمات. صمت موجع خيَّم فوق رأسينا! بتنا برأسين، لم يعد هناك ثلاثة رؤوس. اتَّجهنا إلى غرفة نومهما. كانت السَّاعة قد تجاوزت الثالثة فجرًا. تمدَّدنا واحدتنا قرب الأخرى في سريره. وغفونا ساعة ربما أو ساعتين! لا أذكر. ثمَّ استفقنا فجأة. لم نتحدَّث أيضًا. أمِّي في المطبخ تعدّ قهوتها. وأنا في الصالون أفتح أباجورات النوافذ المغلقة منذ شهر. جارتنا في الطابق الأرضي كانت تلملم الغسيل في حديقتها الصغيرة. نظرت إليَّ وابتسمت ملء فمها. سألتني: «كيف الأستاذ؟» ابتسمت لها أيضًا، وقلت: «راح». لم أكن قد ذرفت بعد ولا دمعة واحدة. دخلت إلى غرفتي. أغلقت الباب. جوّ البيت كان مختلفًا. وغرفتي لم تكن هي ذاتها. صارت كغرف الانتظار في المطارات ومحطَّات القطار. نظرت في المرآة. لم أرَ نفسي. رأيته يحدِّق إليَّ. قلت له: «ما فيك تتركني لوحدي.. عم تسمعني؟ ساعدني إبكي». ولم يساعدني. ارتديت ملابسي السَّوداء التي طلبت منِّي أمِّي أن أشتريها قبل أيَّام قليلة. ملمس القماش اللَّيِّن، استحال صخرة فوق جسدي. وبدأ الأصدقاء بالتوافد إلى البيت. لم أعد أذكر من ذلك اليوم سوى عجقة الناس وامتلاء البيت بغرفه كافة بالأصدقاء. وأذكر أمِّي تجلس ناحلة، جفناها مبطّنان بتعب متراكم منذ سنوات، تكسوهما زرقة كزرقة السماء، واسعة كاتِّساعها. أذكر أنَّني لمحت يومها تعبًا متراكمًا، يفور، يسيل من جفنيها. تروح أمِّي تسرق القوَّة من تعبها سرقة. تحاول الإبقاء على ظهرها مشدودًا. لا يرتخي إلَّا مع زخَّات من الدُّموع تهطل بين الدقيقة والأخرى.

وأنا؟ كيف سأتعلَّم المشي من دونه؟ كيف سأتعلَّم الحياة من دون الاستلقاء إلى جانبه على الفراش وتقبيل رقبته، ومناقشته بكلّ شيء يخطر

في بالي؟ كيف سأكون وماذا سأكون من دونه؟ كيف رحل وتركني؟ وذلك الخواء الفضفاض في روحي، بماذا سأملأه؟ كيف سأتنفَّس من دون الدُّخول إلى غرفتك على رؤوس أصابعي لأحصي أنفاسك، وأطمئن إلى أنَّك مازلت تتنفَّس، فمازلت أتنفَّس أنا أيضًا؟ وكميل يقول لي: «لن تكبري قبل أن تقولي إنَّه مات.. أبوكِ ما راح.. أبوكِ مات».

خفَّة ما، اختبرتها، راحت تتراءى لي من وراء الوجع. لم يعد ثمَّة خوف من الرحيل. أقصى مخاوفي تحقَّقت. لم يعد ثمَّة داع لعدم النوم في اللَّيل خوفًا من أن يتركني وحدي. ها أنا وحيدة من دونه. لم يعد ثمَّة خوف من الخوف حتَّى. فأنا عشت طفولتي خائفة من أن أخاف. مشيت في الجنازة. تحاشيت النظر إليه ملفوفًا بالأبيض، نائمًا في حفرة لا تتَّسع إلَّا لجسده. لا تتَّسع لي. وعندما عدنا من الجنازة وحلَّ اللَّيل، هَمَت الدُّموع من عينيَّ ورحت أنشج. نادوا إلى أمِّي. جاءت إليَّ. عانقتني. ارتميت في حضنها، ورحت أغرف من دفئها وألتقط أنفاسي الضائعة مع أنفاسه.

ثمَّ تغيَّر البيت، وراح يكتسب أشكالًا مختلفة. حتَّى رائحته تبدَّلت. صار في بداية رحيله (لن أقول موته وليضرب كميل رأسه في الحائط، ولا أريد أن أكبر)، صار ساحة معارك تتفاوت حدَّتها بيني وبين أمِّي حبيبتي. كنَّا وحيدتين، تائهتين، في روح كلّ واحدة منَّا ذاكرة مريرة، ووجع لا يتَّسع جسدانا لهوله. لم نعرف سريعًا كيف نعيش بدونه. كان دافع كلّ واحدة منَّا للعيش، وكان محرِّك حياتنا ومشاريعنا وخيالنا. بتنا وحيدتين في بيت موحش وبارد، نتصارع أمام كلّ تفصيل، نعجز عن التقاط طرف الخيط لنكمِّل حياتنا بشكل طبيعيّ. لا يمكن للحياة أن تستوي، ولا أن نكمِّلها بشكل طبيعي. استمرَّينا في تلك المعارك ما يقارب السنتين

بدون هدنة، ثمَّ تعبنا واستسلمنا، واحدتنا للأخرى. تعلَّمنا مع الوقت أنَّنا وحيدتان. تعلَّمنا كيف نعيش وحدتنا بلا معارك. تعلَّمنا أن نحبّ واحدتنا الأخرى من جديد، بعد أن كنَّا مشغولتين لسنوات طويلة بحبِّه هو وحده. وأنا أعرف وأدرك أنَّني كنت شخصًا شرسًا ونزقًا في أحيان كثيرة. كان وجودها في البيت وحدها في السنتين الأوليين كأنَّه الواقع الوحيد الذي يذكِّرني برحيله. رحت أستنزفها طوال ذلك الوقت، وكأنَّني أعاقبها على رحيله. أروح أناقشها كما أناقشه، وألومها لأنَّها لا تمتلك صبره ولا أسلوبه في الحوار. لم أكن أشفق على فقدانها له. لم أفكِّر في حزنها. كنت مشغولة بحزني. قسوت وتجرَّأت على عواطفها ووجعها، وكأنَّني وحدي من عاش الفقدان. ينتابني الشعور بالذنب سريعًا، فأسترضيها وأعتذر، وأقوم بمحاولات بائسة لأعبِّر لها عن مدى حبِّي لها وحاجتي إليها. لم أجد سريعًا كيفيَّة التَّعبير عن عواطفي لأمِّي. أجلس قبالتها، أتأمَّل وجهها الحزين، أنظر في عينيها وأهمّ في الكلام، فتتلعثم الكلمات في فمي، ويضيع المعنى، وأعجز عن الإفراج عمَّا أفكِّر فيه. يصبح الكلام ترابًا مطحونًا في فمي، فأصمت. وأشعر سريعًا بالنَّدم. فأحاول من جديد محاولة خرقاء. لأنَّني، إذ أبذل كلّ ذلك الجهد للبوح، يخرج الحبّ من روحي طازجًا، ما إن يصل إلى فمي لينهمر في وجهها، حتَّى يستحيل مصطنعًا ومصاغًا كدرس في الإنشاء.

كنت في الثلاثينيَّات من العمر، لكن في جسد بنت في الرابعة عشرة. وما أصعب أن تسبق الرُّوح الجسد. أن تتسلَّل منه وتنمو بمعزل عنه وتكتسب ملامحها خارجه، ثمَّ تعود في اللَّيل لتسكنه من جديد! ومهما تنطَّت وبرطعت وادَّعت وتمرَّدت، لن تجد سواه ملجأً. أمِّي كانت تعرف أنَّني في الرَّابعة عشرة. فاتتها تلك السَّنوات التي راح بابا

يلقِّنها لي. لم تكن موجودة. كانت حبيسة كتب التغذية ورفع المناعة، والهاتف الذي يصلها بالعالم كلّه من أميركا إلى الصين واليابان وكوريا وفرنسا. تسمع أنَّ دواء جديدًا اختُرع في إحدى تلك الدول، فتبدأ بالبحث عن وسيلة لاستحضار تلك الموادّ والأغذية والأدوية والنباتات. كانت حبيسة جسده وليس روحه. همّها كان إنقاذ الجسد لتحظى بالرُّوح بعدها. فما نفع الرُّوح إن تهالك الجسد وفقد قدرته على الاستمرار! وأنا كنت حبيسة روحه. نحلِّق سوِيَّة فوق العمر والسَّنوات، ونقفز ونتخطَّى عتبات العشرين فالثلاثين. كبرنا سوية. رحل. ترك روحي الناضجة في جسد لم يتجاوز الخامسة عشرة بعد، وأمِّي لم تعرف أنَّني في الثلاثينيَّات. حتَّى إنَّها ربَّما لم تدرك كيف بلغت الرَّابعة عشرة. كنَّا نمشي في حيِّنا الشعبيّ، جنبًا إلى جنب بمحاذاة الرصيف الضَّيِّق، يدي تمسك يدها كأنَّني أمّها. فجأة، نظرت لي وقالت: «ماما انزلي من الرَّصيف، إمشي جنبي». وأنا لم أكن أمشي على الرَّصيف، إلَّا أنَّ الفرق بين علوّ يدي ويدها جعلها تظنّ أنَّني على الرَّصيف، أعلى منها بعتبة! لم تنتبه أمِّي إلى أنَّني كبرت واستطالت قامتي، وبتُّ أطول منها بعتبة، عتبة من الزمن.

صار البيت سجنًا. لم أفوِّت فرصة للهروب. عدت إلى بيت أقرباء والدي، حيث تركت روحي في غرفتهم تبكي ذات يوم. أقمت عندهم، وتركت أمِّي وحدها. لم أفكِّر كيف تقضي يومها وحيدة. ظننت أنَّها معتادة على غيابي. ثمَّ أقمت في بيت إبنة خالتي وزوجها. ثمَّ مرضت وانقطعت عن الذهاب إلى المدرسة. لم تترك أمِّي طبيبًا في دمشق إلَّا واصطحبتني إليه. ولم تترك صورة شعاعيَّة أو مغناطيسيَّة إلَّا وأخضعتني لها. لا شيء! وهي تحتار. إذ كيف يمكن للّاشيء هذا أن يبطحني في الفراش لأيَّام وأيَّام؟ كنت أصاب بصداع قاتل يدفعني لضرب رأسي في

الحائط. وكنت أفقد الوعي مرَّات ومرَّات. وأصاب بشلل في الأطراف وفي اللِّسان، وأعجز عن النهوض أو الكلام.

وكنت مرَّة في بيت خالتي في الطابق ١١. خرجت إلى البلكون وجلست على الدرابزين الأخضر، فتدلَّت قدماي إلى الأسفل. رحت أحدِّق بالشارع البعيد والمارَّة صغيريّ الحجم من علو شاهق. فكَّرت أن أرمي نفسي من فوق. لم أخف، ولم ينتبني شعور بالقلق! لم أتعرَّق ولم أفكِّر بأمِّي. حتَّى إنَّني لم أتخيَّل جسدي يسقط من الطابق ١١، ويتحرَّك في الهواء ويفقد الجاذبيَّة، ثمَّ يرتطم بالإسفلت فينفجر. لم أفكِّر إن كنت سأصل إلى الأرض حيَّة، فأشعر بوجع الارتطام. لم أفكِّر في معنى أن أرمي نفسي وأنتهي في بضع ثوانٍ فقط. لكنَّني فكَّرت أنَّ الوقت حان للّحاق بأبي. فكَّرت أنَّه ينتظرني، وأنَّنا سنمضي باقي العمر سوِّيَّة. أنا في الثلاثينيَّات وهو في الخامسة والخمسين. هو أيضًا توقَّف عند عمره يوم رحل. كلانا بقي في الرقعة التي خرجت الروح منها. هو في الغرفة ٢٠٣ وأنا في غرفة بيت أقربائي. «إنَّه حزن مؤجَّل». هذا ما نطق به الطبيب بعد فحوصات طويلة للأعصاب والدِّماغ. إنَّني أعيش الجنازة الآن، بعد أن أنكرتها لثلاث سنوات. فجأة، أدركت أنَّ بابا رحل، وأنَّ المواربة لم تعد تجدي نفعًا. أقمت الجنازة عندما قرَّرت أن أقيمها. لم أستسلم لرحيله في حينه. رحل باكرًا وبلا موعد مسبق بيننا. لم أصدِّق. ثمَّ بعد ثلاث سنوات، أصابني إنهاك فظيع، فقرَّرت أن أقيم الجنازة. غبتُ عن الوعي وضربني صداع شديد، وشلّت أطرافي، وتخدَّر لساني، وحاولت الانتحار. لم أحاول الانتحار بهدف الموت. بل لأثبِّت لنفسي أنَّني قادرة على الرحيل متى شئت، وأنَّ الخلاص بيدي وحدي. وأنَّ بقائي هو قرار أيضًا لا بأس بالاحتفاظ به إلى حين أقرِّر العكس. صارت فكرة الموت

تريحني وتخفِّف من قلقي. عندما أصاب بالهلع من فكرة فقدان عزيز، أقول في سرِّي إنَّه لا داعٍ للخوف، إن رحل ذلك العزيز، ما عليَّ سوى الانتحار فأرتاح. وأنا كنتُ جالسة على حافَّة الدرابزين الأخضر، أدندل قدميَّ في الهواء، دخلت «ماما ڤيك» إلى الغرفة ورأتني. خالتي ڤيكتوريا أسمِّيها «ماما ڤيك» منذ تعلُّمي النطق. دخلت إلى الغرفة ولم تتفاجأ بي أجلس على درابزين الطابق ١١ مرخية القدمين. ابتسمت لي بهدوء. لا أعرف من أين عثرت على الهدوء، هي المعروفة بنزقها وقوَّتها وحدَّة صوتها الصارخ. اقتربت منِّي. لم تلمسني. لكنَّها طلبت منِّي برفق أن أذهب معها إلى الصالون، لأنَّ الغداء جاهز. ذهبنا سوِّيَّة ولم نتحدَّث في الموضوع على الإطلاق، وكأنَّني لم أكن قبل لحظات على وشك القفز من الطابق ١١ علمت لاحقًا أنَّ أحد جيران العمارة المحاذية، اتَّصل بها مرتعد الأوصال، وأخبرها بأنَّ صبيَّة ما تحاول القفز الآن من البلكون. نعم، إنَّ الموت خلاص بشكل أو بآخر. ليس الموت فقط بل فكرته. امتلاك القرار في وضع حدٍّ لحياتنا، يحرِّرنا من أشياء كثيرة ونصبح أكثر خفَّة. إذ ما نفع الحياة لولا الموت، وما نفع الموت لولا أرواح ساخنة تخفق في أجسادنا»؟

لو أنّها تنتحر. رحت أتمنّى انتحارها. ثمّ فكّرت بأنّها لو انتحرت، لن نعرف بذلك. وفكّرت ذلك المساء، وأنا منهمكة بالقراءة، أنّ انتحارها ربما سينقذ نسيم من الانتحار. سيعوّض بموتها عن تحديقه الدّائم بالموت. نسيم يتفرّج على الموت ويراقبه ويمشي بمحاذاته. نسيم حكى لي قبل أن تموت أمّه وأخته بسنوات، عن موتهم واحدًا تلو الآخر. كان يخبرني كيف ماتوا وأنا تأخذني دقّة الوصف فأصدّق. لم يترك فردًا في عائلته إلّا وقتله مرّات ومرّات، ووصف جنازته وتصالح مع فقدانه.

لماذا اختار لها أن تؤجّل حزنها على رحيل والدها؟ لماذا صنع منها كائنًا يقف على الضّفّة الأخرى من الحياة؟ هي تؤجّل الجنازة ونسيم يستبقها. كنّا نمضي اللّيل في بيته وهو يقصّ لي حكايات الموت تلك. كيف أنّ والدته كانت في طريق عودتها من بيت صديقتها، التي تعاني من بداية خرف بعد أن فقدت ابنها الوحيد. لم تستوعب والدته أن تصاب أعزّ صديقة إلى قلبها بخلل في ذاكرتها، وأن تسألها عن صحّة أمّها التي ماتت منذ سنوات طويلة. ذلك اليوم، اختلطت الأمور على صديقتها، فلم تتعرّف إليها. ظنّتها أختها الكبيرة التي ماتت هي الأخرى قبل سنوات. «كيفك يا أختي؟ وكيف ولادك؟» ظلّت تخاطبها كأخت وليس كصديقة لساعة من الزمن. فخرجت والدة نسيم من بيت رفيقة عمرها ملتاشة ومجروحة. ولشدّة إحباطها، لم تنتبه وهي تعبر الشارع إلى شاحنة ضخمة تسير بسرعة خرافيّة. حتّى إنّها لم تسمع صوت الزمّور الذي راح يلعلع في الشارع. سائق الشاحنة لم يستطع كبح سرعته في الوقت المناسب، فدهسها. وأنا أسأل نسيم كيف علم بكلّ تلك التفاصيل التي سبقت موتها؟ كيف علم أنّها كانت في بيت صديقتها، وأنّها خرجت ملتاشة؟ كيف عرف أنّ صديقتها ظنّتها أختًا وليست صديقة؟ يقول إنّ صديقة والدته أخبرته.

وعندما أحشره أكثر وأسأله كيف لامرأة فقدت ذاكرتها أن تتذكَّر الحديث الذي دار بينها وبين صديقتها، يستسلم نسيم، ويعترف بأنَّ الجزء المتعلّق بخروج أمّه من بيت صديقتها ملتاشة، متخيَّل. ثمَّ أكتشف أنَّ القصَّة كلَّها متخيّلة، وأنَّ والدته ماتزال على قيد الحياة. قتل أخته الوحيدة، ومشى في جنازتها. قتل أباه وحزن عليه وتصالح مع موته، وانتهى الأمر بالنسبة إليه.

مات هو أيضًا.

«أثناء مرضي، تغيَّبت سنة كاملة عن المدرسة. فاتني صفّ الحادي عشر الذي يسبق البكالوريا. أمِّي زوَّدت المدرسة بتقرير طبِّيّ كتبه طبيب أعصاب، يقول فيه إنَّني غير قادرة على الالتحاق بصفوف المدرسة، بسبب حالة انهيار عصبيّ تعرّضني لحالات إغماء مفاجئة أو شلل في الأطراف. بالضبط كما حصّلت بعد سنوات تقريرًا يفيد بجنون إبنة خالتي الكبرى، كي يُفرجوا عنها في فرع المخابرات بعد أن كتبت أمام الجميع (لا) واضعة الورقة في الصندوق، رافضة توريث الحكم. صرت أدرس في بيت قريبة والدي، في الغرفة ذاتها التي استبقيت روحي فيها تلك اللَّيلة. أذهب إلى المدرسة، فقط لتقديم الامتحانات الكثيرة المطلوبة منَّا آنذاك. وبما أنَّ الأوتوكار لا يصل إلى بيت أقربائنا، كان سائقهم يصطحبني إلى المدرسة بالسَّيَّارة المرسيدس «المفيَّمة». عندما نقترب من الباب الرئيسيّ في ساحة النجمة، أروح أرجوه أن يقف بعيدًا من الباب خوفًا من أن يلمحني أحد نازلة من سيَّارة «مرسيدس». فأنا تعلَّمت في اللَّاوعي أنَّ سيَّارة المرسيدس تصيبني بالخجل، وتثير في نفسي ارتباكًا تحمرّ أمامه وجنتاي وترتجف ركبتاي. أبي علَّمني بلا نقاشات مباشرة وصريحة، أنَّنا في المكان الصحيح. فكلّ صديقاتي في المدرسة بلا استثناء، يمتلك أهلهنّ سيَّارة واحدة على الأقل، إلَّا نحن. لم تكن لدينا سيَّارة. وكنت في اللَّاوعي أشعر أنَّنا القاعدة وهم الاستثناء. ما البال إن كانت تلك السَّيَّارة «مرسيدس»؟ أنزل بعيدًا من الباب الرئيسيّ. أعبر الشارع وأدلف سريعًا إلى المدرسة. أدخل إلى غرفة الموجِّهة. تستقبلني بحفاوة لا تخلو من المبالغة، وكأنَّها تستقبل نزيلًا في مشفى الأمراض العقليَّة. تطلب منِّي الجلوس وراء مكتبها. تعطيني ورقة الامتحان المحضَّرة مسبقًا خصِّيصًا

لي. أجيب على الأسئلة وأرحل. أتحاشى مصادفة صديقاتي في الممرّ الطويل الذي يفصل غرفة الموجِّهة عن الصفوف والدرج المودي إلى الباب الرئيسيّ. أروح أفتِّش عن السّائق عليّ وقد ركن السَّيَّارة بعيدًا من باب المدرسة، كما رجوته أن يفعل. عليّ كان يقوم بكلّ المهمّات التي يمكن تخيُّلها. يعزّل البيت الممتدّ على مساحة ٣٠٠ متر أو أكثر. يطبخ في العطل. يتبضّع لهم يوميًا، بل في بعض الأحيان أكثر من مرّة في النهار. بنات قريبة والدي يتعاملن ببرود مع عليّ. لا يوفِّرن صراخًا ولا صلافة إلّا ويطلقنها في وجهه. بينما كان السّائق الآخر عمّار المنحدر من حلب شخصًا مرموقًا بالنسبة إليهنّ. يتجنَّبن إزعاجه أو الإثقال عليه بالطلبات والأوامر. يتحدَّثن معه برقَّة مفرطة. كان عمّار إلى جانب أنَّه من حلب، وليس من طرطوس، أكثر أناقة من عليّ. «مهفهف» كما يصفنه. عطره يملأ السَّيَّارة التي يقودها. «جانتلمان»، يفتح لهنّ باب السَّيَّارة على عكس عليّ الذي يجلس قبلهن في مكانه خلف المقود. صوته رزين وواثق على عكس عليّ. يهابونه كانوا! لم أكن أفهم لماذا قد يهابون إبن حلب ويستخفّون بإبن طرطوس؟

ثمّ عندما تزوَّجت ابنتهم الكبرى، فاتنة الجمال، ذات العينين النجلاوين، بشابّ سنّي دمشقيّ كانوا يرتدون كلّ ملابسهم عندما يزورهم! حتَّى إنَّ قريبة والدي لم تكن تستقبل «صهرها» بالخفافة، بل تنتعل أكثر أحذيتها رسميَّة. لم يلمحهم «الصهر» بالبيجاما مثلًا ولا مرّة في حياته! حتَّى عندما ينام عندهم مع زوجته، ويكون هو بالشورت والقميص الداخليّ، يظلّون بملابسهم كاملة حتَّى يدخلوا إلى غرفهم، فيرتدوا بيجاماتهم ولا يخرجوا صباح اليوم التالي إلّا متأنِّقين! يدعونه إلى الغداء ويجلسون معه على طاولة السفرة. يستخدمون الصحون مذهَّبة الأطراف

التي لا ترى النور إلّا مرّات قليلة في السّنة، خلال الولائم الكبرى التي تُدعى إليها شخصيّات رسميّة «مرموقة». يستخدمون إلى جانب الصحون المذهّبة شوكتين وسكّينتين وملعقة وفوط قماش مطرّزة. يسكبون الطعام في أوانٍ فاخرة، يقدِّمونه طازجًا ساخنًا. ثمَّ بعد الانتهاء من تناول الطعام، يجلسون في الصالون المخصَّص لاستقبال الضيوف، يحتسون الشاي بفناجين من الزجاج الرقيق، ولا ينسون الحلوى والفواكه لاستكمال طقوس الدَّعوة الرسميَّة. يتحدَّثون معه بالمشاريع الهندسيَّة التي يشرف عليها، وبأمور البلد والأسعار والاقتصاد والسياستين الأميركيَّة والروسيَّة والحرب الباردة وأفغانستان وأوروبا وكلّ سياسات الدول القريبة والبعيدة، عدا سوريَّة. ليس في سوريَّة ما يناقش. ليست موضوعًا سياسيًّا مطروحًا، بل أمر واقع يرقد في اللّاوعي.

بينما يستقبلون صهرهم الآخر إبن الضابط المهمّ، القادم من سهل الغاب، بالبيجامات والخفّافات. لا يأكلون معه إلّا في المطبخ، ويسكبون الطعام في صحون قد تكون مكسورة الحوافّ، من الطنجرة مباشرة. حتَّى إنَّهم ربما لا يسكبون له الطعام بل هو من يفعل ذلك. لأنَّه من «آل البيت» وليس ضيفًا غريبًا. يحدِّثونه بعفويَّة ولا يحتسون الشاي معه. يناقشون أمامه أمورهم العائليَّة، ولا يستغنون بحضوره عن قيلولتهم اليوميَّة. وعندما يرحل لا يودِّعونه، حتَّى إنَّهم لا يلحظون غيابه. وهم في هذا الاختلاف الجذريّ في المعاملة، لا يتقصَّدون الأمر. لم يتَّفقوا على ارتداء ملابسهم أمام صهرهم الدمشقيّ، ولا على الجلوس على مائدة الطعام المخصَّصة للضيوف. الأمر يتمّ بلا اتّفاق مسبق، ثمَّة تواطؤ خفيّ وغير واعٍ. ابنتهم التي تزوَّجت ابن سهل الغاب، والّتي تسكن في فيلّا في منطقة الجديْدة، لا يُعلموها بوقت زيارتهم لها. يخطر في بالهم أن يذهبوا إليها، فيركبون

السَّيَّارة ويتوجَّهون إلى مكان سكنها. وإن لم تكن في البيت، ينتظرونها في بيتها مشرَّع الأبواب تحت أعين الحرَّاس الكثر. بينما تتطلَّب زيارة ابنتهم، زوجة المهندس، اتِّفاقًا مسبقًا «يبرم» قبل زمن ليس بالقصير. يذهبون إليها بكامل أناقتهم، محمّلين بالحلوى والفواكه والشوكولا والموالح. وكأنَّهم يريدون إشباعها. كأنَّها تعيش في سجن المزَّة وليس في حيّ المزَّة. وفي كلّ زيارة لها، يسألونها قبل خروجهم إن كانت بحاجة إلى شيء مفترضين أنَّها في عَوَز دائم.

ظرفاء كانوا ومحبِّين. احتضنوا مخاوفي وكآبتي، ولم يفوِّتوا فرصة للالتفاف على وجعي. حاولوا جاهدين، كلّهم بلا استثناء، أن يعوِّضوني عن رحيله. غير مدركين ربما أنَّ أحدًا لن يستطيع ملء ولو ذرَّة صغيرة من ذلك الفراغ الآخذ في الاتِّساع يومًا يعد يوم وسنة بعد سنة. الرُّوح تدافع عن نفسها أمام الفقدان، فتحاول ملء الفراغ بكلّ ما يمكن تصوُّره. تروح تلهث وراء التفاصيل، أدقّ التفاصيل، وفي كثير من الأحيان أتفهها، تمسك بكلّ ما تصادفه في طريقها، وتحشو الفراغ به في سعي إلى ملئه. ثمَّ تكتشف أنَّها غارقة في خوائها حتَّى القعر. وأنَّ ذلك الخواء يُحدث ثقبًا في الذاكرة لا يمكن رتقه. وأنا أكره العائلة. أحبّ بعض أفراد عائلتي، كلّ واحد منهم على حدة وليس كلّهم. أحبّ فرادتهم، ولا أحبّ الجلوس معهم مجتمعين كعائلة. وكأنَّ اجتماعهم يحرمني من ذاكرتي عن جلساتي، بابا وأنا وحدنا. صارت أيّ جلسة كبيرة تثير رعبي. أجلس مع النَّاس واحدًا واحدًا. وإن حصل واضطّررت للتواجد في جلسة كبيرة، أستفرد بأحد الموجودين، وأستغرق بحديث جانبيّ معه لا يشاركنا فيه أحد. ليست كراهية خالصة أو مطلقة لفكرة العائلة، بل لأنَّ المصطلح عبثيّ إلى حدّ بعيد. إذ إنَّ جدَّتي خديجة كانت عائلة أبي كلّها. جدَّتي

وحدها، احتلَّت في مخيِّلتي وذاكرتي عن الطفولة، مكان عائلة بأسرها. والموضوع ليس بسيطًا إلى هذه الدرجة، لأنَّها بذلك كانت أيضًا تحمي العائلة في ذهني. فأنا لو فكَّرت لدقيقة بغير جدَّتي، لوجدت نفسي وحيدة بلا عائلة من جهة الأب. لا عمَّتايْ قريبتان إلى قلبي ولا عمِّي ولا جدِّي. عمِّي الآخر الحبيب إلى روحي، رحل. لو فكَّرت بهم فردًا فردًا، لن أعثر على عائلة. جدَّتي هي وحدها عائلتي من جهة أبي.

عائلة أمِّي صغيرة جدًّا، وليست عائلة بالمعنى الفعليّ للكلمة. بل يخطر لي في بعض الأحيان أنَّها عائلة افتراضيَّة، أسطوريَّة، مبنية على الخيال، إلَّا أنَّها ليست هشَّة، بل حاضرة كالأساطير. وما يجعلها في ذهني أسطوريَّة، هو أنَّها مرويَّة وليست معاشة. فأنا أسمع عنها من أمِّي وخالتي وأتخيَّلها. لم أعشها. لم أعِ فرادتها إلَّا عن طريق قصصهنّ. جدَّتي هيلانة من مسيحيِّي تركيا. أحبَّت رجلًا مسيحيًّا في تركيا، وأنجبت خالتي ڤيكتوريا (ماما ڤيك). توفِّي زوجها، فالتقت برجل سوريّ قال لها إنَّ اسمه جوزيف. ظنَّته مسيحيًّا. طلب منها الزواج، فهجرت تركيا وجاءت معه إلى دمشق. في دمشق، علمت أنَّه مسلم واسمه يوسف. لم يغيِّر ذلك من الأمر شيئًا. تزوَّجته. أنجبت منه أمِّي وخالي، فكانا مسلمَين. ثمَّ تزوَّجت خالتي المسيحيَّة برجل مسلم وأنجبت ابنتين.

أذكر بيت جدِّي لأمِّي في حيّ العفيف. بيت دمشقيّ من ثلاث طبقات. في كلّ طبقة ثمَّة فسحة مكشوفة على السَّماء. بعد أن توفيت جدَّتي، صار جدِّي ينام في الطابق الأرضي تفاديًا لصعود ونزول الدرج. فسحة الطابق الأرضيّ تتوسَّط المطبخ وغرفة الطعام والصالون وغرفة الجلوس التي أصبحت غرفة جدِّي بعد مرضه، وتواليت صغير. الطابق الثاني فيه فسحة تسمَّى «المشرقة»، مزروعة بالنباتات والأزهار، يحدوها

حمّام كبير. الطابق الثالث فيه ثلاث غرف نوم، واحدة كانت لابنة خالتي الصغرى، وأخرى لخالي الذي يكبرها بالعمر سنوات قليلة، وثالثة لخالتي. زوج خالتي توفي باكرًا أيضًا.. وتضيع عليّ الأمور! هل أذكره فعلًا أم أتخيّله في الصُّور الكثيرة التي تجمعه بخالتي وابنتيهما؟ عندما توفِّي زوج خالتي وتوفِّيت جدَّتي، انتقلت خالتي للعيش في بيت جدِّي مع ابنتها الصغرى. وابنتها الكبرى كانت تدرس في «الاتِّحاد السوفييتي»، تزورنا في العطل. بعد أن توفِّي جدِّي، تزوَّج خالي وظلّ في البيت مع زوجته. ذلك البيت الذي يشكِّل أبهى صور طفولتي. هناك تعلَّمت المشي لأوَّل مرَّة، والنطق، وصعود الدرج الطويل جدًّا الذي يصل أرض الديار بالفسحة الخضراء التي تفصل الطبقتين، إحداهما عن الأخرى. كنت أصعده مرَّات ومرَّات، أجلس على آخر درجة فيه وأبدأ بالنزول درجة درجة، ببطء ثمّ بسرعة جنونيَّة. بعد وفاة جدِّي، اشترت خالتي بيتًا في مشروع دمَّر، وظلّ خالي وحيدًا مع زوجته. قرَّر بعد سنوات أن يبيع البيت، ويقتسم ثمنه مع أختيه.

أذكر آخر زيارة للبيت بصحبة ماما. وقفت في أرض الديار، رفعت رأسها باتِّجاه الطابق الثالث حيث غرف النوم، وراحت تصرخ بأعلى صوتها: «يا ماماااا.. يا أمِّي». خفت يومها. ظننتها فقدت عقلها. لكنَّني صمتّ. قالت لي إنَّها كانت تنادي أمَّها في البيت للمرَّة الأخيرة. ودَّعت البيت على طريقتها. البيت كان بالنسبة إليها أمّها، وهي تنادي لها من أرض الديار: «يا ماماااا». أرادت أن تجرِّب ذلك الصوت في ذلك المكان للمرَّة الأخيرة. ثمَّ طُويت صفحة حميمة بالنسبة إليّ، مع اختفاء ذلك البيت الشاهد على حكاية عائلة أسطوريَّة. واختفت معه علاقتي بالمكان وبالبيوت المحاذية لبيت جدِّي، حيث أمضيت طفولتي متنقِّلة من بيت خالة أمّ حنان إلى بيت

خالة أمّ كمال إلى بيت «تي تي». كانوا يسمُّونه بيت «تي تي»، حيث تعيش صديقة جدَّتي وزوجها وبنتيها خالة بدرية وخالة مسيكة. أمّي وخالتي وخالي يصيحون لوالدة بدرية ومسيكة منذ صغرهم «تي تي»، فأضحى بيتها بيت «تي تي». عندما سألت أمّي عن إسم «تي تي» الحقيقيّ، لم تعرف! رحلنا عن البيت، ورحلت عنّا تلك البيوت الكثيرة المحاذية له والمشبَّعة بالقصص، وبفيض من الذاكرة.. فيض طافح.

قبل سبعة أعوام، سمعتْ أمّي أنَّ بيتهم الذي باعوه لعائلة غريبة عن الحارة، معروض للبيع. قالت لي إنّها ترغب بشرائه. ستبيع بيتها وتستعيد بيت أهلها، بيت طفولتها وطفولتي. وأنا راحت الحماسة تفور في روحي. رحت أعدّ السّاعات دقيقة وراء الأخرى، وكأنّني في موعد للقاء أبي الذي فاجأني بعودته. هذا، في كلّ الأحوال، هو الحلم الوحيد الذي يتكرَّر بين حين وآخر. فجأة يعود أبي. وتغمرني سعادة خالصة لا أعرف كيف أصفها. سعادة لم أصادفها ولا مرَّة في حياتي سوى في هذا الحلم. سعادة مصنوعة خصِّيصًا لهذا الحلم، ولن تراودني إلّا في اللَّيل مع هذا اللِّقاء. وفي كلّ مرَّة، نتفّق على اللِّقاء في مقهى ما، لا أعرفه في الواقع، مقهى متخيّل. أبي يشرب البيرة لا أعرف لماذا! فهو يحبّ العرق عادة أو الويسكي. وأنا أحتسي النبيذ محاولة احتواءه قدر المستطاع بين جفنيّ، أريد استبقاءه، وكأنّني على يقين من أنّه حلم. ثمّ يصيبني الارتباك. إذ من أين أبدأ الحديث معه؟ أشياء كثيرة حدثت، وتفاصيل يصعب إحصاؤها، وأحداث لا أعرف كيف أرتّبها بشكل صحيح كي لا يتفاجأ بابا بما وصل حالنا إليه.

وذهبت بصحبة أمّي إلى البيت، بيت طفولتي وطفولتها».

يكتب نسيم عن البيوت كمن يكتب عن روحه. علاقته بالأمكنة تحمل قدرًا من الارتباك والجنون. كان يحكي لي كيف أنّه لا ينتمي إلى أيّ بيت من البيوت التي عاش فيها. وكيف أنّه اختار ذلك، اختار ألّا ينتمي. وفي الوقت ذاته، يسبّب له عدم الانتماء، حالة ذعر. يقول إنّه يختار ما يسبّب له الذعر دائمًا. يستحضر الذُّعر، خوفًا منه. حالة الخوف من الخوف تلك، لعينة. تجعله يخترع كلّ الطرق ليصاب بالذُّعر. يريد أن يقرّر هو متى يصاب بالذُّعر، لا أن يداهمه الذُّعر في موعد غير مسبق.

كان يتّصل بي لاهثًا. أنفاسه متقطّعة من شدّة اللّهاث. يخبرني أنّه في الطريق إلى بيته، وأنّ البيت مايزال بعيدًا، وأنّه ضائع في الزّحام، وقد نزل من التكسي الذي كان يقلّه إلى البيت، بسبب الزحام والحرّ. نزل من التكسي ليصاب بذعر أكبر، ليصل الذُّعر إلى ذروته، ثمّ ينجلي دفعة واحدة مع العرق الغزير المتصبّب من كلّ مسامة في جسمه. كان نسيم يهرب من التكسي إلى الشارع بحثًا عن الهواء، فلا يعثر إلّا على شمس جارحة وهواء ثقيل وحارّ، وأنفاس متقطّعة. ثمّ يصل إلى بيته بشقّ النَّفس، ويعاود الاتّصال ليخبرني أنّه وصل. وصل إلى نقطة الارتكاز. هناك، في بيته، حيث يغلق الباب على الضجيج والحرّ، تكمن نقطة ارتكازه. فأقول له إنّ البيت انتماء. لكنّه يقاوم الفكرة بحجّة أنّ انتماءاته ضيّقة. يروح يشرح لي كيف أنّ البيت لا يعني له شيئًا. إلّا أنّ غرفته مثلًا هي الانتماء. ليس غرفته حتّى، بل سريره الخشب الواطئ. ثمّ يروح يقلّص حجم الانتماء ليقنعني بأنّه لا يمتلك السرير كلّه بل الجزء الأيمن منه حيث ينام. وأنا أبتسم، وأسخر من فكرته بالقول إنّ الجزء الأيمن عبارة فضفاضة، لا بدّ لك من اختزالها أكثر. ولم تكن مزحتي السّاخرة تلك تضحكه، بل تزيد من حدّة تلك العبسة المستقرّة بين الحاجبين. وأقول له إنّ ما حدث في

الشارع، ليس سوى نوبة هلع. يرفع رأسه أنْ لا. هو لا يعترف بنوبات الهلع. هو لا يعترف بأيّ تفصيل يمتُّ للعوالم الداخليّة بصلة. وأنا كنت أستغرب كيف يزور كميل على الرَّغم من عدم اعترافه بداخله. يقول لي إنَّ الروح لا ترتخي على الجسد، بل العكس. وإنَّ نوبة الهلع كما أصفها تعني أنَّ الروح المتعبة تلقي بتعبها على الجسد، فيعبِّر عن تلك المتاعب بأعراض عضوية كاللّهاث والضياع. في حين أنه لا يؤمن بتلك العلاقة. برأيه، الجسد هو من يرخي بثقله على الرُّوح، هو من يتعب فتتعب، وإلّا لكانت الروح عاشت بمعزل عنه. لماذا تموت الرُّوح إن مات الجسد؟ بينما لو «شقّت الرُّوح حالها وجنّت وحاولت تنتحر»، لن تفلح إن لم يكن الجسد متعبًا. الجسد الصحيح هو الحياة. هو الانتماء. أقول له إنَّ الرُّوح هي من يقرّر الانتحار، وإنَّ الجسد ليس سوى المنفّذ. يقول لي إنَّ كلامي هذا يؤكّد كلامه. إذ إن محاولات الانتحار تفشل عندما يكون الجسد غير مستعدّ بعد للرحيل. الجسد هو من يقرّر أن يبقى أو يرحل. هو من يقرِّر أن يقاوم إن امتلك الأمل، أو الخضوع إن يئس.

وأسأله إن كان جسده من أحبَّني أم روحه. الجسد هو من يحبّ. العينان تحبّان والأذنان واليدان والفم. أليس الفم هو من يتذوَّق الطعام ويحبُّه أو يرفضه؟ أليست المعدة هي التي تلفظ الطعام الفاسد؟ أليست الأذنان اللّتان تختاران نوعًا معيَّنًا من الموسيقى؟ أقول له إنَّك تتحدَّث هنا عن الذائقة والذائقة هي الرُّوح. فيسخر منّي. نسيم لا يعترف بالداخل. كيف سيتصالح مع نوبات الهلع إن لم يفهمها؟ كيف سيعثر على بيت وانتماء إن كانت روحه لا تتعلّق بالرّوائح، كما يقول، بل جسده هو الذي يسكن أو يهجر. لذلك، ربما كان نسيم يحتفظ بأشياء لا معنى لها. عثرت في جوارير المكتب والكوموّد في غرفة نومه على أشياء غريبة جدًّا، قد

تكون انتماءه الوحيد، نقاط ارتكازه. ماذا تراه يفعل في ألمانيا بعيدًا عن تلك الانتماءات؟ ألهذا لا يتوقَّف عن صفع وجنتيه الجميلتين؟

عثرت على فواتير عديدة احتفظ بها من المطاعم والمقاهي ومحلات الملابس والسوبرماركت. حتَّى إنَّني عثرت على فواتير مكتوبة بخطِّ اليد، حصل عليها من بسطات الفاكهة والخضار على ما أعتقد. عثرت على صندوق صغير محشو بإتيكيتات الملابس التي يشتريها، ينزع عنها الاتيكيت الذي يشير إلى نوع الماركة وثمن قطعة الملابس، ويحتفظ بها. عثرت على «فلّينات» زجاجات النبيذ. على الكثير من علب الأدوية الفارغة، يحتفظ بها لأسباب أجهلها.

ثمَّ عثرت على كومة أوراق مطبوعة بشكل أنيق بالأبيض والأسود.

نعوات!

نعوة لوالده وأخرى لأمِّه وثالثة لأخته ورابعة وخامسة وسادسة و... لأشخاص لا أعرفهم. ثمَّ زاغت عيناي، وشعرت بدوار يحفّ برأسي وقشعريرة تتسرَّب من عنقي إلى ركبتيَّ، إذ وجدت نعوتي! كتب نسيم نعوتي في يوم من الأيَّام وطبعها، وضمَّها إلى باقي النعوات. لم يحكِ لي مرَّة أنَّه استبق موتي. كان يستبق موت أهله وموته هو، لكنَّه لم يحدِّثني عن موتي ولا مرَّة واحدة، إلَّا أنَّه تخيَّله. كنت أقرأ اسمي والورقة ترتجف بين أصابعي. واسمي كان يهتزّ. رأيته يتحرَّك يمينًا ويسارًا، وكأنَّه يريد الخروج من الورقة. خفت. وليس أصل الخوف تطيّر، ولا أؤمن بالإشارات. لكنَّني عرفت أنَّني متّ في قلبه، كما مات والده من قبل وأمّه وأخته. «المعرفة موت»، قال لي نسيم مرَّة. وأنا تأمَّلت عبارته التي تنطوي على أكثر من معنى. ولم أشأ أن أسأله، ويستغرق في حديث قد يفتح عينيّ على أسئلة

كبيرة. لم أكن أحبّ الأسئلة الكبيرة وأنا بصحبته. كنت أستغرق في كلّ ما هو صغير. واكتشفت لاحقًا أنّني أحبّه صامتًا. ما إن يفتح فمه ويهمهم بالكلام حتى يصيبني نفور ما، لا أعرف من أين يطلع. عندما حدّثت كميل عن ذلك النفور، ابتسم تلك الابتسامة التي لا تخلو من النصر، متّكئًا على إحساسي بالنفور إن تكلّم نسيم، ليبرهن لي أنّني لا أحبّه كما هو، بل كما أتخيّله. فإن صمت، اشتغل الخيال، وإن تكلّم تعطّل. إلّا أنّني فكّرت بعبارته تلك: «المعرفة موت». وفهمت أن جهلنا بأمر ما، يحيينا لنكتشفه، إن عرفناه جيّدًا، امتلكناه، ففقدناه.

وأنا متّ عندما عرفني جيّدًا.

أخذت نعوتي معي. طويتها بعناية، كما كان نسيم يطوي قمصانه وكنزاته. أراقبه من بعيد كيف يمسك بالكنزة القطنيّة ويمسّدها بشرود، فيبدو لي الزمن ممتدًّا ومكرّرًا. تنتابني في حينها لحظة الـ«معاش مسبقًا» أو الـ«dejà vu». يمسّدها ممدودة على الطاولة أو فوق السّرير، ويروح يثني طرفيها، ويعيد تمسيدها ويطويها. يمسك بها برفق بكلتا راحتيه ويضعها فوق رفّ من رفوف الخزانة التي تشبه خزانة الأمّهات والجدّات، وليس رجل في الأربعينيّات.

طويت نعوتي برويّة، ودسستها في جزداني قبل أن أطفئ الأنوار وأقفل الباب، وأعود إلى البيت حيث أمّي تقرأ في الصفحة ٢٤ في غرفتي الصغيرة، ثمّة باب رفيع يفضي إلى بلكون صغير مملوء بالزرّيعة والورود. اتّجهت إلى شجرة الزيتون الصغيرة والوحيدة في زاوية البلكون. حفرت بيدي، وراقبت التراب يتجمّع تحت أظافري. حفرت وحفرت، دفنت النعوة هناك، وأعدت التراب وراكمته. لا أعرف لماذا دفنتها بدل أن أتلفها. وكأنّ فعل التلف قد يعيد إليها الحياة في الكيس. لم أشأ أن يقرأها

أحد. حتّى لو حوّلتها إلى نتف صغيرة عصيّة على التهجئة، لا بدّ أن ينجو منها حرف واحد على الأقلّ. لا أريد لأحد أن يلمح حرفًا واحدًا منها، ولا أن يمسك بيده نتفة من ورقة كتبت عليها نعوتي قبل أن أموت. دفنتها ونسيتها هناك. كلا. لم أنسها. كنت كلّما دخلت الغرفة ولمحت الزيتونة، تخيّلت الورقة مخنوقة في جوف التراب. قبل أيّام قليلة، رأيت كابوسًا أيقظني مذعورة، قلبي يقفز وراء صدري وفي عنقي وبين ساقيّ. كنت جالسة في مكان ضيّق، لا يتّسع لي كاملة، مكتملة. جلست وضممت ساقيّ إلى صدري بساعديّ. كما أعانق نفسي في العادة، كنت أعانق ساقيّ المطويّتين والمضمومتين إلى صدري، ولا أقوى على التنفُّس. التراب يغمرني، ويتسلّل إلى فتحات أنفي وعينيّ وأذنّي، وأشعر برطوبته فوق جلدي. ومع ذلك، كنت أستطيع النّظر. أو أنّني لم أستطع النّظر، لكنّني لم أكن أنا في الحلم. كنت أتفرّج على نفسي. كنت خارج ذلك الجسد المطويّ والملموم بعضه على بعض. هل صحيح أنّ الروح تغادر الجسد في اللّيل وتحلم وحدها بمعزل عنه؟ لقد كنت أتفرّج على نفسي في الحلم، تختنق، تتوسّل الهواء، تتلوّى تحت وطأة تراب طريّ ورطب. وتفكّر في أنّ الطراوة تصبح كالصخر إذا ما تراكمت فوق بعضها بعضًا. كنت في الحلم أنا، وكنت أنا تلك الورقة المدفونة في شجرة الزيتون، فوقها دوّنت نعوتي. ثمّ رأيت اسمي محفورًا على ظهري، وإلى جانبه تاريخ ولادتي. لم أرَ تاريخ رحيلي مدوّنًا. لم أمت إذن؟ لم أكن ورقة نعوتي في الحلم؟ ماذا كنت؟

فتحت عينيّ بصعوبة ومشقّة. فكّرت في التاتو. ليس سوى التاتو الذي حفره نسيم نهاية العام ٢٠١١. في بيته، كنّا جالسين واحدنا إلى جانب الآخر. رفع كنزته القطنيّة كاشفًا عن ظهره. رأيت اسمه محفورًا

بالعربيَّة وإلى جانبه تاريخ ولادته وعنوان سكنه في دمشق وعنوان بيت أهله في حمص. قال إنَّه يخاف أن يموت في تفجير ما أو في قصف، ويصبح جثة ضائعة لا وقت للتفتيش عن أصلها وأهلها، يدفنونها في أقرب أرض تحتوي على تراب. وأنا لم أقل له إنَّه لو مات في تفجير ما أو تحت القصف، قد يصبح جسده أشلاء ونتفًا، ولن يستطيعوا فكّ رموز التاتو، هذا إن عثروا على بقايا كتابة. أردته أن يحتفظ بتلك الطمأنينة الواهية والمخاتلة.

«طرقت أمِّي الباب. وفي لحظة خاطفة، عادت إلى ذهني تلك الصورة الأخيرة التي مضى عليها أكثر من عشرين عامًا. شاهدت أمِّي ترفع رأسها نحو السماء وتصرخ: «يا ماماااا.. يا أمِّي».

فتحت الباب امرأة ستِّينيَّة. رحَّبت بنا. دخلت أمِّي ولحقتُ بها. كوريدور ضيِّق وقصير يفصل الباب الخارجيّ عن أرض الديار. ثمَّ أرض ديار صغيرة بالكاد تتَّسع لي ولأمِّي، ثمَّ غرف صغيرة جدًّا مترامية حول تلك الفسحة التي أدهشني صغر مساحتها. رحت أبحث بعينين نهمتين عن ذلك البيت الذي شكّل ذاكرتي الأولى عن الأمكنة. فتَّشت عن الدرج الطويل الذي مسحته بثيابي مئات المرّات متزحلقة عليه. لم أجد سوى درج قصير جدًّا، عشر درجات بالكاد! صعدته بسرعة كبيرة تعادل المسافة بين «يا ماما..» و«يا أمِّي..». «المشرقة» التي كانت ملعبًا بالنسبة إليَّ، لم أعثر عليها. صارت فسحة صغيرة تتَّسع لكرسيّ أو اثنين. غرف النوم الثلاث، لا تتعدَّى مساحاتها مجتمعة، مساحة غرفة واحدة من تلك التي كنت أجلس فيها على السَّرير وألعب بصمت. أين اختفى ذلك البيت الفسيح، الذي فقدت مع فقدانه مرحلة فضفاضة من طفولتي؟ أدهشتني فكرة أنَّ أجساد الأطفال الصغيرة والهشَّة، تقيس المكان بحسب أحجامها! وأنَّني بجسدي الصغير، كان المكان فسيحًا بالنسبة إليَّ، «مبهبطًا» على مقاس جسمي. والدرج القصير كان، بالنسبة إلى ساقَيَّ الصغيرتين، طويلًا، ويحتاج إلى زمن للهبوط من قمَّته إلى أسفله. ثمَّ إنَّ السكّان الجدد شوَّهوا معالم البيت. فرشوا أرض الديار بموكيت رخيص زيتيّ اللَّون. دهنوا الجدران بألوان كابية. بدا البيت كئيبًا وغير قابل للتجديد. استعادته كما كان، غير ممكنة. رحلنا عنه حزينتين. أمِّي حزينة، لأنَّه لم يعد ذلك البيت المملوء

بهم وبقصصهم وذاكرتهم. تاريخ الأشخاص يتسرَّب من فضاء البيت شيئًا فشيئًا. تحلّ محلّه ذكريات السُّكّان الجدد، وروائحهم وخلايا أجسادهم التي تتراكم فوق الكنبات وعلى الجدران يومًا بعد يوم. كما هو حال بيت عمَّتي والكنبات المغطّاة بطبقات منهم، طبقات عصيّة على الاندثار.

ولم تشترِ أمّي بيت أهلها. لم تستعد طفولتها كاملة. لكنَّها استعادت جزءًا منها، عندما اشترت البيت القريب جدًّا. لا تفصله عن بيت أهلها سوى بضعة بيوت. وبيتها الجديد بطبقات ثلاث أيضًا. لم ننم فيه ولا ليلة واحدة. اشترته بداية الثورة، بعد أن باعت بيت طفولتي الآخر في حيّ مساكن برزة.. ولم يتح لنا أن نسكنه بعد.

أبي طلب من أمّي قبل أسبوع من رحيله أن تتَّصل بالمحامي، وتطلب منه القدوم إلى المشفى ليسجِّل البيت باسمي. وبيت الضَّيعة، الذي تسكن فيه جدَّتي الآن، سجَّله باسمي أيضًا. وأنا لم أشعر يومًا أنَّ لي بيتًا أو بيتين. لم أشعر بأنَّني أمتلكهما. حتى إنَّني لا أمتلك مفاتيحهما. لا أحملها في جيبي. لم أحمل مفاتيح البيوت التي سكنتها إلَّا نادرًا. ولا أعود إليها إلَّا عندما أعرف أنَّ أحدًا في انتظاري. أقول لكميل إنَّ علاقتي بالمفاتيح غريبة. وإنَّني منذ ذلك اليوم البعيد، لم أعد أكترث للمفاتيح. أيّ يوم بعيد؟ يسألني كميل. يوم عثرت في الدُّكان القريب من بيتنا على دفتر أخضر، دفّتاه من القماش، مزروعتان بورود ملونة بالأحمر والأزرق. كان للدفتر قفل. طلبت من بابا نقودًا لشرائه. أعطاني النقود، لكنَّه سألني عن شكل الدفتر الذي أريد شراءه. قلت إنَّ له قفلًا. رفض بابا بحزم. قال إنَّ لا أسرار لدينا نخفيها بعضنا عن بعض. وقال إنَّنا نثق ببعضنا بعضًا، ولا نخشى من التلصُّص، لأنَّ أحدًا منَّا لا يتلصَّص على أشياء الآخر. أبواب الغرف خالية من الأقفال. وحيواتنا نحن الثلاثة مفتوحة على بعضها بعضًا

بلا خجل أو حذر. جوارير خزانتي الخشب حيث كنت أخبّئ أشيائي الخاصّة، لا أقفال توصدها. وهما لا يفتّشانها، لأنّها تخصّني. منذ ذلك اليوم، لم تعد المفاتيح تعنيني. بل إنّها صارت قطعًا معدنيّة لا أطيق حملها، ويزعجني صوت خشخشتها في الجيوب أو الجزادين.

عندما تركت دمشق منتصف حزيران عام ٢٠١١، لم أحمل مفاتيح البيت. ليست مسألة العودة من عدمها، بل لأنّني غير معتادة على حمل المفاتيح.

في مطار دمشق الدوليّ الموحش والبارد، جلست على مقعد حديد طلاؤه الأبيض مجروح، لم يتبقّ منه سوى بقع قليلة. كانت الساعة الثالثة فجرًا تقريبًا. رحت أتفرّج على محلّات السّوق الحرّة التي تبيع حلويات دمشقيّة، وملابس يقال إنّها تراثيّة وعريقة. مرّ من أمامي صرصور، يمشي بتثاقل وكسل. حتّى إنّه لم يثر الذّعر في قلبي. وفكّرت أنّ صراصير سوريّة أيضًا أصيبت بالعدوى، وصارت تمشي بتثاقل وكسل، تفتقر إلى أيّ رغبة. فكّرت بالهرب من المطار والعودة إلى البيت. ثمّ انتبهت إلى أنّني سلّمت حقيبتي. وما المشكلة؟ تصل حقيبتي دوني، وأستعيدها بعد أيّام. ثم تراجعت. هكذا تجري الأمور دائمًا. أجلس في المطار، وأفكّر بالعودة، إلى أن فقدت البيت نهائيًا، ولم أعد أمتلك ما أعود إليه. منذ أن تركت بيتي في دمشق، لم تعد لديَّ بيوت أرجع إليها. كأنّني أعيش في المطار، وكلّ الطائرات تأخذني من اللّابيت إلى اللّابيت.

لكنّني عدت إلى دمشق بعد شهر ونصف الشهر. بقيت أسبوعين قبل أن أغادرها إلى بيروت في الثاني عشر من شهر آب ٢٠١١. غادرتها، وفي ظنّي أنّني لن أبقى سوى شهر أو شهرين. مضت أربع سنوات ونصف السنة».

توقَّعت أن يكتب نسيم عن الثورة. لن يستطيع إكمال روايته من دون الخوض في بعض تفاصيلها. أذكر كيف تجادلنا حول عدم قدرته على الكتابة. نسيم ظنّ أنَّ ما حدث عطّل خياله. يقول إنَّ الكتابة عن ثورة لم تحصل، أمر ممكن. أمَّا الكتابة عن ثورة تحصل أمام أعيننا وفي حيّز أحاسيسنا كلّها، فهو أمر صعب للغاية. ثمَّ إنَّ تجاهُل ما يحدث، والكتابة عن موضوع لا علاقة له بما نعيش، ليس سوى محاولة بائسة للانفصال عن الواقع. بينما كنت متأكّدة من أنَّ لا علاقة للثورة بعدم قدرته على كتابة سطر واحد متخيّل. كنت أعرف أنَّ الدواء الذي بدأ بالتهامه يوميًا منذ بداية الثورة كسبيل أخير للخلاص، هو السّبب. ذلك الدواء المضاد للاكتئاب، يمحو القلق ويقتل القدرة على الخيال. كان يسخر منّي. «إنَّها مجرَّد حبَّة بيضاء صغيرة». هل توقَّف عن أخذ الدواء في ألمانيا؟ لا بدّ أنَّ الكمية التي أخذها معه، نفدت. ولن يستطيع الحصول عليه من دون وصفة طبّيّة. والوصفة تتطلَّب أن يبذل جهدًا، بعض الجهد فقط، ليحصل على موعد مع طبيب نفسيّ. فهو كطبيب عامّ لا يحقّ له أن يكتب الوصفات لنفسه في بلد كألمانيا. إلَّا أنّني أعرف نسيم جيّدًا، حفظته عن ظهر قلب، أعرف أنّه لن يبذل بعض الجهد ذاك. حتّى إنّه لن يعدّل شهادته ويتعلَّم الألمانيّة ليزاول مهنته كطبيب. هو أصلًا لم يكن طبيبًا حقيقيًا، ولم يكن كاتبًا حقيقيًا أيضًا. كان نسيم. وها هو يحاذي خوفه، يدنو منه، يلعب معه. ها هو يكتب عن الثورة رغم خوفه من الكتابة عنها.

عن أيّ ثورة تكتب يا نسيم؟ لقد انتهت الثورة، يوم رحلت ورحلوا. الثورة لا تخرج من الكتب يا نسيم، ولا تطلع من الحروف. الثورة هي أن أرجو أمّي كلّ صباح ومساء، ألَّا تمرض. أستجديها بعينين صامتتين أن تبقى بصحّة معقولة، ألَّا يصيبها فيروس أو مرض ما. هل تعرف ماذا

حلّ بجارتنا فريال؟ مرضت. أصابها فيروس في المثانة. إبنها الذي يعيش في فرنسا، قال لها: «ما تاكلي همّ المصاري». ثمن الدواء كان باهظًا. ستُّون ألف ليرة، ثمن علبة المضاد الحيوي. ولم تتحسَّن حالتها. اقترح الطبيب نقلها إلى المشفى لتأخذ جرعات مكثَّفة من الدواء في الوريد. وإبنها يتَّصل كلّ يوم، يردِّد كلّ يوم: «ما تاكلي همّ المصاري». ولم تكن المشكلة مشكلة نقود. لم تعثر ابنتها على سرير في غرفة مشفى لأسبوع متواصل. ثمَّ طلبت إجازة من عملها لتخصِّص يومًا بأكمله للبحث عن سرير شاغر. البحث عن سرير في غرفة مشفى يحتاج إلى إجازة! أليست هذه هي الثورة؟ ولم تعثر ولا على طرف سرير، ذلك الطرف الأيمن الذي يشعرك بالانتماء. حتَّى هذا، لم تعثر عليه. وابنها يرسل النقود. ثمَّ وجدوا ممرِّضًا، تبرَّع بالقدوم يوميًّا لقاء مبلغ باهظ. أخذت السيروم لأسبوع في بيتها. ولم تشفَ. في كلّ زيارة إلى بيتهم، أسمعها تتمتم: «ريّحني يا رب. خلّي هالشباب لأهلهم وخدني». وأنا أرجو أمّي ألَّا تمرض. لا طاقة عندي للبحث عن سرير مشفى.

كتبت رسالة لنسيم، ولم أرسلها. كدَّستها فوق كومة الرّسائل التي لم أرسلها. حدَّثته عن دمشق التي صارت بعد رحيله. قلت له إنَّني أتذكَّره كلَّما خطوت خطوة خارج عتبة البيت. كان سيصعب عليه تحمُّل العيش في هذه المدينة المرعبة. سيضطرّ لمواجهة مخاوفه كلّ ثانية. الزُّحام والسَّيّارات المتراصَّة وراء بعضها بعضًا بكثافة، في انتظار العبور. الحواجز وأسئلة المجنّدين. وهويَّته القاتلة. حمص. هجرة الأطباء وعدم استطاعة المشافي على استيعاب المرضى متى يحلو لهم أن يمرضوا! لم يعد ثمَّة إمكانيَّة للمرض بشكل مجّانيّ ومفاجئ. عليك يا نسيم أن تختار لحظة مرضك. كما اخترت لحظة موت أهلك وموتك وموتي. لو أنَّك في

دمشق، لانتحرت.. ربما. أو لفقدت عقلك وسط حفلات الجنون التي يصل ضجيجها إلى أذنيّ بإيقاع ثابت ومستمرّ حدّ الخوف. صحيح أنّ كميل لم يغادر دمشق بعد، لكنّه متعب مثلنا. ونحن كنّا نظنّ أنّه لا يتعب ولا يكتئب ولا يصاب بالإحباط. لم يعد بكامل طاقته، يستقبلني بربع طاقة، ووجه حزين، وابتسامة مخادعة. وأتساءل دائمًا، كيف يستطيع كميل مجالسة الشّبيحة والقتلة؟ رأيتهم في عيادته يا نسيم أكثر من مرّة! رجال بعضلات منفوخة وأكتاف عريضة ونظرات يشوبها الشرّ محاذيًا للخوف. هل رأيت الشرّ مرّة يمشي بمحاذاة الخوف؟ لقد رأيته في أعينهم الجريئة بنظراتها، والوقحة في تحديقها بالآخر.. أيّ آخر لا فرق. كيف يستطيع كميل مجالستهم والإنصات إليهم؟ هل يقولون له إنّهم قتلوا؟ هل يحكون عن تلذّذهم بتعذيب الأجساد؟ هل يحمل أحدهم رائحة فؤاد بين يديه؟ لماذا يأتون إلى كميل؟ هل لديهم متّسع من الوقت وفائض من المال؟ هل يرسلونهم ليعرفوا كيف يعذّبون ويهينون؟ هل يحتاجون لتدريبات على ابتداع الإهانة وإخراجها من أفواه من يقع بين أيديهم وتحت أرجلهم؟ ها أنا أتخيّل حفلات التعذيب من جديد. ولم أجرؤ على سؤال كميل عن قدرته تلك على مجالسة من يقفون على حافّتيْ الهاوية. كيف يحكي مع المجرم ومع الضحيّة؟ أيساوي بينهما؟ أيتعامل معهما بحياد ومهنية؟ أيمنحهما جرعة الثّقة بالنفس ذاتها؟ أيساعدهم على القتل كما يساعدنا على النجاة؟

هل كنت ستحتمل الجلوس في تلك العيادة التي التقينا فيها للمرّة الأولى، إلى جانب منفوخ العضلات؟ هل ستستطيع ممارسة شرودك العميق الذي يجعلك تحدّق بأحدهم دون تقصّد؟ هل سيسايرون شرودك لو صبّ في نظراتهم التي يشوبها الشرّ محاذيًا للخوف؟

اشتقت إليك، إلى أنفاسك المتقطّعة من شدّة القلق. اشتقت إلى رائحتك الطالعة من زفير أنتمي إليه. لم أقل لك يومًا وأنت تتفلسف عليّ في مسائل الانتماء، إنّ رائحة زفيرك شكل من أشكال انتمائي إلى جسدي، وإلى الدم الذي يحمل إلى عروقي تلك الذرّات الأليفة من رائحة جسدك.

هل تذكر آخر مرّة استلقيت فيها إلى جانبك؟ هل تذكر كيف قبّلتني بحذر، وكأنّني شخص غريب؟ هل تذكر كيف كنت مهجوسًا بأشخاص وهميّين، يراقبوننا من خلف ستائر غرفتك، ومن الضوء الصغير المتدلّي من السقف، ومن فتحات خزانة ملابسك المرتّبة بعناية؟ هل تذكر كم من مرّة أعدت ترتيب المكتبة الضخمة في الصالون بحثًا عن كاميرا صغيرة مزروعة هناك؟ لم أقل لك حينها إنّها ببساطة، وبتعقيد أيضًا، مزروعة في عقلك، ولا أثر لها بين الكتب. لم أقل لك إنّني تمنّيت مرّات ومرّات أن أعثر عليها وننهي الأمر. ومرّة فكّرت في أن أشتري واحدة لأضعها بين الكتب، أو لأعلّقها في السّتارة، فأنتزعها وأنتزع مخاوفك. لكنّني عدلت عن الفكرة، إذ فكّرت في أنّني سأعزّز بذلك مخاوفك. سأساعدك في تكريس فردانيّتك. ألم نتّفق مرّة على أنّ حياتنا في هذه المدينة الموحشة والصعبة، جعلنا مع مرور الوقت نعتقد أنّنا أشخاص مهمّون؟ كانت الأنا تأخذ في التضخّم ونحن نسير في الشارع مختالين بأنفسنا. كلّ فرد منّا يعتقد أنّه ملاحق، وأنّه يمثّل مسألة كبيرة بالنسبة إلى أجهزة المخابرات. لم أشأ أن أساعدك على تكريس تلك الفردانيّة. لكنّني سايرت قلقك لأرتاح، ورحت أعيد ترتيب المكتبة مرّات ومرّات. هل تذكر تلك القبلة الحذرة؟ ماتزال تؤلمني. كان أثرها على شفتيّ كما الصفعة. وأراها في المنام كثيرًا. أراني متمدّدة بالقرب منك. أتأمّل ملامحك وعينيك. أتأمّل

خوفك وذلك القلق الصافي الذي لا تعكّره أيّ طمأنينة. ثمّ أراك تقول لي من الخوف: «سُليمى، هل أنت ضفدعة؟». أنظر إليك وأقول: «كلا.. كيف أكون ضفدعة وأنت حبّة برتقال؟». وأنا أعرف أنّك تكره رائحة البرتقال. فأراك برتقالة ضخمة يعلوها رأس، هو رأسك. تروح تشمّ جسدك البرتقالة، وتكرّر كالببغاء: «متدايق من ريحتي، متدايق من ريحتي، متدايق من ريحتي». تلك الجملة تروح تتكرّر في الحلم، حتّى يصعب عليَّ عندما أستيقظ معرفة إن كنت تردّدها وحيدًا، أم أنّني ردّدتها معك إلى مالانهاية.

«كنت أقضي عطلة الصيف في الضَّيعة، لوحدي من دون والدَيّ. ثلاثة أشهر أو أقلّ بأيّام. ويتكرَّر المشهد ذاته في كلّ مرَّة. أوَّل يوم، هو أصعب يوم. ما إن يهبط الظّلام ويصيح الجامع الملاصق لبيت جدِّي بأذان العشاء، حتَّى يتسربل قلبي بالسَّواد وأشتاق إلى والدَيّ، وأطلب من عمَّتي بإلحاح أن تعثر على طريقة لإعادتي إلى دمشق. تبتسم عمَّتي وتطلب منِّي التريُّث حتى صباح الغد، لأنَّها تعرف جيِّدًا أنَّني لن أتطرَّق في اليوم التالي إلى الموضوع. بل إنَّني مع مرور الأيَّام والأسابيع، سأحصي كلّ ليلة من اللَّيالي المتبقية لي، وسأبكي، لأنّ الوقت يمرّ سريعًا. اعتدت الاتِّصال ببيتنا كلَّ مساء. والاتِّصالات كانت حينها صعبة ومعقَّدة للغاية. لم يكن ثمَّة خطّ مباشر بين دمشق وباقي المناطق. أتَّصل بعاملة الهاتف (السانترال). أطلب منها أن تتَّصل بـ (٤٢٣١١٦) وأغلق السَّماعة. عاملة الهاتف تتَّصل بدورها بهم، وتعيد الاتِّصال بي عندما تسمع رنين هاتف بيتنا. وكنت أنتظر أمام السمّاعة دقائق طويلة، وفي بعض الأحيان تمرّ نصف ساعة أو ساعة، فأعيد الاتِّصال بها لتقول لي بضجر: «مَ حاول، مَ حاول.. الخطوط مانا مَ تعلّق».

خيارات اللَّعب في الضَّيعة محدودة بالشارع، والشارع لا حدود له. نرحل كلَّ صباح عن منازل أهلنا، ولا نعود قبل أن تغرب الشمس. نمشي في شوارع الضَّيعة صعودًا ونزولًا ندخل إلى المزارات الكثيرة المنتشرة. وفي كلّ مرَّة، نعثر في المزار على أحجية ما. كورقة بيضاء كتبت عليها آيات من القرآن، وتحتها يُطلب ممن تقع عيناه على تلك الورقة أن ينسخها مئة مرَّة، أو سيصاب بالشلل! لم ننسخها ـ أصدقائي وأنا ولا مرَّة واحدة. إلَّا أنَّنا كنَّا نتسلَّى بأن نحضر الورقة معنا إلى بيت

آسيا، وهي صبيّة في الثلاثينيّات، تربطها قرابة ما بجدّي. آسيا تلك، كان اسمها في مخيَّلتي مطابق لشكلها، لا أعرف كيف. لم أكن أتصوَّر لها إسمًا آخر غير اسمها. طويلة القامة ونحيلة إلى حدّ مخيف. بشرتها بيضاء شفّافة، وشعرها الطويل والناعم فاحم السواد، لم أره يومًا إلّا مربوطًا بشريط أخضر. كانت آسيا متطيِّرة إلى حدّ بعيد، وتؤمن بكلّ ما يصل إلى أذنيها من دون أن تفكِّر ولا للحظة واحدة بصحّته. كانت تؤمن بأنَّ من يستحمّ ويخرج من بيته، يموت! تؤمن بأنَّ من يستخدم المقصّ بعد فلول الشَّمس، يصاب بالنَّحس بقية حياته. كنّا إن أخبرناها بأنّنا شاهدنا غولًا، صدَّقت وآمنت وخافت، وارتعدت أوصالها، ولازمت بيتها لأيّام. نركض من المزار إلى بيتها، نستلّ الضحكة من اللّهاث. نطرق بابها. تفتح لنا مرحِّبة كعادتها. كرمها كان استثنائيًّا، نظرًا لأوضاعهم المعيشيَّة الصعبة. تفتح براد البيت وتخرج كلّ ما يمكن للصغار أن يلتهموه، بعد يوم طويل من اللَّعب والركض. وهي لم تكن تعلم ماذا نخبِّئ لها. بعد دقائق نطلعها على الورقة. تقرأها كاملة وتشهق. تندم لأنَّها قرأتها. ونرحل. تظلّ آسيا حبيسة بيتها، حتّى تنتهي من نسخ الآية لمئة مرَّة، كي تنجو من الشلل. لم تتزوَّج أسيا. ماتزال عازبة حتى يومنا هذا. لا أعرف إن كانت قد سمعت في طفولتها أنَّ الزواج سيقتلها.

في الضَّيعة، كنت أنفلت من كلّ قيود يمكن تصوُّرها. وذلك الانفلات لم يكن سوى منافسة غير معلنة مع أمِّي. يعتقدون أنَّها تكبِّل حرِّيَّتي وتحرمني لا بدّ من اللَّعب ومن النزول إلى الشارع والاختلاط بالآخرين. فهي من جهة، نظيفة إلى حدّ المرض، هذا ما يردِّدونه أمامي دون حرج: «موسوسة كتير». ومن جهة أخرى، هي ابنة دمشق العاصمة، وبالتالي ليس اللَّعب في الشارع ضمن تصوُّرها عن الطفولة، مع أنَّها

كانت تقضي يومها في اللَّعب في حارتهم، إلَّا أنَّ «زمانها غير زمانيّ».. في كلامهم المتحامل، بالتأكيد شيء من الصحَّة. فأنا كنت أقضي نهارًا كاملًا من اللَّعب بفستان أبيض، يظلّ ناصع البياض حتَّى آخر اللَّيل! كنت مصمِّمة على عدم الاقتراب من كلّ ما من شأنه تعكير نظافتي. أذكر أنَّهم كانوا يتداولون نكتة في الضَّيعة حول إدماني على ابتلاع الصابون. فأنا بين السَّابعة والتاسعة من العمر، كنت مدمنة على ابتلاع رغوة الصابون. أغسل يديَّ جيِّدًا وأرغي الصابون، ثمَّ ألتهم الرَّغوة بشهيَّة كبيرة. كانوا يقولون إنَّ «وسوسة» أمِّي أودت بي إلى افتراض أنَّ الصابون يعقِّم أمعائي!

مرَّة، جاءت أمِّي إلى الضَّيعة في زيارة مفاجئة. وأنا كان قد مضى على وجودي في الضَّيعة، أكثر من شهر، وقت كافٍ لتصميم طفل آخر. أذكر صدمتها. أظافري مطليّة بالأحمر وغرّتي مرفوعة بالدبابيس كالديك (ستكون تلك موضة السَّنوات اللاحقة!). غرّة منتصبة كالجبل فوق مقدِّمة الرأس. أستخدم مفردات غريبة عنها. منفلتة من كلّ قيد أو شرط أو معيار. لم تقل شيئًا، لكنَّ نظراتها كانت كفيلة بجعل الغرّة تسقط من تلقاء نفسها، مهزومة. أرجعتني معها إلى دمشق وأرجعتني إلى صوابي، من وجهة نظرها.

تحكي لي أمِّي أنَّني كنت في السَّادسة من العمر أو السَّابعة، عندما اصطحبتني معها إلى محلّ صديقها الصائغ، تريد شراء هدية لصديقتها بمناسبة إنجابها طفلتها الأولى. كنت أرتدي فستانًا مخملًا نبيذيّ اللَّون، وعلى رأسي قبَّعة باللَّون نفسه. جلست على كرسيٍّ طويل، قماشه خمريّ أيضًا. فقال لها الصائغ: «ما شاء الله بنتك متل الأميرات». فجأة، وكانا منهمكين باستعراض الأساور والخواتم، سمعا صوتًا ناعمًا يقول: «أمِّي، أفي مْوَيْ؟». وكنت أنا العائدة حديثًا من عطلة الصيف

أريد ماء، فطلبته باللَّهجة العلويَّة. تقول أمّي إنَّ البائع ذُهل، وراح يبحث عن مصدر الصوت، لم يصدِّق أنَّني المتحدِّثة. تلك الحادثة تحمل تاريخًا من التنميط من جهة، ومعاناة ملايين من الأفراد، صارت اللَّهجة وحدها كفيلة بإطلاق شرارتها. ثمَّ إنَّ طرافة القصَّة تخرج من بؤسها. إذ إنَّ اللَّهجة كانت نقيضًا للفستان المخمل نبيذيّ اللَّون، ونقيضًا لصفة «الأميرة». تلك اللَّهجة لا تليق بأبناء وبنات المدن الكبرى، المتأنِّقين بطريقة تجعلهم منحدرين من قصور، وليس من قرى منسية مترامية على أطراف الساحل. وهذه الفرضيَّة تجعل من كلّ متحدِّث باللَّهجة العلويَّة، فلاحًا بالتأكيد، ومن كلّ متحدِّث بلهجة دمشقيَّة أو محايدة، مدينيًّا بالضرورة. وليس الأمر ببساطة فستان مخمل نبيذيّ اللَّون ترتديه «أميرة» صغيرة جالسة على كرسيّ مخمل يحمل اللَّون ذاته. بل الأمر معقَّد كصناعة الفستان المخمل، منذ لحظة اختيار القماش النبيذيّ إلى تصميم الشكل، إلى الحياكة والتطريز وكلّ المهارات المرافقة لإنجازه بشكله الأخير وتجهيزه للبيع. فلم يكن هناك أيّ داعٍ لتسمية اللَّهجة باللَّهجة العلويَّة، على سبيل المثال. كان كافيًا القول إنَّ فلانًا يتحدَّث بالـ«لهجة»، ليفهم الجميع أنَّ المقصود هو اللَّهجة العلويَّة. لأنَّها اللَّهجة الوحيدة التي تحمل عبء سنوات طويلة على ظهرها. تلك اللَّهجة القادرة على تحويل رجل بسيط ومهمَّش ومظلوم إلى سلطة تختال بمشيتها، طاعجة خصرها، وسط دمشق، متحدِّية سلطات شرطة السَّير والموظَّفين الحكوميِّين والمارّة والباعة، وكلّ فرد آخر لا يتقنها. اللَّهجة كانت هويَّة. وليست أيّ هويَّة، إنَّها هويَّة السُّلطة المطلقة وهويَّة الظالم والمتجبِّر. هويَّة الرُّعب والهلع والمجهول. من يتحدثها بإتقان، يختصر وقتًا وجهدًا وطاقة، يتطلَّبها العيش في بلد كسوريَّة الأسد.

ثمَّ إنَّ اللَّهجة أو سلطتها تشوَّهت مع الوقت، وأخذت بالتضاؤل. فلم يعد ضروريًّا إتقان اللَّهجة كلّها، بل حرف القاف وحده يكفي لإثارة الرعب، لاستحضار تاريخ من الظلم في لحظة واحدة، مجرّد لحظة إطلاق القاف. وصارت مفردات بذيئة مثل «ولاك» أو «كرّ» أو «حيوان لايا»، «يا مية قرد» أو «اللّـه جعل أيري بقوطا لإمّك»، وحدها تختصر لهجة مجموعة من البشر ينتمون إلى طائفة معيَّنة. ولم أعرف حتَّى الآن جذور اللَّهجة الغرائبيَّة التي يتحدَّثها العلويُّون. بعض المصطلحات مأخوذة عن التركيَّة والعثمانيِّين. مثل «الخاشوقة» وهي تعني الملعقة. لكنَّ تعابير أخرى يصعب العثور على مصدرها.

مرّة، سأل قريبي المهندس المعماريّ، الذي لم يزر الضَّيعة كثيرًا، جدّته (وهي أخت جدَّتي خديجة وتوفيت قبل سنوات طويلة): «ستّي، ليش بيسمّوا بابا الجكجوك؟». الجكجوك كان لقب والد صديقي في الضَّيعة. فما كان من جدَّته إلَّا أن قالت له: «عشتو يوقا شلش». ارتبك صديقي ولم يفهم ولا كلمة واحدة. إجابتها كانت أصعب ممن يفسّر الماء بالماء. راح يستفسر عن كلّ مفردة على حدة. (عشتو: لأنَّه، يوقا: كان، شلش: مشلوش أو مستعجل أو منهمك). وعندما كانت ابنة عمَّتي تهمّ بإبداء إعجابها بشيء ما، تقول: «أمان، ما أحلاه». تلك الـ«أمان»، ماخوذة عن التركيَّة أيضًا. أمَّا الدهشة، فيتمّ التعبير عنها بـ«أيلي»، مع مدّ الياء إلى «الأبد». يمدُّونها حتَّى ينقطع الزفير، كالغطس تقريبًا. أمَّا في لحظات السُّخريَّة من ادِّعاءات الآخرين، كادِّعاء فقير بأنَّه سيصبح ثريًّا خلال فترة وجيزة، أو كادّعاء امرأة متوسّطة الجمال بأنَّ كلّ شباب الضَّيعة يتمنّون الارتباط منها، تأتي عبارة: «إي وشتالله»، مع تفخيم الأحرف، فتلفظ التاء قبل الله، طاء «إي وشطالله». ما النافية غير موجودة في اللَّهجة. بدل قول:

«ما فيني» أي لا أستطيع، يقال: «أفيي». (ما بقدر: أبقدر، ما رح روح: أبدي روح، ما بقلك: أبقلك). أمّا الحروف الأخيرة من الكلمات، فهي غالبًا ما تحتجب. البيت يصبح البي مع الاحتفاظ برنّة الباء قبل الياء، باء مكسورة ومنتهية بهمزة على السطر غير مرئيّة «البيء». صديقي كان يمازحنا قائلًا: «تروحوا عالبي، نقلي بي؟» رنّة الباء وحدها تميّز في هذه الجملة بين البيت والبيض. الأولى خفيفة والثانية مفخّمة.

الأمر الآخر الذي لم أعرف مصدره، هو الميل نحو الفصاحة في حديث موجّه لأشخاص مهمّين (شخصيّات عامّة). ما إن يجلس علويّ مع شخص عامٍّ حتّى ينمّق مفرداته، ويعمل جاهدًا على لفظ معظم الكلمات بالفصحى. أذكر أنَّ إبن عمّ والدي، وكان ضابطًا في الجيش برتبة صغيرة، اتّصل بنا، أمّي وأنا، ولم نكن في البيت. أراد الاطمئنان علينا بعد رحيل بابا بأشهر قليلة. بعد أن رنَّ الهاتف مرّات ومرّات، اشتغل المجيب الآلي. افترض أبو جميل مسبقًا أنَّ محادثة الآلة الصوتيّة يتطلّب فصاحة معيّنة، فترك لنا الرّسالة التالية بالحرف: «اتّصلت بكنّ، فلم أجدكنّ، وددت الاطمئنان عليكنّ، عاودن الاتصال بي متى استطعتنّ إلى ذلك سبيلًا، أبو جميل». وأذكر هنا نكتة تحكي عن ضابط لا يرغب بلقاء ضيوف من غير الطائفة العلويّة. فطلب من المجنّد أن يضع على الطاولة أمامه زجاجة ماء، ويسأل كلّ ضيف: ما هذه؟ إن أجابه الضيف قنّينة مي بلفظ القاف، يسمح له المجنّد بالعبور إلى مكتب الضابط. أمّا إن قال له الضيف: «قنينة ميّ» مستبدلًا القاف بالألف لتصبح «أنّينة ميّ»، فيقول له المجنّد إنّ الضّابط مشغول ويقوم بصرفه. ثمّ دخل المجنّد إلى غرفة الضابط، وقال له: «سيّدي، في واحد قلي هي زجاجة، ما عرفت شو أعمل، بخليه يفوت؟» فضحك الضابط منتشيًا وقال له: «فوّته فوّته هاد مثقّف من جماعتنا».

سلطة اللَّهجة ليست وحدها من يمسك بالطائفة، بل «القدرات» شبه «الإلهيَّة» التي يمتلكها المشايخ في تلك القرى. أذكر أنَّني شكوت لجدَّتي في إحدى تلك الإجازات الصيفيَّة، من بقعة حبوب أو أكزيما في ذراعي عند منطقة الكوع. فما كان من جدَّتي إلَّا أن أرسلتني إلى زوج أختها (جدّ صديقي المهندس المعماري)، وهو أحد مشايخ الضَّيعة المرموقين. قالت لي إنَّه سيكتب لي حجابًا أعلِّقه بملابسي فتختفي الحبوب. زرته مع إبنة عمَّتي الصغرى، تلك التي تمتلك صوتًا «فاجرًا» يجعل عمَّتي تقدِّم كلّ التنازلات فقط كي تسكتها. دخلنا إلى غرفته المعمَّرة في «حاكورة» بيت إبنه وعائلته. كان يأكل وجبة الغداء وفمه معبّأ ببقايا طعام. شرحت له مرضي. فما كان منه إلَّا أن بصق على قطعة قماش، ومسح ذراعي بلعابه الممزوج بفتات طعام. ثمَّ كتب لي حجابًا، وطلب منِّي أن أضعه تحت الوسادة. ولم تختف الأكزيما حتَّى اصطحبتني أمِّي إلى طبيب أمراض جلديَّة في دمشق.

لم يترك لي بابا عائلة قبل رحيله. كان هو العائلة بأكملها، ورحل. ترك لي أمَّه وبيت طفولته، والكثير من الكتب والأوراق ودفاتر مذكَّرات وصورًا وأقلامًا».

وماذا ترك لي نسيم غير الكتب والأوراق ودفاتر المذكّرات والصُّور والأقلام؟ ترك لي نعوات أيضًا، وبيتًا لا يشبه البيت الذي أمضينا فيه عمرًا. أمّي لم تسألني عنه ولا مرّة واحدة. كما أنّها لا تسأل عن فؤاد. وكأنّها تفترض أنَّ قدر الرّجال، في هذه الحرب، هو الاختفاء، إن كان على جبهات القتال أو في السجون أو المنفى. لم تكن تسأل عن رجال عرفناهم منذ زمن. تسأل عن النّساء فقط. غريبة أمّي! لو أنَّ أبي مازال على قيد الحياة، لانفصلت عنه بالتّأكيد. فهو لن يقاتل في هذا العمر، ولن يتمكّن ربّما من اتّخاذ موقف واضح وعلنيّ، وهي لن تقبل البقاء مع رجل اختار الاختباء بدل الاختفاء. أمّي التي فقدت ابنها الوحيد، تبدو فخورة للمرّة الأولى في حياتها. ابنها الذي ضاع، أعاد لها معنى الحياة والوجود والاستمرار في العيش والبقاء لأيّام أو أسابيع بين دفّتي كتاب أمام الصفحة ٢٤ تحديدًا. لا أعتقد أنّها أحبّت نسيم. وجدت فيه نسخة مصغّرة عن زوجها الطبيب، الذي ترك أهله وهرب من الخوف. زوجها كان يهرب من الخوف، يبتعد عنه قدر الإمكان، يعيش على هامش الحياة خوفًا من أن يخاف. ونسيم يخاف من الخوف، فيستحضره ويغوص فيه، إلّا أنَّ النتيجة واحدة.

أتذكّرها عندما جاءنا نسيم فجأة في موعد الغداء. طرق الباب بقوّة من يريد أن يقتل أو يتعارك أو يعتقل في أفضل الأحوال. ركضتُ ملهوجة إلى الباب. أمّي لا تتأثّر بتلك الأصوات الخارجة من أمكنة مظلمة في الذاكرة! تدهشني كانت بانفصالها عن تلك الأكوام من المشاعر التي تفجّرها عناصر خارجيّة، كطرْق عنيف على الباب، أو كرنين الهاتف منتصف اللّيل، أو كصوت انفجار! لا تتأثّر ولا تصاب بالهلع مثلي، مع أنَّ ذاكرتها التي تكبرني بثلاثين سنة، تجيز لها ذلك الخوف. يومها، ركضتُ إلى الباب، وأمّي ظلّت جالسة أمام صحن شوربة العدس، تحتسي منه على مهل، وكأنَّ العمر كلّه

مفتوح أمامها ريثما تنتهي من وجبة الغداء. فتحت الباب لأجد نسيم واقفًا بصعوبة، يتنفَّس بسرعة، والعرق يتصبَّب من جبينه ومن مسامات جسمه كلّها، فيترك أثرًا داكنًا تحت الإبطين وعند ثنيات البطن وعلى الظهر. قال لي إنَّه يموت. وأمّي ظلَّت جالسة أمام صحنها بلا اكتراث يُذكر. مدَّدته على كنبة الصالون، وأحضرت له كيسًا مملوءًا بقطع الثلج، وضعته على جبينه، كما طلب منّي بالضبط. فجأة، يستعيد نسيم مهنته كطبيب، ويروح يملي عليّ ما يجب فعله في لحظات كهذه. البرودة اللّاسعة تكبح إيقاع نبضات قلبه المتسارعة، على حدّ تعبيره. أغمض عينيه، وكلمات تخرج من فمه متلعثمة ببعضها بعضًا. قال إنَّه يموت وإنَّه خائف وإنَّه لا يريد أن يموت الآن، ليس مستعدًّا لذلك. وأنا رحت أتساءل إن كان الإنسان يستعدّ حقًّا لموته. هل القصص المرافقة للجنازات وجلسات العزاء صحيحة إذًا؟ في كلّ جلسة عزاء، أسمع القريبين من الميّت يحكون كيف أنَّه للمرّة الأولى في حياته يودّع أهله لدى الخروج من البيت، وكأنَّه يعرف أنَّها ستكون المرّة الأخيرة! وغالبًا ما تحاك تلك القصص وتحكى عن ميّت شابّ، وليس كهلًا. لأنَّ الكهل لن يشعر باقتراب موته، فهو يعيش ذلك الدنوّ كلّ لحظة من يومه حتّى يحين. أو أنَّ الميّت قبل رحيله يروح يحكي مع آخرين غير مرئيّين بالعين المجرَّدة. الآخرون ليسوا من عالم الأحياء في طبيعة الحال، بل والده مثلًا الذي توفّي من سنوات، أو أمّه الراحلة، أو صديق عمره المتوفّى. يروح يكلّمهم لأنَّهم يدخلون غرفته وينادون له كي يلتحق بهم وينتقل من عالمنا إلى عالمهم. موحشة هي تلك القصّة، وتزيد من وحشة الموت. ونسيم راح يحدّثني عن عدم استعداده للموت. وماذا يعني أن يستعدّ للموت؟ كيف يمكن للمرء أن يستعدّ لموته؟ ثمَّ نهض وراح يدخل إلى غرف البيت واحدة تلو الأخرى. يقول إنَّه يبحث عن شيء ما، وكأنَّه

يبحث عن روحه التي خرجت للتوّ من جسده خائفة، مخنوقة في جسد أصابته نوبة هلع. كالمجنون، يركض من غرفة أمّي، إلى غرفتي، إلى غرفة فؤاد، إلى الحمّام. يفتح «الحنفيّة»، ويضع رأسه تحت دفق الماء، ويقول إنَّ الماء ليس باردًا بما يكفي ليتنفَّس! وهل يتنفَّس تحت الماء كالأسماك؟ ثمَّ ينشّف وجهه وينتقل إلى الصالون، يعاود التمدُّد على الكنبة الطويلة، يأخذ كيس الثلج الذي تركته على الطاولة الخشبيَّة، ورحت ألاحقه من غرفة إلى أخرى. يضع الكيس على رأسه وجبينه ووجنتيه. ثمَّ لا يكتفي، فيفتحه ويأخذ قطعة ثلج. يمرِّرها على بطنه، فتذوب من حرارة جسمه، ويسيل ماؤها على قماش الكنبة الحمراء فيصبح داكنًا. ويغرق نسيم بماء عَرَقه وبالثلج الذائب وبالخوف المتصاعد بوتيرة منتظمة، إلى أن يصل إلى القمَّة، فينزل درجة درجة ببطء مغيظ. كان يخبرني كيف أنَّ الخوف يأتيه دفعة واحدة، يتسلَّل إلى جسمه عبر الوريد (نسيم يكثر من التشبيهات الطبّيَّة)، أيَّ أنَّه أسرع من رمشة عين. إلَّا أنَّه لا يتلاشى إلَّا ببطء مغيظ. يأخذ متَّسعًا منهِكًا من الوقت.

ثمَّ يهدأ نسيم. وأمّي ما تزال جالسة أمام صحن شوربة العدس تأكل ببطء وكأنَّ شيئًا لم يكن. يومها، جاءت أمّي إلى الصالون بعد أن أنهت طعامها، وبعد أن هدأ وعادت الرُّوح إلى جسده المنهك. جلست قبالته. نظرت في عينيه، وقالت بنبرة خافتة: «تغدَّيت نسيم؟» لم يجبها نسيم، لكنَّه اعتذر عن هذه الزيارة المفاجئة، وشكرني على الاهتمام ورحل. لم تنتظر أمّي حتّى يغلق الباب، واكتفت بجملة تختزله بها دائمًا: «مسكين نسيم». أيكون نسيم هو نفسه الطبيب سفيان في مشفى الشامي؟ فنسيم كان يعمل في المشفى نفسه، ويشكو من الموت الذي يصادفه كلّ يوم في الممرَّات وفوق الأسرَّة وفي غرف العمليّات. يقول لي إنَّ للموت رائحة.

يشمُّها ما إن يفحص أحد المرضى الذين غادروا الحياة للتوّ. قال لي إنَّ مريض سرطان سكن في المستشفى شهرًا كاملًا قبل أن يموت، وكان برفقة زوجته. دقائق قليلة قبل منتصف اللَّيل، خرجت زوجته من الغرفة، واتَّجهت إلى الكونتوار حيث يجلس الأطباء والممرّضون المناوبون، طلبت من نسيم مرافقتها إلى غرفة زوجها. دخل فوجده مغمض العينين. قالت له: «راح؟» نعم، أذكر المصطلح كأنَّه اليوم، «راح». استخدم مصطلحها ومصطلح بطلة روايته. فحصه نسيم، فكان مايزال النبض يدقّ في شرايينه ببطء وهشاشة. رفع نسيم رأسه أن لا فاستبْقته الزوجة بضع لحظات، وكانت تهمس في أذن زوجها كلمات لم يستطع نسيم التقاطها. فتح زوجها عينيه وابتسم بمشقَّة، ثمَّ نفخ جرعة زفير مقتضبة وأعاد إغلاق عينيه. نظرت الزوجة إلى نسيم، وطلبت منه أن يفحصه من جديد. اقترب نسيم منه وشمّ تلك الرائحة الغريبة، رائحة الموت، وكان متأكّدًا من أنَّ الزَّوج «راح» من دون أن يلتقط نبضه. إلَّا أنَّه وضع السَّماعة على صدره، وانتبه إلى أنَّ النبض توقَّف تمامًا، صمت مطبق. «راح» الزوج. يقول لي نسيم، الذي يخاف من الماء، إنَّ الموت برأيه يشبه إلى حدّ كبير لحظة الغوص في البحر، عندما تختفي كلّ الأصوات الخارجيَّة ويبقى صوتٌ داخليّ عميق. إنَّه الصمت. صمت عميق لن يعكّره شيء. لم يقل لي نسيم إنَّ للراحل بنتًا كانت في الرَّابعة عشرة، ومازالت!

«كانت أمِّي جالسة في غرفة الانتظار بصحبة صديق لنا. يدخِّنان بصمت. غرفة الانتظار ليست محاذية لغرفة والدي، ولا أبواب تفصلها عن كوريدور المشفى والغرف المتوزِّعة حوله، والتدخين هناك كان مسموحًا ذلك الحين. فجأة، قطعت أمِّي صمتهما، وأعطت لصديقهما سيجارتها واستأذنت للحظات. هي أعطته السِّيجارة، لأنَّها ظنَّت لا بدّ أنَّها ستتغيَّب لثوانٍ قليلة. تحكي لي أمِّي كيف أنَّ صوتًا عميقًا كان يناديها. عرفت أنَّ زوجها يناديها تلك اللَّحظة، من دون حتَّى أن تنفرج شفتاه ولو قليلًا ليتفوَّه باسمها. دخلت إلى الغرفة وكانت مملوءة بالأصدقاء، يحيطون بسريره. اقتربت منه، فابتعدوا خطوات، ووقفوا قبالة السَّرير. جلست على الحافَّة، وراحت تمسِّد رأسه. فتح عينيه بتثاقل ونظر إليها. انحنت فوق رأسه وهمست في أذنه اليسرى: «روح حبيبي. أنا معك.. روح يا قلبي». فابتسم لها ابتسامة مقفلة وأعمض عينيه. نظرت أمِّي إلى سفيان وسألته: «خلص؟ راح؟». اقترب سفيان، وراح يلمس الرسغ ليلتقط النبض، فعثر عليه. رفع رأسه بالنفي. دنت منه من جديد. همست له في الأذن ذاتها: «حبيبي.. روح حبيبي خلص.. أنا معك». نظر إليها بعمق، وكأنَّه يعلِّق عينيه بعينيها إلى الأبد. كأنَّه يمنحها ذلك البريق قبل أن ينطفئ، يصبّه في عينيها لتكمل في أثره حياتها. ثمَّ عبس لحظة واحدة، ونفث زفيرًا عميقًا ورحل. نعم، لم يرحل والدي حتَّى طلبت منه زوجته الرحيل. كانا قد اتَّفقا قبل سنوات على أن تساعده على الرَّحيل عندما يحين موعده. ذلك الاتِّفاق راح يتجدَّد في كلّ مرَّة، وكأنَّه الهواء الذي يبقي والدي قادرًا على التنفُّس. وما إن تطلب منه زوجته أن يرحل، سيعرف أنَّ الرحيل هو السبيل الوحيد ولن يتلكَّأ».

ما كتبه نسيم حتّى اللّحظة، لا يشي بالجنون. ليس مجنونًا من يكتب هذه التفاصيل. أمّي تصرّ على أنَّ نسيم فقد عقله منذ سنوات كإصرارها على فقدانها ذاكرتها. فهي لن تنسى يوم جاء إلى بيتنا في الواحدة بعد منتصف اللّيل. استيقظنا أمّي وفؤاد وأنا. أمّي كعادتها لم يثر رنين الجرس بعد منتصف اللّيل قلقها، فيما هرعنا فؤاد وأنا ملهوجيْن، وفتحنا الباب لنجد نسيم واقفًا، وجهه شاحب وملامحه منداة بالخوف. طلب أن يبيت عندنا. قال إنَّ أصواتًا غريبة وصلته من الباب الخارجيّ وكان مستلقيًا في سريره. نهض بهدوء، واسترقَّ النظر من العين السّحريَّة فلم يعثر على أحد، لكنّه أحسَّ بأنَّ شخصًا أو أشخاصًا كانوا هناك ورحلوا. ارتدى ملابسه على عجل، فتح باب البيت بحذر، نزل الدرج طابقًا واحدًا، وركض في الشارع إلى أن عثر على سيّارة أجرة، فجاء إلى بيتنا. يقول بنبرة واثقة إنّهم يلاحقونه. وأمّي تتساءل من «هم»؟ نسيم لا يعرف من هم بالتّحديد. لكنّه واثق من أنّهم يراقبونه ويلاحقونه.

«مسكين نسيم، جنّ»، تقول أمّي ببساطة من يقول إنَّ الطقس بارد.

ثمَّ يتذكّر نسيم في زحمة التفاصيل المقلقة، أنّه لمح كيس زبالة أسود مكوّمًا على الأرض بجانب باب البيت، وأنّه تفاجأ به، ولا بدّ أن يكون رسالة أرادوا له أن يفكفك معانيها. رويت لنسيم ذات يوم كيف أنَّ والدي كان، على الرّغم من الصّورة المعلّقة في عيادته، ومن صمته المهين الذي لا تتردّد أمّي بتذكيره به كلّ لحظة، دائم الخوف من ألّا يصدّقونه! من هم؟ لا أعرف، لا نعرف، وأبي لا يعرف. إلّا أنّهم هم نفسهم من يدّعي نسيم ملاحقتهم له وتلصّصهم على تحرّكاته، ومراقبتهم لصوت شهيقه وزفيره في البيت، في السّرير، في الجانب الأيمن من السّرير، في تلك الرقعة الوحيدة التي يطلق عليها إسم الانتماء. إنّهم يعبثون بانتمائه. أبي كان يردّد: «ماذا لو لم

يصدّقوني؟» ماذا كان بإمكانه أن يفعل أكثر من الهروب إلى دمشق ومعالجة سكّانها، بدلًا من أهله في حماة كما تقول أمّي؟ ماذا كان باستطاعته أن يفعل أكثر من تعليق الصورة وراءه في الأعلى، في أعلى نقطة ممكنة؟ ماذا كان في استطاعتي أن أفعل لأحمي خوفه أكثر من مشاركتي في حفلات المدرسة للطلائع وشبيبة الثورة، واستخدام صوتي القويّ والواثق لأغنّي «أبو باسل قائدنا يا بو الجبين العالي»، و«سوريا يا حبيبتي أعدتِ لي كرامتي، أعدتِ لي حرّيّتي»؟ نعم لقد ردّدت لسنوات تلك الأغاني وناديت للكرامة والحرّيّة بصوتٍ عالٍ، دون أن أفكّر للحظة واحدة بمعنى تينك المفردتين! ألم يكن ذلك كافيًا لك؟ ألم أعفِك من أسئلة كانت لتكون بديهيّة حول الكرامة والحرّيّة والأراضي المحتلّة؟ حول دروس التربية القوميّة ومبادئ الحزب؟ حول الأستاذة التي اختفت من مدرستنا بعد أن جرجر ابنها البالغ من العمر خمس سنوات صورة الرئيس على الأرض من دون أن تنتبه له؟ كنّا نحتفل يومها بـ«الحركة التصحيحيّة»، والأغاني «الوطنيّة» تملأ فضاء الباحة وتصل إلى مسامع البيوت المحيطة، أعلام سوريا وحزب البعث تخفق في كلّ مكان، صور القائد الخالد تملأ الجدران، إلّا أنّها ثُبّتت على عجل، فما كان من ابن المعلّمة البالغ من العمر خمس سنوات إلّا أن انتزع واحدة مذيّلة بشريط فضّيّ برّاق، وراح يجرجرها وراءه على الأرض. اختفت المعلّمة من المدرسة، وسمعنا أنّها اختفت نهائيًّا!

ألم أتسامح مع قلقك ذلك اليوم متجاهلة تلك القصّة؟ هل تعرف أنّ مدرّبة الفتوّة (التربية العسكريّة)، استدعتني يومًا وكنت في صفّ العاشر، أدخلتني إلى مكتبها الذي يشبه عيادتك إلى حدّ بعيد، وسألتني: «سليمى أنتم من حماة، ماذا أخبرك والدك عن الأحداث؟» ما إن تسلّل سؤالها إلى أذنيّ حتّى صرتُ أنت. رأيتك تدخل إلى جسدي وعيناك

تتلألأن في عينيّ. كنتُ أنت، وأصابني مغص كان ليصيبك لو كنتَ أنا. وركبتاي أصابهما وهنٌ لن أنساه، وشعرت بضعف وهشاشة يا أبي. أحسست أنَّ حياتي التافهة محشورة في ذبذبات صوت المدرِّبة. قلت لها إنَّ «الأب القائد لوَّث يديه بالدم عن الشعب السوريّ كلّه». وانتظرتها لتعبس أو تبتسم برضا. فابتسمت لي، وطلبت منّي الانصراف. وأنا كم اشتهيت وقتها أن تصرخ في وجهي مثلًا، أن تصفعني، أن تركلني، أن تكتب تقريرًا موجّهًا إلى «القيادة الحكيمة» يودي إلى اعتقالك أنت وأمّي! أو لو أنَّها قالت لي: «برافو! أهلك عرفوا يربّوكي». لكنْ أن تبتسم مجرَّد ابتسامة مبهمة، فهذا حرمني من النوم لأيَّام طويلة وأنا أتخيَّل ما يمكن أن يحدث. وها أنا أتحدَّث مجدَّدًا عن الخوف من الخوف. انتظار الخوف أصعب من الخوف ذاته. السجن أسهل من الخوف منه. الخوف بحدّ ذاته أقلّ قساوة من الخوف منه. لكن هل فقد نسيم عقله فعلًا؟

«اتَّصلت بي صباحًا من رقم لبنانيّ. قالت إنَّها ستبقى في بيروت لأسبوع. جعلوا بيروت نقطة للقائهم، بعد أن مضى أكثر من عام على غيابهم بعضهم عن بعض. هي جاءت مع أمّها وأبيها وأخيها من دمشق. أختها الكبرى جاءت من دبي مع زوجها وأولادها. أختها الصغرى جاءت من ألمانيا مع زوجها. سيسهرون ليلة رأس السنة سوِيَّة في الفندق الرخيص منتصف شارع الحمرا، ليعودوا أوَّل يوم في السَّنة الجديدة كلّ إلى بيته. لم ألتقِ بهم كلِّهم منذ بداية الثورة. هذا لن ينسيني أنَّنا كنَّا نسكن الطابق الأوَّل ذاته في حيّ «مساكن برزة» لسنوات طويلة، وأنَّ البيتين كانا مفتوحين واحدهما على الأخر تقريبًا، وأنَّني كبرت معهم، وكانوا كالأخوات بالنسبة لي أنا الوحيدة تمامًا. القطيعة بيننا حدثت بصمت أيضًا، وبلا تصريح أو علنيَّة أو نقاش. هم كفّوا عن الاتِّصال، وأنا فهمت. ليس الفهم عصيًّا. لم تعد الأمور كما كانت قبل الثورة. والقطيعة باتت بديهيَّة، ولا تستدعي المحاولة للترميم أو الجهد لاستعادة ما كانت عليه. إلَّا أنَّها اتصلت وبادرت، وأنا أفرحني اتِّصالها بعد كلّ تلك السَّنوات. زرتهم في الفندق. غرفتان صغيرتان متجاورتان يتوزَّعون بينهما. ولم يكن من الصَّعب لزائر لا يعرفهم على الإطلاق ولم يسبق له أن التقى بهم، أن يحزر من منهم قدم من دمشق ومن منهم يعيش خارج حدود مدن الجنون السُّوريَّة. صديقتي وأمّها وأبوها وأخوها، يكسو أجسادهم نحول واهن، بينما كانت أختها القادمة من دبي، وتلك القادمة من ألمانيا مكتنزتين، وعلى وجنتيهما مسحة طمأنينة ملوَّنة بأحمر شفيف.

قدموا من دمشق ورفضوا بلطف أن نلتقي في مكان عامّ، بحجّة أنَّ مزاجهم غير رائق ولا يفضِّلون الجلوس في المقاهي. وأنا فهمت. ليس

الفهم عصيًّا. لم تعد الأمور كما كانت قبل الثورة. جلسنا كلُّنا في إحدى الغرفتين، وبذلنا جهدًا حقيقيًّا كي لا نتحدَّث في السياسة. إلَّا إذا اعتبرنا الحديث عن انقطاع الكهرباء وغلاء الأسعار وقذائف الهاون والحواجز والخوف، هي أحاديث سياسيَّة. هم لا يعتبرون تلك الهموم مرتبطة بالسياسة، بل بأسباب مجهولة، خفيَّة، مثلها كمثل المؤامرة. ثمَّ رحلوا كلّهم. هم الذين رفضوا أن نلتقي في مكان عامّ، لأنَّهم «لا يفضِّلون الخروج» باستثناء ياسمين، صديقتي. ياسمين فعلًا لم تكن بمزاج رائق، وبدت لهفتها واضحة لخروجهم كلّهم وبقائها معي وحدي. أعدَّت فنجانيْ قهوة في المطبخ الصغير المطلّ على الغرفة. لم أقل لها إنَّني لا أحتسي القهوة مساء. لامسني إحساس غريب بأنَّ كلّ ما قد أقوله من رغبات أو طقوس أو مزاج ليس سوى ترف لا داع له. أشعلنا سيجارتين، وكان الحديث ثقيلًا في البداية، وكأنَّنا نتعرَّف واحدتنا على الأخرى، وكأنَّ فيض الذكريات المشتركة راح دفعة واحدة مع بداية الثورة. أو أنَّه راح يتساقط في الطريق إلى بيروت منذ العام ٢٠١١، ولم يتبقَّ منه اليوم أيّ شيء. رحت أسألها عن عملها وهي تجيب باقتضاب ولهجة لا تخلو من المجاملة: «الحمداللّـه ماشي الحال، عايشين». شيئًا فشيئًا، صار الحديث أكثر طراوة. حكت لي ياسمين كيف أنَّ راتبها لا يتجاوز المئتي دولار، وأنَّها تنفق معظمه في المواصلات العامَّة، بين بيتها الكائن في «مساكن برزة» وعملها في منطقة «الفردوس». قالت إنَّ ما يتبقَّى لا يكفي لفنجان قهوة في إحد المقاهي، أو لشراء ملابس أو حاجات ضروريَّة. قالت إنَّها استطاعت الشهر الماضي أن تحتفظ بخمسة آلاف ليرة سوريَّة، وكانت في السَّابق تعادل مئة دولار. أمَّا اليوم، فبالكاد تعادل عشر دولارات. أرادت أن تشتري كولون صوف ترتديه تحت التَّنانير، الملزمة بارتدائها كزيّ موحَّد في شركة الطيران التي تعمل

فيها منذ أكثر من عامٍ.. فكان سعره ثلاثة آلاف!! راحت تروي لي كيف أنَّها تمضي النهار في إنجاز حجوزات من دمشق إلى بيروت ودبي ومصر للزبائن الكثر القاصدين شركتهم الخاصَّة، بعد أن تقلَّصت أعداد طائرات «الأسطول الجويّ السُّوريّ» لتصل إلى طائرة واحدة فقط! تقول إنَّها تمسك بين يديها طول النهار جوازات سفر وبطاقات طائرة وحجوزات فنادق، من دون أن تحلم مجرَّد حلم بالخروج من ذلك المستنقع البائس. ثمَّ رحت أجرِّب أن أجعل حديثنا أكثر عفويَّة كما في السَّابق، فسألتها إن كانت ماتزال تبكي!؟ قبل الثورة، كانت ياسمين تأتي إلى بيتنا مع حقيبة صغيرة، حيث تمضي عندنا أيّامًا أو أسابيع. في بيتهم، كانت تشعر بالغربة. وأنا، لا أعرف من أين تأتي الغربة تلك. فهي تشبههم إلى حدّ بعيد، وهم يشبهونها. إلَّا أنَّها تعيش غربة دائمة، وكأنَّ روحها وُلدت في الجسد الخطأ؛ وكأنَّها تنتمي إلى ذلك البيت وإلى تلك العائلة جسديًّا فقط. تقيم في بيتنا أيَّامًا أو أسابيع، ونكاد لا نشعر بوجودها. فقط، كنَّا نسمع بكاءها متسلِّلًا من الغرفة الصغيرة التي تنام فيها، وكانت غرفتي في السابق. تبكي وتبكي بحرقة، ولا تعرف سببًا واضحًا لبكائها. إلَّا أنَّها معتادة على بكاءٍ يوميٍّ يغسل لها تلك الأوجاع المبهمة والعبثيَّة. سألتها إن كانت ماتزال تبكي، ابتسمت لي تلك الابتسامة الطافحة بالعذوبة.. وراحت تبكي. هل ذكَّرتها بالبكاء؟ لا أعرف. لكنَّها راحت تبكي وتبكي. ابتسمت لها برفق وشجَّعتها على الكلام. قالت إنَّها مغرومة بشابٍّ إسمه مهديّ. تعرَّفت عليه أمام الحاجز المنصوب عند بيت جدَّتها في حيّ المزرعة. كلّ مساء، عند عودتها من العمل تمرّ ببيت جدَّتها للاطمئنان عليها، تتوقَّف سيَّارة التكسي أمام الحاجز، وذلك الشَّابّ يطلب هويَّتها كلّ يوم، ويبتسم لها. إلى أن تجرَّأ وعبَّر لها عن مشاعره. ياسمين تقع في الحبّ أسرع من كتابة كلمة حب. أُغرمت به، وصارا يلتقيان في بيته في

حيّ المزّة. شعرتُ بغصّة في حنجرتي وهي تحكي لي عن مهديّ. قالت إنَّه كتب لها رسالة قبل دقائق ليخبرها بقرار نقله إلى حَرَسْتا، ليقاتل إلى جانب الجيش النظاميّ. وقالت من بين دموعها: «ما بعرف إذا بقا رح شوفه. يمكن يموت». وأنا أصابني دوار وضيق تنفُّس حادّ. نوبة هلع أمسكت بأنفاسي، وراحت تعصر صدري. ابتعلت حبّة كزانكس كاملة. قالت إنَّ أهله رفضوا تزويجهما، لأنَّها سنِّيّة وهو شيعيّ. شُلّت أطرافي ولم أعد قادرة على التّعبير. حتَّى إنَّني فقدت القدرة على التحكُّم بعينيّ لتنظران إليها برفق وحنان، لتخفِّفا عنها مصيبتها. هل أواسيها بانتقال حبيبها إلى جبهة حرستا؟ حرستا التي سكنها خالي قبل الثورة، واضطرّ للنزوح منها بعد أن قُصفت ودخلها الجيش، وداهم بيوتها وسرق أهلها؟ كيف أواسيها وحبيبها راح يقاتل ضدّ المدنيّين العزّل؟ سألتها كيف استطاعت أن تحبّ قاتلًا؟ استغربت سؤالي. قالت إنَّه يقاتل كي لا يُقتل. في سرِّي، رحت أردِّد عبارة واحدة: «انشاللّـه يُقتل». ردَّدتها.. إلى أن صارت صدى لا أميِّزه عن كلامها ولا عن أصوات السَّيّارات المارّة تحت شبّاك الغرفة. نهضتُ فجأة مقاطعة كلامها، وتوجّهت إلى الشُّبّاك، فتحته، مددت رأسي، ورحت أتنفَّس الهواء الرّطب والبارد، والمطر كان ينهمر رذاذًا. شعرت بالاختناق. عدت إلى الكنبة حيث أشيائي مرميّة على عجل، علبة الدُّخان وحقيبتي وشالي والمعطف. شعرت فجأة أنَّ تلك الأشياء المرميّة على عجل هي روحي، أو نتف من ذاكرتي. وراح ينتابني من جديد ذلك الإحساس بالضياع واللاإنتماء والانفصال عن الواقع. إحساس مربك بالخفَّة الثقيلة! رأسي يصير خاويًا، لكنَّني أحمله بمشقّة فوق كتفيّ. يلامسني إحساس بعدم الوجود، وتصير روحي منفصلة عن جسدي. تصير روحي هي عيناي! هي نافذتي على الخارج، بينما جسدي مخدَّر يتلمَّس طريقه ليتأكّد ما إذا كان موجودًا بالفعل. ياسمين

تبكي وتحكي عن مهدي، وأنا أختنق. ثم فجأة قاطعتها. رويت لها قصّة «الكيلوت». لا أعرف لماذا ذكّرني مهدي، بتلك القصّة التي سمعتها قبل عام، وظلّت ترافقني حتّى هذا اليوم. قصّة ضابط في الجيش، كُتبت فيه تقارير عديدة تلمّح إلى نيّته بالانشقاق، فاعتُقل. أخذوا منه كلّ ملابسه حتّى الملابس الداخليّة، وتركوه عاريًا. رموه في غرفة صغيرة مع آخرين عراة. رجل واحد فقط بينهم، كان يرتدي كيلوتًا. كانوا يحسدونه ويتساءلون عن قصّة الكيلوت. لماذا هم عراة وهو يستر عضوه بكيلوت مهترئ؟ لماذا هذا الرّجل تحديدًا دون غيره. كلّ صباح، يقتادونهم واحدًا تلو الآخر إلى جولة تعذيب عابرة في نهار طويل يشهد جولات أخرى. في أحد الصباحات، أعادوا «رجل الكيلوت» إلى الغرفة المملوءة برائحة أنفاس وقيح ومرض. رموه على الأرض، وكان منهارًا من شدّة التعذيب. كان ينزف من كلّ مكان وعيناه تبرقان رغم الوجع. كان يئنّ ونظراته غائبة وشاردة. ثمّ أغمض عينيه ورحل. سارع ضابط الجيش المعتقل لنزع الكيلوت عنه. كلُّهم سارعوا في الحقيقة. تصارعوا وتعاركوا، وشتموا بعضهم بعضًا، وبذلوا كلّ ما تبقّى من طاقة لديهم للفوز بالكيلوت. إلّا أنّ الضابط فاز به وارتداه. عندها عرفوا قصّة «الكيلوت». شخص واحد يفوز به، ولا يتخلّى عنه إلّا إذا أُخلي سبيله أو مات. صمتت ياسمين، وأنا اعتذرت منها، ومضيت أمشي في شوارع الحمرا تحت رذاذ المطر، أبحث عن الهواء وبعض الطمأنينة. كلا، لن نستطيع العيش معًا مجدّدًا. هكذا فكّرت».

هل فقد نسيم عقله؟ هل فقده في دمشق أم تحت ركام بيتهم في حمص أم في ألمانيا؟ أم في «فرع الموت والجنون» حيث قضى ثلاثين يومًا؟ لم يكن لنسيم أيّ علاقة بالمظاهرات، ولم يشارك بأيّ تجمُّع مثير للريبة. إلّا أنَّه كان يزورنا دائمًا، وعلاقته بفؤاد كانت طيِّبة. قبل اختفاء فؤاد بثلاثة أشهر تقريبًا، اعتقلوا نسيم، وكان خارجًا من بيته صباحًا. هم ظنُّوا أنَّه يزورنا ليجتمع بفؤاد. ثمَّ علموا أنَّه طبيب حمصيّ، فزادت الشكوك حوله. جرجروه إلى الفرع «٢١٥»، وكانوا يطلقون عليه فرع «الموت والجنون». أمضى فيه نسيم ثلاثين يومًا، في زنزانة بطول أربعة أمتار وبعرض خمسة. وقف نسيم مع تسعين معتقلًا آخرين. كان من المستحيل رفع الأيدي إلى الأعلى لشدَّة التصاقهم بعضهم ببعض. كتلة واحدة من الأجساد «مبتورة» الأيدي. جسم واحد تعلوه رؤوس يتجاوز عددها التسعين. قال لي نسيم إنَّ عددها ربَّما ٩٩، وكلّ رأس من بينها يحمل إسمًا من أسماء الله الحسنى. هناك الجبّار والمؤمن والشهيد والحيّ والحقّ والحليم والصَّبور... وأمّي لم تستطع يومها أن تبتلع كلمتها، فهمست في أذني: «ونسيم شو كان؟ الرقيب ولّا السميع؟». مال عليه الرأس الملاصق لرأسه، أمسك بيده، وهمس له: «هاد المكان.. بدنا نحبّه». ارتجفت تلك الكلمات في روح نسيم، هو الذي يرى الحبّ اعتيادًا! هل سيطول مكوثهم هنا حتّى يعتادوا المكان فيحبّوه؟ أيكون ناطق تلك الجملة هو «البصير» و«العليم»؟ لم يتعرَّض نسيم للضرب. لكنَّه كما حكى لي، تمنَّى الموت كلّ لحظة طول الثلاثين يومًا. حرارة المهجع تتجاوز الخمسين درجة بسبب الضغط والأنفاس المتراكمة كطبقات كتيمة، يصعب العثور بينها على جرعة صافية من الأوكسجين. تهترئ الأجساد هناك، يغزوها الجرب والالتهابات ودمامل يسكنها القيح. هناك، في ذلك المكان، يصاب الإنسان بالجنون. الكلّ يضرب الكلّ. إنَّه

صراع البقاء. المساجين يضربون بعضهم بعضًا بهدف القتل، ليحصلوا على فسحة أوكسجين إضافيَّة، على مساحة جسد، على مساحة تتيح لليد أن ترتفع إلى الأعلى قليلًا. بالكاد يأكلون ويشربون. النحول، سمة تجمعهم. العظام النافرة. الجلد الذي ينكفئ على نفسه ويغوص في جسد فارغ. عيون جاحظة، غائرة في حفراتها. الكلّ ملتصق بالكلّ، والكلّ يبرز من الكلّ. هناك ترى قدم سجين خارجة من فمِ آخر. ومن بطن أحد السجناء ينبت رأس سجين آخر. إنَّها مشفى مجانين. الكلّ يريد قتل الكلّ. الكلّ يغيب عن الوعي في لحظات معيَّنة، أو يدخل في نفق من الهلوسة، فيروح يزحف باحثًا عن شيء ما لا يعثر عليه على الإطلاق. بعضهم ينجو، وكثير منهم يموت.

بعد ثلاثين يومًا، قضاها نسيم في فرع «الموت والجنون»، اقتيد إلى الفرع «٢٢٧». هناك يبدو الوضع «أفضل» بكثير. عشرون معتقلًا في غرفة بطول سبعة أمتار وبعرض ١٢ مترًا. تعرَّض للتعذيب مرَّتين اثنتين بأنبوب حديديّ، يميل لونه إلى الأخضر بسبب الصدأ المتسرِّب إلى معدنه، يطلق عليه السجناء إسم «الأخضر الابراهيمي». كانوا يضربونه على الدمامل. وكان نسيم يحاول الانتحار عبر حكّ جسمه، وشلخ أعضائه. يحاول نزع جلده عن روحه. لكنَّها قاومت... وليس الجنون سوى شكل من أشكال المقاومة تلك. فؤاد شعر بالقهر، وراح يحمِّل نفسه مسؤوليَّة ما حدث مع نسيم. وأمّي تخفِّف عنه بقولِها إنَّ القدر شاء أن يُعتقل نسيم ليتحلَّى ببعض الشجاعة، لينفخ السجن في روحه ضميرًا يقظًا، فأهله يموتون في حمص تحت الحصار. وأنا لم أكن أجادلها بمسألة الضمير تلك، فهي لا تنفكّ عن تجريدنا منه أمام أقلّ هفوة أو تلكّؤ. هي التي فقدت أخاها في مجرزة حماة، ولم تفقد الأمل بعد برجوعه. أمضيت وقتًا طويلًا أتخيَّله عائدًا من اختفائه.

كان في الخمسين وقتها. إذن، لا بدّ أنَّه تجاوز الثمانين عامًا بكثير، إن كان فعلًا مايزال على قيد الحياة!

هل فقد نسيم عقله؟ قبل أيّام، كنت جالسة في تلك العيادة التي باتت أشبه بالمستشفى لكثرة الناس فيها. وبدل أن يزيد كميل عدد السّاعات المخصّصة لاستقبال الزوّار، قلّصها بحجّة أنَّ الأوضاع غير آمنة، وعليه تأمين طريق العودة إلى بيته في أزقّة «باب توما»، وليلى إلى «مساكن برزة». وزاد العطلة الأسبوعيّة التي كانت قبل الثورة يوميْ الجمعة والأحد، فصار يغلق العيادة السبت أيضًا. لم يعد الجلوس في تلك العيادة الصغيرة سلسًا، كما كان في السّابق. وأنا، ضاق المكان عليّ بعد رحيل نسيم، صرت أتلمّس دعسات قدميه صاعدًا أو نازلًا من العيادة. أتذكّر الكرسيّ الذي كان يواظب على الجلوس عليه، كانتماء إلى هذا المكان. أتذكّر نظراته الهائمة وشروده، ودخان سيجارته وهو ينفض رمادها في منفضة السّجائر، من دون أن ينسى النظر إلى ليلى في كلّ مرّة، وكأنّه يقدّم لها جميلًا.

أنظر إلى كميل، فألمح التعب محفورًا على تجاعيد وجهه. وأقول في سرّي إنّه للمرّة الأولى في حياته، يعيش معنا، نحن الخائفين الملهوجين والممزّقين، وحدة حال! بات مثلنا! يعاني ما نعانيه، يخاف مثلنا من الحواجز ومن التعرُّض للإهانة، يخاف من القذائف ومن الموت. سألته إن كان للجنون بداية واضحة؟ هل يبدأ الجنون فجأة أم بالتدرُّج؟ لماذا قد نفقد عقلنا ونجنّ؟ ابتسم ابتسامة عابرة تفتقر إلى التركيز، وسألني: «خايفة تجنّي؟» صمتُّ لحظة، ثمّ قلت له بلا تردُّد: «إي، خايفة جنّ فجأة، متل ما كبرت ماما فجأة». ضحك، ونفث دخان السيجارة، وهزّ رأسه بطريقة لا تخلو من المبالغة: «لا تخافي.. ما رح تجنّي إلّا إذا جنّينا كلنا». وأنا

حيَّرتني إجابته تلك. قبل الثورة، لم يكن كميل يتحدَّث عنَّا ككل. كان يحدِّثني عن نفسي بمعزل عن أيّ أحد. حتَّى إنَّني أهديته مرَّة لوحة، أصابني إنجازها بحالة هلع، قلت له إنَّ اللّوحة قد تساعده على استقراء ما يحرّك في ذاكرتي ذلك الخوف الهائل. رفض هديَّتي حفاظًا على مهنيَّة العلاقة بينه وبين زوّاره. خيط رفيع ومدروس للغاية، يحرص كميل كغيره من الأطبّاء والمحلّلين النفسيِّين على استبقائه بينه وبين المرضى. قطعت الثورة ذلك الخيط. قطعته بشكل حاسم. لم نعد نقف على ضفَّتين، بتنا كلّنا على الضَّفَّة ذاتها، حتى الشّبيحة الذين لا ينقطعون عن زيارته يقفون معنا، بيننا. وكميل يعتقد أنَّنا إمَّا نبقى سوِّيَّة أسوياء، أو نفقد عقلنا دفعة واحدة! وهل نمتلك جميعًا القَدْر ذاته من القوّة والثّقة؟ هل يُعقل أن تصل حالة كميل إلى هذا الحدّ من الإحباط ليعتقد أنَّ ما يحدث أقوى منَّا كلّنا، يفوق قدرتنا على التحمُّل، يتجاوز طاقة كلّ منَّا على حدة، لنصبح كلّنا وليس كل واحد منّا؟

حكيت له كيف أنَّني كنت في عيادة والدي في الطلياني. لا أعرف كيف دخلتها. العيادة الواقعة في الطابق الأوَّل من عمارة دمشقيَّة قديمة في منطقة عين الكرش، سقفها عالٍ. ثمَّة علِّية صغيرة، لها باب بحجم شبّاك. لا أعرف كيف وصلت إليها وجلست عند بابها. نسيم كان واقفًا هناك، ينظر إليَّ من الأرض. وكانت تلك عيادته في المنام. لم يكن مرتديًا المريول الأبيض. كان يرتدي بنطلون جينز وكنزة قطنيَّة بلون أخضر واهٍ. كان واقفًا، رافعًا رأسه باتِّجاهي، يقول لي برفق: «تعي.. انزلي حبيبتي». وأنا كنت مدهوشة من أنَّه قال لي حبيبتي، هو الذي لم يقلها سوى نادرًا. رفضتُ النزول. أردتُ البقاء هناك والاختباء، لا أعرف ممّاذا. ابتسم كميل. قال بشكل بديهيّ وكأنَّ الحلم كليشيه: «مشتاقة لأبوكي، استبدلتيه بنسيم».

«لم أكن أعرف أنّها الزيارة الأخيرة. تركت بيروت عند الساعة الثالثة عصرًا. في الأشهر القليلة الماضية، صرت أفضّل الذهاب مع حسّان بدل محمد. مع أنّني أعرف محمد منذ سنوات طويلة، إلّا أنّ أسئلته الملحّة عن الأوضاع، كانت توتّرني. لم تكن مجرّد أسئلة فضوليّة أو ترنو إلى تبادل الهموم والمآسي، بل كانت أعمق من ذلك وتحمل نفحة مخابراتيّة. قال لي مرّة: «إنو ما بقي غيره؟ يعني مدام ما تواخذيني بهالكلمة، أنتِ أفضل منه»! ومدّ رأسه إلى الأمام قليلًا لينظر إلى عينيّ في المرآة الأماميّة. صمتُّ. حسّان في الخمسينيّات، أكثر صدقًا من محمّد، حتى وإن تحدّث بما يجري في البلد، إلّا أنّه لا يخفي شيئًا وراء كلماته، مهما بلغت قسوتها.

تركنا بيروت في الثالثة عصرًا، ولم نصل إلى الحازمية حتّى الرابعة إلّا ربع. كان يوم جمعة والزُّحام في ذروته. قال لي حسّان: «عرفتي شو صار مع محمّد؟». ثمّ من دون أن يسمع إجابتي، تابع: «عطاكي عمره.. انقتل قبل أسبوع بجديدة عرطوز. في شبّيح مديّنه مصاري ومحمّد ما رجعّلو ياهن، قام قتله قدّام ولاده الشباب، كانوا معه بالسّيّارة». شعرت بالحزن والمرارة. فأنا على الرُّغم من معرفتي بعمله مع المخابرات، إلّا أنّني أعرف جيّدًا كم كانت أوضاعهم صعبة. لديه ثلاثة صبيان وأربع بنات، وكلّهم في البيت لم يكمّلوا دراستهم بعد. كيف لنا أن ننجو بين أخبار الموت والقتل اليوميّ؟ وهل منّا من يستحقّ الموت ومن لا يستحقّه؟ هل كانت مرارتي لتكون أكبر لو قُتل حسّان مثلًا؟ هل جعلت الثورة منّا أشخاصًا يحصون الموت ويقيّمون المرارة، بحسب تاريخ القتلى وأعمالهم؟ هل جعل منّا النظام الوحشيّ وحوشًا، نفضّل موت البعض عن الآخر؟

وصلنا إلى الحدود اللُّبنانيَّة ثمَّ إلى الحدود السُّوريَّة.. زحمة لا تُطاق. أسماء المطلوبين لم تعد مدوَّنة في مركز الهجرة والجوازات، بل عند الحاجز الأمنيّ الذي يليه. وصلنا إلى ذلك الحاجز، حيث يتجمَّع ضبَّاط صغار وكبار. معظمهم يضع سيجارة في فمه وشفتاه متدلِّيتان. نظرات اللّامبالاة ذاتها، تتطاير من أعينهم. وضجر ما بعده ضجر. حتَّى إن اعتقلوك، يعتقلونك بضجر، وكأنَّك حالة يوميَّة عاديَّة كما الرّشح. تفحَّص الضَّابط جواز سفري جيِّدًا. قال إسمي بصوت عالٍ. وأنا كنت أتعجَّب من تلك العادة. فهو يقول إسمي بصوت عالٍ، لأردّ عليه ويميِّزني من بين الرُّكَّاب الكثر مثلًا! لكنَّني كنت مع حسّان وحدنا في السَّيَّارة، فمن غير المنطقي أن يصيح باسمي فيردّ حسّان! كرَّر الإسم كاملًا، الإسم الثلاثي. أخذ جواز السّفر، ودخل إلى الغرفة الإسمنتيَّة الصغيرة المعمّرة على عجل، واتَّجه نحو الضَّابط الجالس وراء جهاز كومبيوتر صغير وبدائيّ. لمحته يتحدَّث إليه ويعطيه جواز سفري. ثمَّ استدعاني. قال لي حسّان بتوجُّس إنَّه لو حدث مكروه، سيكمِّل إلى دمشق، ويخبر أمِّي أنَّني اعتُقلت. نزلت من السَّيَّارة، وشعرت بقلق كبير. توجَّهت إلى الغرفة الصغيرة ودخلتها. رمقني الضابط الجالس وراء الكومبيوتر بنظرة احتقار، هزَّ رأسه، واهتزَّت السيجارة بين شفتيه. قال لي: «وين بيّك؟» ابتسمت لأداري ارتباكي. قلت له: «بابا راح من زمان». ضحك بسخريَّة، وسألني: «لوين راح؟ هرب مع الخونة اللي هربوا؟» قلت له: «راح يعني مات»، وتذكَّرت كميل تلك اللَّحظة. رفع حاجبيه بدهشة واستغراب. سألني عن تاريخ وفاته، فزاد استغرابه، عندما قلت له إنَّه رحل قبل خمسة عشر عامًا. أعاد النظر إلى الكومبيوتر وجواز السفر. «ليش عم تسأل عن بابا؟»، قلت له. فأجابني بلا اكتراث وبجرعة الضجر ذاتها، تلك الجرعة التي لا تزيد ولا تنقص:

«أبو كي مطلوب عالاعتقال، وبدنا نعرف وينه». قلت له إنَّه تشابه بالأسماء. رفع حاجبيه نافيًا. «والدك كاتب ما هيك؟» هززت رأسي أن نعم. «إي هو المطلوب عالاعتقال». أعطاني الجواز ورحلت. أيعتقلون الموتى أيضًا!؟

وصلت إلى البيت عند السَّابعة مساء. كانت أمِّي بانتظاري. قلت لها إنَّ زوجها مطلوب للاعتقال، وعليها أن تجد حلًّا. ثمَّ لا أعرف كيف طلعت هذه الجملة من بين شفتيّ: «اليوم، قبل قليل تحديدًا، على الحدود الشوريَّة اللُّبنانيَّة، مات بابا».

كما أفعل كلّ مرَّة أصل بها إلى دمشق، رحت أسوح بين الغرف متأمِّلة أغراضي وكتبي ودفاتري، والصُّور العديدة المعلَّقة على الحائط. أفتح خزانة ملابسي، وأكتشف مرَّة بعد مرَّة أنَّ معظم الثياب لم تعد صالحة لي بعد أن فقدت عشرة كيلوات من وزني في مدى سنتين. أنهت أمِّي تحضير المائدة، وكانت قد أعدَّت لي كلّ ما أشتهيه من طبيخ. وبرَّدت زجاجة النبيذ الأبيض التشيلي الذي أحبّ. جلسنا أمام التِّلفزيون نتحدَّث ونأكل ونشرب، ونستعيد وحدتنا، تلك التي عشناها بعد رحيل أبي المطلوب للاعتقال. عند منتصف اللَّيل، خرجت أمِّي من الصالون إلى المطبخ ربَّما، لا أعرف. تركت هاتفها على الطاولة. رنَّ الهاتف. رقم غريب. ـ ألو.. ـ مرحبًا مدام. ـ أهلًا مين؟ ـ ما بتعرفيني. ـ تفضَّل شو بتريد؟ ـمدام معقولي أبتعيدينا بالعيد؟ ـ ما فهمت. ـ مدام العيد مرق وما عيَّدتينا. فكَّرناكي عندك أصل، اطلعتي بلا أصل. ـ مين عم يحكي؟ ـ قلتلك أبتعرفيني. شو قاعدة مع بنتك مَتتعشوا؟ هلق وصلت من بيروت؟ بيروت أحلى من هنّا؟ شو مَتاكلوا وتشربوا؟...

ثمَّ أغلق الهاتف. وأنا أصبت بدوار ونوبة هلع اكتسحت جسدي. ضاق نفسي، وعرق غزير راح يقطر من كلّ جسدي. وإحساس بالوخز

كسا رقبتي وصدري وأصابعي وبطني. صحت لماما، وقلت لها بصوت مرتجف إنَّ أحدهم يراقبنا، وإنَّه ربما واقف على مدخل العمارة ينوي اقتحام بيتنا. أرخيت كلّ الستائر وأقفلت الباب، وتوجَّهت إلى غرفتي. ابتلعت حبَّة كزانكس كاملة. ارتميت على السَّرير، وتكوَّرت على نفسي. عانقت ساقيّ كطفل في بطن أمّه. وكان جسدي ينتفض كدجاجة مذبوحة. كلّ قطعة من جسدي كانت ترتجف. أسناني وعيناي ويداي وقدماي وبطني وقلبي، حتَّى معدتي كانت تقفز. عانقتني أمِّي، وراحت تحتوي ذلك الارتجاف القوّيّ بكلّ طاقتها. نصف ساعة من الارتجاف حتى تعبت، وبدأ مفعول الحبَّة يسري في أوردتي. استرخى جسمي واستعاد مرونته. ورحت أبكي وأبكي بحرقة. لم أستطع النوم تلك اللَّيلة. ولم أكن أعرف أنَّها ستكون الزيارة الأخيرة».

خرجتُ ذلك اليوم من عيادة كميل وكانت مكتظَّة كالعادة. طلبت من ليلى أن ترافقني إلى الباب الخارجيّ. سألتها إن كانت تمانع لقائي في المقهى القريب من العيادة، بعد أن تنهي عملها. قلت لها إنَّني أودّ التحدُّث معها في موضوعٍ مهمّ. وافقت ليلى شرط ألا نتأخَّر، لأنَّها تريد العودة إلى بيتها باكرًا.

انتظرتها هناك في محلّ العصير المطلّ على شارع الطلياني، حيث وسَّع صاحبه مساحته بأن وضع بشكل اعتباطيّ أربع طاولات على الرَّصيف آكلًا المساحة المخصَّصة للمشاة؛ واشترى آلة صغيرة تقدِّم القهوة الجاهزة. شارع الطلياني كان يغصّ بالمارة. امرأة خمسينيَّة، مكتنزة، تفترش الرَّصيف بالقرب من محل العصير. تضع على عينيها نظّارتي غوص! وفي فمها الأنبوب المخصَّص للتنفُّس تحت الماء! والموبايل على أذنها تتحدَّث بصوت عالٍ مع لا أحد على ما أعتقد. تقول إنَّها في البحر وستنتشل ابنها، لكنَّها لم تعثر حتَّى الآن سوى على حطام قارب ممزَّق. أحدٌ من المارَّة لم يكترث لكلامها، أو يضحك من منظرها تسبح على الأرض. حتَّى شرطيّ السَّير الواقف أمامها لم يعطِ كبير اهتمام لحديثها عن غرق ابنها، هاربًا من الموت في سوريَّة إلى موت آخر. وأنا تذكَّرت نسيم في تلك اللَّحظة. هل لأنَّها تضع نظارتيْ الغوص وتتنفَّس بالأنبوب، وتتحدَّث عن الغرق؟ أم لأنَّه سافر بالطريقة ذاتها إلى ألمانيا بصحبة والده المجنون والمشلول؟ ولم أسأله يومها كيف استطاع حمل والده إلى القارب، ومنه إلى الشاطئ، ومنه إلى الحدود اليونانيَّة، ومنها إلى ألمانيا. كيف كان ذلك الطريق الشاقّ؟ كيف تحمَّلت ذلك الشقاء وحملت والدك، أنت الذي لم تعتد على حمل جسدك وهو يفور بنوبات الهلع؟

جاءت ليلى، متعبة كعادتها، وجهها شاحب. طلبت فنجان قهوة بالحليب، وأشعلت سيجارة ونظرت إلى السَّيِّدة «الغوَّاصة» بلا اكتراث،

وكأنّها تراها كلّ يوم في عيادتهم. عاجلتها في السؤال: «ليلى أنت عندك أخ مريض؟» هالها سؤالي وخُيّل لي أنّه أربكها لا بدّ. مالت برأسها إلى جهة اليمين قليلًا، وأغمضت عينيها نصف إغماضة. وأنا، أصابتني برودة في أطراف أصابعي، وكأنّني مددت يديّ إلى ذلك البحر الذي تسبح فيه السّيّدة الآن. «بتعرفي إنّو عندي أخ مريض! حكيتلّك عنه كذا مرّة، ودائمًا بتطّمْني عليه! فقدتِ ذاكرتك؟»، قالت جملتها تلك، وابتسمت برفق تشوبه الدّهشة. وأنا شعرت بضياع، وتحوّل الرّصيف الضيّق إلى بحر شاسع أسبح فيه مع تلك المرأة. أيعقل أنّني أضعت نفسي في حكاية تلك الصبيّة مجهولة الإسم؟ لم أعد أميّز بين ما أعرفه وبين ما تعرفه هي! اختلطت حكاياتنا.. وكما أراني أحمل ذاكرتها بين راحتيّ، حمّلتها ذاكرتي وظننتها هي من تعرف قصّة أخ ليلى! هل فقدت ذاكرتي، وارتديت ذاكرتها؟ هل جُننت فعلًا؟ وهل جُنّ كميل في هذه اللّحظة أيضًا، معي ومع ليلى ومع المرأة الباحثة عن جثّة ابنها ومع شرطيّ السّير غير المكترث بحادثة الغرق تلك؟ هل تحقّقت نبوءة كميل وفقدنا عقلنا، كلّنا! ارتجف صوتي في فمي، ورفّت عيناي. إلّا أنّ بالًا لن يهدأ لي قبل أن أتعرّف إليها، مجهولة الإسم، تلك التي فقدت أباها كما فقدت أبي. تلك التي سرق نسيم حكايتي ليكتب عنها. نسيم الكاتب كوالدها والطبيب كوالدي. تلك التي سرقت منّي قصصي إلى حدّ أنّ ما رُوي لي ظننته في لحظة عميقة وواثقة، قد رُوي لها.

عندها تجرّأت وسألتها عن صبيّة لا أعرف اسمها كانت تواظب على زيارتهم، إلى أن توقّفت عن زيارة دمشق قبل ثلاثة أعوام. شردت ليلى. شعرت أنّها تفتّش في عينيّ عن تفاصيل أخرى. قلت لها إنّها كاتبة، في الثلاثينيّات من عمرها، وإنّ والدها مات عندما كانت في الرّابعة عشرة، وإنّها

تعيش في بيروت وكانت تصاب بنوبات هلع.. وتتقن الفرنسيَّة. ابتسمت ليلى، وقالت لي: «بتعرفي كلّ هالتفاصيل وما بتعرفي إسمها!» وارتجف صوتي أيضًا ورفَّت عيناي. قلت لها إنَّني صادفتها أكثر من مرَّة في العيادة، وكانت تتحدَّث معك بالفرنسيَّة. ومرَّة سمعتها تتحدَّث عن والدها بشكل عابر أثناء حديث عن والدك الرَّاحل. وأضفت لأعزِّز كذبتي، أنَّني افتقدتها في السَّنوات الثلاث الأخيرة لأنَّني لم أعد أصادفها، وأقلقني غيابها في هذه الأوضاع الصَّعبة. «بتعرفي انو إسمها سلمى؟ يعني إسمك مصغَّر عن إسمها»، قالت ليلى باسمة. عبارتها تلك صفعتني. وشعرت بارتخاء في ركبتيَّ. ورحت أسمعها تردِّد العبارة بلا توقُّف. وخفت. تلك اللَّحظة لم أستطع أن أداري ارتباكي. وليلى شعرت بذلك الارتباك ينهمر من عينيَّ على الطاولة التي نجلس قبالتها، ويطوف منها، ويسيل إلى الأرض ممتدًّا إلى السَّيِّدة السابحة في فضائها على الهاتف باحثة عن إبنها. لملمت ما تبقّى منّي، وسألتها لماذا توقَّفت عن المجيء إلى عيادة كميل؟ قالت ليلى إنَّ سلمى تلك تعيش في بيروت، وتعمل في دار نشر لبنانيَّة إلى جانب عملها في منظَّمة غير حكوميَّة تُعنى بأمور اللَّاجئين. ولم تعد تجرؤ على المجيء إلى دمشق، لأنَّها مطلوبة لأحد الفروع الأمنيَّة. ماذا قالت أيضًا؟ قالت إنَّها لم تسمع عنها شيئًا منذ سنتين. كانت تتَّصل بين الحين والأخر، ثمَّ توقَّفت. لا أعرف كيف تسرَّب الكلام من فمي، وقلت لليلى إنَّها لا تتَّصل خوفًا من ألَّا تعثر عليهما في العيادة. صمتت ليلى ولم تشعر بحاجة للردّ على استنتاجي. ثمَّ قلت لها إنَّني سأذهب إلى بيروت قريبًا لأشارك في معرض عن سوريَّة، وأودّ دعوتها. سألتها عن رقم هاتفها. قالت إنَّها لا تعرف رقمها، لكنَّها كتبت لي إسم دار النشر التي تعمل فيها. أمسكت الورقة بين أصابعي، ضممتها كالتعويذة.

وكذبت مجدَّدًا، إذ إنَّني توقَّفت عن الرَّسم منذ بداية العام ٢٠١٢. لم أعد قادرة على الوقوف أمام اللَّوحة القماش. أقف قبالة الأبيض، أمسك بالرِّيشة وأغمسها بالأزرق، ولا أقوى على رفعها إلى اللَّوحة. صرت أرى في ذلك البياض، الفراغ، لوحة. صارت الألوان شيئًا من العبث. وصرت أشعر أنَّ أيّ لون على اللَّوحة البيضاء سيخرِّبها. توقَّفت عن الرَّسم، واللَّوحة البيضاء ما تزال هناك في غرفتي، وقد باخ لونها وتسلَّل إلى نسيجها لون أصفر باهت.

إلَّا أنَّني قرَّرت الذهاب إلى بيروت.

لا أعرف لماذا لم يذكر نسيم شيئًا عن عملها؟ أو أنَّ مخطوط روايته ناقص وغير مكتمل. لماذا لم يذكر اسمها؟ سلمى؟ إنَّها تحمل اسمي كاملًا، وتحملني في روحها وأحملها في روحي. اسمها يكمِّل اسمي. كما قالت ليلى اسمي مصغَّر عن اسمها. إنَّها تحمل ذاكرتي وتتألَّم منها، كما أتألَّم أنا بالضبط حالمة بالتخلُّص منها دفعة واحدة، كما فعل والدي ذات يوم! أيكون نسيم قد كتب عنِّي، وليست القصَّة سوى تشابه بالأسماء؟ لكنَّها في بيروت وليست في دمشق، ووالدها كاتب وليس طبيبًا. إنَّها موجودة فعلًا! بدأت أضيع، وذلك الإحساس بعدم الانتماء إلى المكان صرت أردّه إلى أوراق نسيم. تلك الخفَّة الثقيلة التي أشعر بها تدور في رأسي، ليست سوى تلك الأوراق المرآة لي! أقرأ، فأعثر على نفسي بلا اسم ولا انتماء. هل استكثر عليَّ اسمي، فتركني بلا هويَّة؟

ذلك اليوم، أرسلت له رسالة صوتيَّة قلت فيها: إنَّني أنهيت قراءة المخطوط الذي أرسله لي. استمع إلى الرِّسالة، ولم يجب. كتبت له إنَّني أرغب بالتحدُّث إليه. كتب لي جملة مقتضبة: «لست بمزاج رائق». قلت له إنَّني ذاهبة إلى بيروت الأسبوع المقبل. لم يسألني عن السبب، ولم

يقل شيئًا. فقط صمت كعادته. حتّى صمته كان فيه من اللّامبالاة ما يجعلني كائنًا بلا مكان ولا نقطة ارتكاز.

أقول لكميل، إنَّ الموضوع لا يتعلّق بالجنون فقط. ليس الأمر بسيطًا إلى هذا الحدّ. «من شويْ كنتِ خايفة إنّك تجنّي، هلأ صار الجنون موضوع بسيط؟» يسألني بنبرة لا تخلو من السُّخريَّة، وشفتاه تمتدّان على ابتسامة مقتضبة كالعادة. قلت له إنَّ ما أشعر به أعمق من الجنون. أشعر أنّني غير موجودة، وأخاف. أروح أتأمّل كلّ ما تلتقطه عيناي بذعر. أحسّ أنَّ كلّ ما هو خارج جسدي ليس إلّا وهمًا أتخيّله. أفكّر أنَّ أمّي ليست موجودة، ولا فؤاد المختفي ولا أبي الراحل ولا نسيم. أو أنّهم موجودون بمعزل عنّي، لا يشعرون بوجودي، أنا أعيش متوهّمة وجودهم. ثمَّ تضيع الكلمات، وأفقد قدرتي على التّعبير. أهمس لكميل: «ما بعرف إذا عمّ تفهم عليّ!». يهزّ رأسه ويبتسم برفق: «عمّ إفهم.. عمّ إفهم.. كمّلي». أقول له إنّني أخاف أيضًا من ألّا أكون الآن جالسة في عيادته. وذلك الشعور بعدم الوجود أو الانتماء، يرهقني، يشعرني بوحشة فظيعة، وكأنّني على حافّة الموت. «الميت لا يموت!»، يقول كميل. صحيح، لكنْ أنا لست ميّتة بالنسبة إلى نفسي، بل غير موجودة، أو أنّكم كلُّكم غير موجودين، لستُ أو لستم سوى فكرة أتخيّلها عن الحياة. ثمَّ أرى دموعي تنهمر من عينيَّ. أقول إنّني أراها، لأنّني، في الواقع، لم أشعر بها تتهيّأ للنزول ولا ترتجف وراء جفنَيَّ. أصير منفصلة عن جسدي، وأراه يبكي، أرى عينيه تبكيان. أشعل سيجارة وأستلّ محرمة من العلبة القريبة منّي. أمسح دموعي. أقول له، وقد فتحت الدُّموع مسامات روحي للبوْح، إنَّ نسيم هو السَّبب، ربما في إحساسي بعدم الوجود. إذ كيف أشعر بوجودي مع شخص غائب، لا يشعر بوجوده! كيف أحسّ بجسدي بحضور غريب يعيش على حافّة الحياة، وكأنّه طيف

أو ظلّ. يهزّ كميل رأسه وابتسامة نصر خفيٌّ ترتسم على شفتيه، ليقول لي إنَّ بعثرة الرُّوح مكاشفة مع الذَّات وما ينبغي عليَّ فعله لا يتعدَّى جهدًا بسيطًا للعبور من الخفيّ إلى البيّـن. نعم، أعرف. إنَّه نسيم. ومن يكون سواه. ولا علاقة للأمر بسفره. فهو منذ كان موجودًا، لم أكن موجودة، ولا هو كان موجودًا. أيكون وهمًا؟ أيكون ذلك الرَّجل الممتلئ بعظام أعشقها، غير موجود؟ ثمَّ يأخذني كميل إلى ضفَّة أخرى، عندما يذكّرني بأنّني أصلًا لم أعشق نسيم، بل رجلًا آخر تخيَّلته، رسمت ملامحه، نحتّ عضلاته وعظامه، نفخت فيه الرُّوح وألبسته لنسيم. أيّ أنَّني أصلًا لم أعشق رجلًا موجودًا إلَّا في خيالي. ما إن يحطّ بي كميل على تلك الضّفَّة الأخرى حتَّى أشعر بالضياع من جديد، ويرتعش خلف أضلاعي إحساسي بعدم الوجود وبالخفَّة. تلك الخفَّة الثقيلة التي تجعل الجسد يابسًا، متينًا على الأرض كمسمار فولاذ. وتصبح الجاذبيَّة أكثر ثباتًا، وكأنَّها اكتُشفت اليوم فقط! كأنَّها لم تكن موجودة في يوم من الأيَّام، وها هي تحضر بكلّ طاقتها، وتدافع عن وجودها الأوَّل لتكرّسه. أشعر بثقل يجذبني إلى الأرض، ومؤخّرتي أشعر بها تلتصق بجلد الكنبة البنّيّ أكثر فأكثر، غير قادرة على زحزحتها ولو قليلًا.

كتبتُ له: «بنفسي من شفّني حبّه، ومَنْ حبّه باطنٌ ظاهرُ.. ومن لست أصبر عن ذكره، وهو عن ذكرنا صابر.. ومن إن ذكرَنا جفّ دمعه، ودمعي لذكري له مائر.. ومن لا أعرف الودّ في وجهه، ويعرف ودّي له الناظر». كتبتها مع تعديلات، لم أشعر أنَّها أخلَّت الوزن، إذ إنَّني حذفت (لا) من «ولا هو عن ذكرنا صابر».. واستبدلت جرى دمعه بـ«جفّ دمعه».. وأضفت (لا) على الشطر لأقول: «ومن لا أعرف الودّ في وجهه». أرسلتها له مساء عند عودتي من عيادة كميل. قرأها. صمت لثوانٍ، ثمَّ كتب لي

بالحرف: «ناسخة القصيدة غلط!». فكتبت له: «ما نسختها، حافظتها!».
فكتب على الفور: «الشي نفسه.. حافظتيها غلط!».. وصمت طويل قطعته أنفاسي المتقطِّعة واللّاهثة وراء الفراغ. ثمّ لمحت شجرة الزّيتون حيث دفنت نفسي، وتذكّرت النعوات في جارور المكتب الصغير في غرفة النوم. وبدأت تتداعى الأفكار.. ظهرت أمامي صور نسائه وأعينهن التي خرجت من الصُّور الملوَّنة تحدِّق في عينيّ، حضرني سفره المفاجئ وعدم دعوته لي لمرافقته، ثمَّ سمعت صوت الصفعات العديدة وهو يضرب نفسه، ثمَّ تذكّرت يديَّ، وأنا أعانق جسدي خائفة. وراحت زحمة الأفكار والذّكريات تلك ترتطم بعضها ببعض، وتوْرّق تنفُّسي وتفتح مساماتي على العرق. نوبة هلع جديدة، ورغبة عمياء بالتخلُّص من كلّ شيء، من كلّ حكاية عشتها، وفكرة خطرت في بالي، وصورة شاهدتها، وإسمي، إسمها. توالت دقّات قلبي. أمسكت الهاتف من جديد، كتبت له: «هل مازلت تتواصل مع سلمى؟». صمت، وتخيَّلته يصفع وجنتيه. ثمَّ راح يكتب ويكتب، حتّى ظننت أنَّه سيرسل لي مقطعًا من رواية، استمرّ في النقر على الأحرف لدقائق، ثمَّ ماذا؟ لا شيء.. سوى الصمت. لم يرسل لي حتى كلمة واحدة.

سحبت من جارور الكومّود الصغير الملتصق بسريري من جهة الشرفة، صورة له. تأمّلت ذلك الوجه الذي ما يزال جسدي يزقزق إن لمحه! ها هو حنيني يطفو إليه. ذلك الوجه الذي أعيش في مساماته، ضعت بعد أن اختفى عنّي. تأمّلت عينيه المخضلّتين بانطفاءة مقفلة وساحرة. وابتسامته يشوبها الغموض. ابتسامة مرسومة على طرف شفتيه من جهة اليسار فقط، بينما جهة اليمين تخلو من أيّ ابتسامة. رحت أضع يدي بالطول على نصف وجهه. أخبّئ النصف الأيمن من المنتصف

بالضبط، فأرى الابتسامة، يانعة، مورقة، تحمل فرح الدنيا كلّها. ثمَّ أخفي الجانب الأيسر، وأنظر إلى الأيمن، فأرى ذلك الحزن الممزوج باللامبالاة وتلك العبسة المدروزة بعمق بين حاجبيه. أعيد الكرَّة. تذهلني فكرة تلك الابتسامة التي تطلع من بين شفتيه بمشقَّة كبيرة، فلا تمتدّ على كلّ فمه بل على جزء واحد فقط، الجزء الأيسر. كأنَّها تفتح الاحتمالات كلّها على إمكانية التراجع في أيّة لحظة. ابتسامة غير مكتملة. نصف ابتسامة فقط.

كم حاولت رسم وجهه، والعبث بتلك الابتسامة النصفيَّة المخاتلة. أردت الاحتفاظ بها كلّها على القماش، استعادتها من فمه بلا تردّد. لكنَّني لم أستطع. فقدت قدرتي على الرّسم. وها أنا أمرّر الوقت في الكتابة مستعيضة بها عن الرسم. هل لأنَّ نسيم استعاض بالكتابة عن الطبّ؟ هل لأنَّه حمل روحه بين راحتيه، ووجد في الكتابة فسحة فضفاضة أكثر من معاينة المرضى في احتضارهم الأخير؟ هو لم يحلم يومًا بدراسة الطبّ، لكنّ أمَّه أرادت أن يكون ابنها الوحيد طبيبًا. صار طبيبًا ناقص الموهبة والجرأة. ولم يفعل سوى قتلها مرَّات ومرَّات. وعندما ماتت فعلًا، لم يكن هناك، ولم يمتلك فرصة إنقاذها. روى لي كيف أنَّه في أحد الدروس العمليَّة، وكان في السّنة الثالثة أو ربَّما الرَّابعة، سقط على الأرض أمام زملائه بعد أن شاهد مشرط الأستاذ يفتح بطنًا ما! قال لي إنَّ بطن الرَّجل في المشرحة كان بطنًا حقيقيًّا، وإنَّه أحسّ بالمشرط ينغرز في الجلد واللَّحم الطريّ، وسمع صوت احتكاك الحديد بالكتلة الطَّريَّة تلك. شمّ رائحة ما، ولمح لونًا أحمر، تعرّق وسقط في إغماءة أثارت سخريَّة زملائه. «لن تكون طبيبًا». نقطة. هذا ما قاله له الأستاذ الطبيب، بعد أن استعاد وعيه.

لا أعرف متى غفوت. كانت الصورة ماتزال بين يديَّ بتلك العينين المنطفئتين والابتسامة غير المكتملة.

كنت جالسة في حضنه على الكنبة الصغيرة في صالون بيته. خفقة ضوء ناعمة تمدّ طرف لسانها إلى قدميّ المتدليّتين على الأرض. دفنت رأسي في صدره الباذخ، وشممت تلك الرّائحة المبلّلة بالمطر تضوع منه. قلت له إنّها تمطر في الصالون، وعلينا أن نسقفه قبل أن يشتدّ الشتاء. لم يقل شيئًا. رفعت رأسي، فلم أرَ سوى نصف وجهه. وكانت خفقة الضوء الرشيقة تلك قد تعربشت على قدميّ إلى وجهه آكلة نصفه الأيسر. فلم ألمح سوى نصف شفتيه العابستين. رحت أمسك بكمشة الضوء من الجهة اليسرى لوجهه، لأزيحها عنه. أقسم أنّني استطعت الإمساك بها بين أصابعي. كانت مغمّسة بالندى، ولملمسها طعم الطراوة. حاولت إزاحتها، وكنت أتلوّى رغبة لطرف الفم الآخر، المبتسم. وحشة فظيعة تمتدّ إلى صدري ما إن ألمح وأبتلع ذلك الطرف الواجم والأسيان من وجهه. قال لي: «ماذا تفعلين؟» أمسكُ كمشة الضوء، وأحاول إزاحتها. قال: «لكنّك تؤلمينني!» كففت عن إزاحتها، وأصابعي ارتخت من جديد فوق فخذيَّ. قال لي: «لماذا مزّقتِ صُوَري؟ لماذا احتفظتِ بالأعين فقط؟» قلت له، وكأنّني على دراية بما يتحدّث عنه: «لأنَّ العين مرآة الرُّوح، وفي عينيك روحي». فأجابني: «في عينيّ روحك، وفي عينيك أرواحهنّ». استفقت مذعورة، وبين يديَّ، تهتزّ صورته.

انتظرت الصَّباح لحظة بلحظة. تركت أمّي وحدها جالسة على الكنبة تقرأ في الصفحة ذاتها، ربَّما.. لم أعثر على طاقة للتحقُّق من ذلك. رحلت في التاسعة إلَّا خمس دقائق. وعلاقتي بالوقت يحاديها وسواس ما. فأنا لا أفضّل المواعيد المتَّفق عليها في أرباع السَّاعة وأنصافها. أحبّ السَّاعة مكتملة، تاسعة أو عاشرة أو ثامنة! وإن اضطررت لضرب موعد ما في التَّاسعة والرُّبع مثلًا، لا أجرؤ على ترك البيت في التَّاسعة، وهو وقت أكثر من كافٍ للوصول، بل أتركه في التَّاسعة إلَّا ربعًا. بينما لو كان الموعد في التَّاسعة لتركت البيت في التَّاسعة إلَّا ربعًا. ركبت سيَّارة فؤاد السَّوداء من نوع «بيجو ٢٠٦». الشوارع كانت شبه فارغة، وكان يوم جمعة. ركنت السَّيَّارة بجانب بيته بالضبط، وكان الحاجز المحاذي خاليًا إلَّا من ضابط يقف بضجر. تذكَّرت ياسمين صديقة سلمى التي عشقت ذلك الضَّابط أمام الحاجز المفضيّ لبيت جدَّتها في المزرعة. دخلت إلى بيته. أضأت كلّ الأنوار.. وكان الصَّباح. توجَّهت إلى المطبخ الصَّغير. سخَّنت الماء، وغليت ركوة قهوة صغيرة. أرخيت السّتارة رمشة عين، بحيث تدخل خفقة ضوء واحدة كما في الحلم. جلست في حضن الكنبة في المكان نفسه الذي كنت جالسة فيه قبل ساعات في حضن نسيم. دخَّنت سيجارة، واحتسيت قهوتي ببطء شديد. ذلك البطء، أشعرني من جديد بأنَّني غير موجودة، وبأنَّني لا أسيطر على نفسي. وليس ذلك البطء سوى الدليل. هل أبتلع نصف حبَّة الآن؟ في التَّاسعة والنصف صباحًا؟ أليس الوقت مبكِّرًا؟ وهل مايزال للوقت أثر يذكر! أخذت حبَّة كاملة، وقضمتها بأسناني كي أحصل على نصفها أو أكثر بقليل. لأنَّ «الكزانكس» انقطع عن الصيدليَّات، إذ بات الاستيراد أصعب من قبل، ولم يعد لديهم سوى «بازولام» وهو يحمل التركيبة

ذاتها المسمّاة بـ«ألبرازولام»، الفرق الوحيد بينه وبين «الكزانكس» هو أنَّ الحبَّة مدوَّرة وليست بيضويَّة، وأكثر سماكة وقساوة فلا يسهل قسمها باليد. كما أنَّها أبطأ في الذوبان، فلا ينفع وضعها تحت اللِّسان، وإذابتها قبل ابتلاعها مع الماء ليسهل تسرُّبها إلى الدم صعودًا إلى الدماغ، ممَّا يبطئ مفعولها. أرخيت رأسي على ظهر الكنبة وأغمضت عينيَّ، وفار شوقي لنسيم. شعرت بجسدي يمور في رغبة لعناقه، لارتشاف رائحته الطريَّة والأليفة. ثمَّ دلفت إلى غرفته. فتحت الجارور، وأخرجت الصور من جديد. أمسكت بها صورة بعد الآخرى. رحت أمزِّقها محتفظة بأعينهنّ. رميت كلّ النتف الباقية، ولم أحمل معي إلى البيت سوى تلك الأعين. وكانت أوّل لوحة أرسمها منذ سنوات. لم يكن رسمًا بالمعنى الدَّقيق للكلمة. ألصقت الأعين إلى جانب بعضها بعضًا، عين تخرج من الأخرى على اللَّوحة البيضاء التي باخ لونها. صوَّرتها وأرسلتها لنسيم. رآها. استغرق وقتًا طويلًا في تأمُّلها.. وصمت.

ذلك المساء، لم أقل لكميل.. أشياء كثيرة كنت أنوي أن أقولها. أردت أن أقول أنْ لا رجال في حياتي أيضًا، مثلي كمثلها. أبي مات باكرًا، فؤاد اختفى، نسيم سافر. وها أنا أجلس وحيدة مع أمِّي، كما تجلس هي وحيدة مع أمّها. أردت أن أطلب منه فتح أحد تلك الجوارير الباردة، وإخراج ورقتها. أردته أن يكمِّل لملمتي مستعيدًا ما بعثره منها. أردت أن أسأله لماذا أطلق سراحها وحرَّرها منه، وأنا مازلت حبيسة تلك العيادة، حبيسة أوجاعي وهواجسي وذلك الفقدان الكبير الذي يلوذ بروحي، وتلوذ به؟ ما هو التَّفصيل الذي جعلها قادرة على التحليق في فضاء مشاكلها، دون الاستعانة بكميل يمسك بيدها من ضفَّة إلى أخرى؟ هل أحبَّت رجلًا تخيَّلته مثلي؟

ذلك المساء، لم أقل لكميل... لكنّني خرجت من عيادته كتلة واحدة، لا أشعر بانفصال يديّ عن جسمي ولا ساقيّ ولا رأسي ولا شعري. كنت كتلة واحدة، ولا أعرف كيف مشيت! كيف يمكن لكتلة واحدة أن تحرّك قدميها وتسير؟ لا أذكر كيف وصلت إلى البيت! فقط، أذكر ذلك الشُّعور العارم بالحرّ، حرّ تئنّ منه الشَّمس بذاتها. أخذت من الثلاجة كيس ثلج وزجاجة ماء. تمدَّدت على سريري، وضعت الزجاجة بين ساقيّ والكيس فوق رأسي. انسكبت الدُّموع من عينيّ وارتججت بالبكاء. لم أعرف إن كان ذلك الارتجاج بفعل البرد أم البكاء.. لا فرق.

في الحقيبة الصغيرة، لم أضع سوى ما يكفيني ليومين اثنين. قلت لأمّي إنَّ صالة عرض في بيروت تنوي تنظيم معرض عن سوريَّة، وإنَّها دعتني ليومين اثنين، لنناقش المشروع وإمكانيَّة مشاركتي مع فنَّانين آخرين. نظرت إليّ أمّي بعدم اكتراث، وقالت بنبرة لا تخلو من السُّخريَّة: «معرض عن سوريَّة!؟» لم أجبها. ماذا تريد أمّي؟ أن أحمل سلاحًا وأنزل إلى الشارع وأقاتل إلى جانب من يقاتل؟ هل تحتمل أمّي كلّ هذا الفقدان؟ أخاها وزوجها وابنها وابنتها؟ هل مايزال في قلبها متَّسع لفقدان جديد؟ لم أجبها. قبّلت جبينها، ورحلت.

اجتزنا الحواجز العديدة المنصوبة على عجل قبل الحدود الرسميَّة. هويَّتي كانت معي، لكنّني لم أبرزها. استخدمت جواز السفر الصادر في دمشق. والدي أراد أن ينقل نفوس العائلة إلى دمشق، إلَّا أنَّ الأمر كان بمثابة معجزة أمام انهيار أمّي. قالت له إنَّها تحمَّلت جبنه كثيرًا، تركت أهلها في حماة وهربت معه ومع ولديها، وليس الهروب هذا سوى التنازل الأخير. خيَّرته بين الهوِّيَّة الدمشقيَّة وحياته الزوجيَّة. وظلّ قيد نفوسنا في حماة حتى يومنا هذا.

لم أبرز هويَّتي. نظرت في عينيّ الضَّابط وهو يحدِّق طويلًا في جواز سفري، يقلِّب صفحاته من اليمين إلى اليسار، وبالعكس. لا أعرف عمَّاذا كان يفتِّش بالضبط، فجواز السَّفر الذي أحمله يخلو من أيّ فيزا، ولم تعكِّر صفحاته سوى بضعة أختام لزيارات قديمة إلى بيروت. رمى الجوازات لنا وكنَّا أربعة. امرأة ستينيَّة وابنتها في العشرينيَّات وشابّ في الثلاثينيَّات وأنا. صمت جليل طوال الطريق الفاصل بين دمشق والحدود اللُّبنانيَّة. ما إن اجتزنا الحدود، حتى تحوَّلت السَّيَّارة الصَّغيرة إلى مكان فسيح يعجّ بالحكي. كنَّا كخرسان استعدنا النطق للتوّ. بدأت المرأة الستينيَّة تغدق عليّ بأسئلة عن سبب زيارتي لبيروت، وعن مكان سكني في دمشق، وعن الأوضاع. والشَّابّ الثلاثينيّ الجالس أمام السَّائق راح يشاركنا الحديث، ويحكي عن عمله في بيروت كعامل بناء، وكيف أنَّه حتى الآن لم يستطع إحضار زوجته وأولاده. قالت الستينيَّة المحجَّبة إنَّها نصحت ابنتها بنزع الحجاب، إذ لم يعد هناك الكثير من الرِّجال في المدينة! حتَّى محلات الملابس والبقاليَّات، تديرها النساء.

وصلنا في الواحدة ظهرًا. لم آتِ إلى بيروت منذ سنوات طويلة. طلبت من السَّائق اصطحابي إلى فندق نظيف ورخيص في شارع الحمرا. الزُّحام كان خانقًا، وأنا ابتلعت نصف حبَّة قبل الحدود السُّوريَّة اللبنانيَّة. وابتلعت نصفًا آخر، عندما لمحت بيروت في الطريق الملتوي النازل من عاليه، يكسوها الغبش كأنَّها حلم، كأنَّني غير موجودة. كنت هادئة بعض الشيء رغم الزّحام وأصوات الزمامير. ركن السَّائق سيَّارته بالقرب من باب فندق بائس، قال إنَّه رخيص ونظيف. دخلت بخطى ثابتة، أنا التي جئت للقاء نفسي. استقبلني شابّ في الثلاثينيَّات، طلب جواز سفري، وشرح لي أنَّ الفطور في الطابق الأوَّل يبدأ في السَّادسة وينتهي في

العاشرة. وقال إنَّ أيّ ضيف يزورني مطالب بإبراز هويَّته الشَّخصيَّة لأسباب أمنيَّة. ودلَّني على المصعد القديم والمعتِّم. صعدت وقلبي بدأ يبرطم في صدري. دخلت إلى غرفتي في الطابق الثالث. صغيرة، جدرانها بيضاء، شرفتها تطلّ على عمارة، تتدلّى على شبابيكها وشرفاتها ستائر سميكة وثقيلة تحجب الأنظار عن سكّانها. دخلت إلى الحمّام الصَّغير جدًّا، ملأت البانيو بماء فاتر. خلعت ملابسي وارتميت هناك، حتى غمرت المياه كتفيّ ولامست ذقني. استرخى جسدي وفاش. إلّا أنَّ وصول الماء إلى رقبتي أشعرني بالاختناق، فارتفعت قليلًا بوضعيَّة الجلوس، ورحت ألاعب الفراغ تحت الماء بيديَّ. ثمَّ بكيت وبكيت.

لا أعرف من أين خرج والدي في هذه اللَّحظة النادرة من الاسترخاء في بانيو فندق غريب، رخيص، في بيروت، منتصف شارع الحمرا المزدحم! من أين طلع والدي وأطلّ عليّ برأسه بحنان! شعرت بحنين إلى لحيظات منه. شوق يمتدّ على كلّ خلية من جسدي المتفتِّحة مساماته تحت الماء المالحة. وكأنَّ فنادق بيروت تذكّر نزلاءها بأنَّهم قريبون من البحر، فتدلف خزّاناتها مياهًا مالحة. وأبي أطلّ عليّ وأنا غارقة حتَّى صدري. غمرتني حاجة ملحَّة لعناقه، للاختباء في صدره، للرُّجوع إليه. لطالما أدهشتني تلك الحاجة بالرُّجوع إليه، وكأنَّني ولدت من بطنه، وليس من بطن أمّي. وكأنَّني كنت هناك، أتطوَّى في وحدتي، طوال التِّسعة أشهر! أشتاق إلى الرُّجوع والاختباء فيه، لا أعرف أين بالضبط، لكنْ فيه، داخله. ألا يمكن للداخل أن يكون محسوسًا من الخارج؟ كيف لا، وأنا لا أكاد أتذكَّره حتى أشعر بتلك الحاجة إلى الإحساس بداخله من الخارج. كان يحبُّني. صحيح. أعرف بداهةً أنَّ كلّ أب يحبّ ابنته، لكنَّه أحبَّني أكثر من ذلك البديهي. تحكي لي أمّي كيف أنَّه انتظر قدومي منذ حبلها بفؤاد.

كان يريد بنتًا يسمّيها سليمى، فكان فؤاد. كانت أمّي تقول ساخرة إنّه كان سينتظرني، حتى لو حبلت عشرات المرّات، حتى لو أنجبت بناتًا، سيظلّ ينتظرني أنا! وأنا لا أفهم، كيف يمكن له أن ينتظر كائنًا لا يعرفه! هو أراد بنتًا، أيّ بنت. ترفع أمّي رأسها، وتزفر تنهيدة لا تخلو من الضجر، ثمّ تقول: «لا لا كان ناطرك أنتِ تحديدًا». وكنت أشعر بإدانة ما وراء جملتها. وكأنّني جزء من خيبتها المزمنة منه. وكأنّني شريكته في كلّ ما عاشته معه من مرارة. وأنا حتى اليوم لا أعرف معنى واضحًا لمرارتها تلك. لم أره يومًا يصرخ في وجهها، أو يتذمّر من سخريّتها أو يسخط أو يتأفّف.. حتى إنّني كنت أتعجّب من قدرته على تحمُّل لومها المتصاعد بوتيرة ثابتة، حتى يصل إلى صراخ مهين. أكثر ما كان يبدر عنه، الانسحاب من البيت إلى العيادة أو المقهى. لا أذكره تنهّد ولا مرّة واحدة في وجهها. كان يحترمها ويحبُّها ويداري غضبها، ويستوعب ألمها على أخيها وعائلتها. كان يدلّلها أمام أصدقائهم، وأسمعه يحكي عن شجاعتها النادرة، وعن وضوح رؤيتها وعن غيرته منها. يقول إنّه كان سيضيع لولا شجاعتها تلك. فلا أفهم مرارتها ولا عيشها المعلقم معه، كما كانت تصفه في مرّات كثيرة!! وأنا الآن أشتاق إليه أكثر من أيّ وقت مضى. كلّما تذكّرت نسيم، أشتاق إليه أكثر! كلّما حضر نسيم، ابتعد بابا أكثر!

لم يكن أبي جميلًا طوال طفولتي، إلى أن صار جميلًا فجأة عندما بلغت العشرين، ربما. وليس الموضوع بهذا البساطة. لم يكن جميلًا، لأنّني لم أكن أنتبه إلى ملامحه. أمّي كانت تطغى على ملامحه وتطوف عليها، فلم نكن نلمح سواها. ننتبه، فؤاد وأنا، إلى نحول جسمها ورشاقتها وظهرها المشدود دائمًا، ورأسها المرفوع إلى الأعلى بلا تصنُّع، وكأنّها ولدت على هذا الشكل. نلاحظ أناقتها وملابسها الـ«سينييه» التي تشتريها من محلّ

فخم في دمشق، يستورد بضاعته من أوروبا. ننتبه إلى أحذيتها الجلديَّة الملوَّنة على الموضة وتنانيرها القصيرة التي تكشف عن ساقين مرتويتين وممشوقتين. ولم نكن نلمح تفاصيل أبي ولا ملابسه ولا أحذيته.. إلى أن اكتشفت في يوم من الأيَّام أنَّه كان جميلًا، جذَّابًا، ملامحه حادَّة وواضحة، وفي عينيه هدوء نبيل، وكأنَّ البؤبؤين يسبحان في بحيرة ساكنة. شعره الكثيف ناعم، ولا يشبه في تسريحته موضة الخمسينيَّات والستينيَّات. ملابسه أنيقة وشبابيَّة. جسمه ممشوق، يميل إلى النحول. انتبهت إلى أنَّ فتنته تلك كانت مطمورة تحت طبقات من الهموم والكدر. نعم. إنَّ الفتنة ليست مظهرًا لا إراديًّا. إن وُجدت، تحتاج إلى جهد بسيط لتنجلي، وأبي، لم يكن يمتلك أيَّ طاقة ولو هزيلة ليظهر لنا كما هو، بل كما أرادت له أمِّي أن يكون. في تلك اللَّحظة، شعرت بكراهيةٍ ما نحوها. شعرت أنَّها حرمتني منه قبل رحيله، وأنَّها ضيَّعت عليَّ سنوات طويلة كان في وسعي أن أغرف منه وأغبّ وأمتلئ به، فلا أحبّ من أتخيَّل، ولا أستعير ذاكرتي عن الملامح أو الرَّوائح أو الإحساس بملمس الجلد والعظام تحت أصابعي، لأحبّ. بل أسيب نفسي لرجل أكتشفه بروائحه كلّها، وصوته الشُّجاع أو الهشّ. حرمتني أمِّي من أبي، فحرمتني من الامتلاء به. ليس عدم الامتلاء مجرَّد نقصان أو فقدان. يلامس جدار الرُّوح كلّ لحظة، لأنَّه ناقص. كجسدي الآن في هذا البانيو الغريب. لو أغمره كلّه لما شعرت بالنقصان. ما إن أرفع رأسي ورقبتي خارج الماء حتى أشعر به يلامس كتفيّ. لا أعرف إن كنت أجيد الشرح. عدم الامتلاء يحفّ بالرُّوح عند الخطّ الفاصل بين الامتلاء والنقصان، فتنشغل الرُّوح به مع كلّ شهيق وزفير، وتتوه عن نفسها، فتشتاقها. إنَّني إذ أشتاق إلى أبي، إلى عدم امتلائي به، أشتاق إلى روحي أيضًا التي أضعت جزءًا فارغًا منها إلى الأبد.

بكيت وبكيت. شعرت بوحشة خانقة في الحمّام الصغير، والماء صار ملمسه حارقًا على جسدي. لم أعرف إن كان الملح أم أنَّ شعورًا بالفقدان يلسعني. خرجت. لففت المنشفة حول جسدي. أشعلت سيجارة، واستلقيت على السَّرير الضيّق. فتحت جزداني. أخرجت الدَّفتر الصَّغير. رفعت سمّاعة الهاتف، وكبست الأرقام كما كتبتها ليلى قبل أيَّام بالضَّبط. ردّ رجل يوحي صوته بعمر يلامس الخمسين. طلبت التحدُّث مع سلمى. قلبي كاد يخرج من وراء أضلاعي من عزم ضرباته. عندما يطرق قلبي في صدري، أشعر من عزم الطرْق أنَّه صعد إلى حلقي، وأكون على وشك الاختناق به. لن أنسى تلك الثواني القليلة، التي فصلت بين صوت الرَّجل ينادي سلمى وبين إمساكها سمَّاعة الهاتف. كان الزمن بطيئًا كأنَّه الأزل. وأنا صرت أشعر بأطرافي ثقيلة، والسمَّاعة التي أمسك بها استحالت صخرة بين يديَّ، أحملها بمشقَّة لأثبّتها على أذني. صرت أحرّك قدمي لأتأكَّد من أنَّ الزمن يمشي بسرعته المعتادة، وليس أبطأ ممَّا هو. أحرّكها في الهواء بسرعة، فأرتبك لأنَّها أسرع من شعوري بالزمن. إلَّا أنَّ ما زاد شكوكي في مسألة الزمن تلك، هو أنَّني تركت السمَّاعة، وقفزت من سريري. أدرت المكيّف وأخفضت الحرارة إلى ست عشرة درجة، وعدت إلى السَّرير، ملتقطة السيجارة بين أصابع يدي اليسرى وسمَّاعة الهاتف بيدي اليمنى. أيَّ أنَّ الزمن كان بطيئًا بالفعل، أو أنَّه بطيء في الضِّفَّة الأخرى، عند سلمى، بينما كان يكرّ بين يدي وقدمي بسرعته المعتادة!

سلمى؟ هل تسمعينني جيّدًا؟ أنا في فندق لا أكاد أذكر اسمه، منتصف شارع الحمرا، منتصف الطريق بيني وبينك. إنَّني أقف على الحافَّة كما اعتدت دائمًا، لا أجرؤ على الغوص في عمق الأشياء، أفضّل

الحوافّ. حينها فقط، يسهل عليّ الهرب. لا أستطيع إغماض عينيّ إن نمت وسط سريري الكبير، أختار أقرب نقطة إلى الطرف. لا أخاف من السُّقوط ليلًا بقدر خوفي من الوسط. في المسرح والسينما، أختار الكرسي الأوّل المطلّ على الممرّ، ولا أحبّ الصفوف الأولى، إلّا إن كانت الأبواب تفضي إليها مباشرة. في السَّيَّارة، أجلس عند الشُّبَّاك، ليتسنَّى لي فتحه، ومدّ رأسي منه لأتنفَّس. أقود السَّيَّارة من الجهة اليمنى للشارع، لأطمئن إلى إمكانية الوقوف والهرب متى شئت! في السَّنوات الأخيرة، صرت أطلب من إبن جيراننا أن يستعير سيَّارتي ليملأها وقودًا، بعد أن صارت محطات البنزين مزدحمة، والسَّيَّارات تقف أرتالًا، ملتصقة بعضها ببعض إلى حدّ يصعب معه الانسحاب من الرتل الطويل. ماذا أيضًا؟ أكره الثلوج، لأنَّها تعطِّل الحركة وتشلّ القدرة على الهرب. مثلك عندما أحاط بكم الثلج في منطقة ضهر البيدر، وأصابكِ ذعر من أن تموتوا ميتة جماعيَّة. قبل ستَّة أعوام، أغلقت الثلوج شوارع دمشق، هل تذكرين؟ أنا أذكر جيّدًا كيف أرخيت ستائر غرفتي وأطفأت الأنوار، وابتلعت حبَّة كزانكس، واختبأت تحت اللِّحاف منتظرة ذوبان الثلج وانفراج الطُّرقات. لا أقفل باب التواليت في المطاعم والمقاهي. أحكم الإمساك بقبضة الباب كي لا يفتحه أحد، لكنَّني لا أجرؤ على إقفاله خوفًا من أن أعجز عن فتحه. قبل نحو شهرين، انقطعت الكهرباء كالعادة، وكنت في المصعد، انهمرت من يدي الدِّماء من عزم طرْقي على باب المصعد، خفت ألا يسمعني أحد وأن أموت في ذلك الصندوق الصغير بحجم تابوت. وها أنا أتحدَّث إليك جالسة على طرف السَّرير في غرفة بابها غير مقفل، وشرفتها الصغيرة تطلّ على شارع وليس سدًّا، منشفة رقيقة تلفّ جسدي العاري، الهواء يخرج باردًا من المكيِّف،

ويضرب بجسدي فيخفّف من حدَّة نبضات قلبي، ومع ذلك، لست مطمئنَّة لإمكانيَّة الهروب في أيّ لحظة أشاء.

هل هو صوتك؟ هل رنّته جعلتني أشعر نفسي مقيَّدة هنا؟ هل لأنَّك تنتظرين جوابًا منّي؟ عن هويَّتي؟ ذلك اليوم فقط، عرفت أنَّ الهويَّة ليست مجرَّد اسم أحمله أو مكان ولدت فيه أو أهل أنتمي إليهم. إنَّها ذاكرة بأكملها، لم أعرف كيف أبوح لكِ بها! من أين أبدأ؟ ليس ترتيب التواريخ وتوضيب المشاعر أمرًا بديهيًّا بالنسبة إليَّ. هل مازلتِ تسمعينني؟ أنا سليمى. فمن تكونين أنت؟ عندما أصاب بنوبات هلع في البيت، أهرول إلى غرفتي كالمجنونة، أقف قبالة المرآة الطويلة المثبّتة إلى الحائط، أروح أتأمَّل وجهي فيها، وانعكاسة عينيّ، ألمس فمي بعينيّ في المرآة، وأمرِّر أصابعي فوق سطحها البارد، ألمس أنفي ووجنتيّ، فلا أشعر بأثر اللَّمسة على وجهي! أصاب بالخوف. هذه أنا في المرآة، لكنَّني لا أشعر بها. لا أستطيع إحداث فجوة في خدّي مثلًا، إن كبست إصبعي على الخدّ في المرآة. إلَّا أنَّ القلق ينجلي شيئًا فشيئًا، وأنا أحدّق بنفسي هناك على السطح الأملس، فأتأكَّد من أنَّني واقفة بكلّ طاقتي، أتنفَّس. إن استطعت أن ألمح نفسي، فهذا يعني أنَّني مازلت على قيد الحياة.

أنا التي عشقت شخصًا اخترعته، ولم أعد قادرة على العثور عليه. كيف نخترع أحلامنا وكيف نفقدها في غمضة عين، دون أن ننتبه؟ أيكون الواقع أشدّ قساوة من الخيال؟ نسيم هزم خيالي عنه، وأعادني إلى استفاقة «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا!» لا أعرف إن متّ فانتبهت. فأنا تساورني الشكوك حول ما إذا كنت موجودة بالفعل أم أنَّني اخترعت وجودي ذاك، كما اخترعت نسيم واخترعتك ربما. وليس للأمر أيّ صلة بموتنا الذي خطّط له نسيم، واخترعه متنبّهًا إلى أدقّ التفاصيل، من أسباب موتنا إلى

شكله والجنازة والمشيّعين وأكاليل الآس، وتلك الرّائحة اليابسة التي ترافق الموكب في رحلته الأخيرة.

أليست حكايتك، حكايتي، هي آخر ما أشعرني بوجودي فعلًا؟ قرأت عنك، فعثرت على قدميّ تخطوان إلى عيادة كميل ومنها. عثرت على هلعي وقلقي المزمنيْن. على ذلك الإحساس بالوحشة والتخلّي عن كلّ ما يتجاوز جلدي. أما يزال هناك معنى للقائنا؟ أليس لقاؤنا ككتابة اليوميّات التي نصحك كميل بالابتعاد عنها؟ أن نلتقي، هو بالضبط كذلك الفعل القاتم والكئيب، فيه استعادة لكلّ حياتنا، أنتِ وأنا. سأرى عينيّ في عينيك، وسألمح كلّ تلك الذاكرة التي حلمت بالتخلّص منها، ومازلت. سأرى نسيم وأوراقه في خوفك. سأقتسم معك حبّة الكزانكس، ولن أسألك عن ارتباكك كي لا أزيدك ارتباكًا. ولن تسأليني. لن تكوني قادرة على السؤال، الخوف يشلّك وينخر عميقًا في روحك. هل أحملك في قلبي وأعيدك إلى مدينتك التي تحبّين؟ هل أحملك إلى كميل الذي لا تجرؤين على الاتّصال به؟ هل كان عليّ أن أحمل معي أوراقك من جوارير كميل الباردة، كبرّادات الموتى؟ أم أنَّ أوراقي كانت لتكون كافية، لتفهمي ذلك الخوف المنهمر من العينين؟ هل أوراقي هي أوراقك؟ هل أقول لك إنَّ نسيم لم يكتب لك ورقة نعوة؟ أم أنّه فعل ذلك وأعطاها لك، فدفنتيها في تربةٍ ما كما فعلتُ أنا؟

اتّفقنا على اللّقاء مساء في مقهى في الأشرفيّة. قلت لها إنّني رسّامة سوريّة قادمة من دمشق، أحمل رواية كتبتها، وأريد مساعدتها في النشر. كنت أنوي أن أعطيها هذه الرواية كما هي، باستثناء الخاتمة التي لم أكن قد كتبتها بعد. والوقت يتسرّب بطيئًا. ماذا أفعل بقلبي النهدان وجسدي المنهك؟ نظرت إلى المرآة المربّعة قبالة السّرير، عثرت على نفسي متعبة،

أشفقت عليها بقدر اشتياقي لها، لاستعادتها، لضمّها إليّ والاحتفاظ بها إلى الأبد.

أذكر الآن كيف كان نسيم يستفيق كلّ صباح، يجلس على حافّة السّرير، ثمّ ينهض ببطء، ويمشي بخطى يشوبها القلق، يقف قبالة المرآة وينظر إلى نفسه. يحكي لي كيف أنّه كلّ صباح، كان يخشى ألا يجد نفسه في المرآة! يتخيّل أن يقف هناك، وينظر إلى السطح البارد الأملس، فلا يعثر إلّا على الفراغ! مرّة نام على كنبة الصالون تفاديًا لمواجهة المرآة صباحًا. روى لي كيف أنّه استيقظ صباحًا مذعورًا، وكان ممدَّدًا على ظهره، ساقه اليمنى مثنية عند الرّكبة، وقدمه اليسرى تعلوها وتسند الجدار الملتصق بالكنبة. ما إن استفاق نسيم، حتى اختلطت عليه الأمور. مَن يسند مَن؟ هل الجدار يسند قدمه اليسرى أم قدمه هي من تسند الجدار؟ خاف وبدأ العرق يتسرَّب رخوًا من كلّ مساماته، وهو يدفع الجدار بقدمه خوفًا من أن يسقط عليه! لا أذكر إن كان حلمًا رواه لي أم أنَّ الأمر قد حصل بالفعل.

ارتديت ملابسي. سرَّحت شعري الطويل، وقد اكتسب وزنًا وسماكة بفعل رطوبة بيروت. تفحّصت أشيائي، تأكّدت من أنّني لم أنسَ علبة الدُّخان ولا الرواية ولا علبة الكزانكس. دخلت المصعد الصَّغير والخانق، ونزلت إلى البهو. سألت عامل الاستقبال عن كيفيّة الذهاب إلى الأشرفيّة، فاقترح أن يطلب لي سيّارة أجرة. انتظرت دقائق قليلة وخرجت. ركبت في السّيّارة الأنيقة، وقلت للسّائق اسم المقهى في حيّ الأشرفيّة. لم يكن الزحام كما كان لدى وصولي. وأصوات الزمامير لم تعد تلعلع.. ومع ذلك، ابتعلت نصف حبّة لأهدأ. توقّف التكسي وسط ساحة ساسين، وأشار لي بإصبعه نحو المقهى.

نزلت من السَّيَّارة ملتاشة، أشعر بدوار خفيف. مشيت ببطء لأستبقي نفسي أكثر وقت ممكن بعيدًا عن تلك المرآة، غير الملساء وغير الباردة، ربما. اقتربت أكثر فأكثر. كانت السَّاعة تشير إلى السَّابعة والنصف. المقهى المطلّ على الشارع، غير مزدحم على الإطلاق. لمحت صبيَّة في الثلاثينيَّات تجلس هناك وحدها. شعرها مرفوع على عجل، تتدلَّى منه بعض الخصل. تتأمَّل الطريق والسَّيَّارات والمارَّة، في نظرتها شيء من اللَّامبالاة، تمسك بسيجارتها وترتشف نبيذًا أبيض، كما بدا لي من بعيد. وهل يحلّ النبيذ الأبيض محلّ الكزانكس؟ هل هو بالنسبة إليها كنصف الحبَّة التي ابتلعتها قبل لحظات؟ أم أنَّها ليست بحاجة إليها. فأنا لست بالنسبة إليها كما هي بالنسبة إليَّ؟ اقتربت أكثر. صار باستطاعتها أن تراني. لكنَّني توقَّفت هناك، على الرصيف، أمسك بجزداني وأبتعد بنظري عنها، كي أبعد عن رأسها فكرة أنَّني أنا. أنَّني هي. أنَّني تلك التي اتَّصلت بها اليوم لتلتقيا.

تلك المسافة التي تفصل واحدتنا عن الأخرى، كانت كافية ليصلني قلقها. ملامحها متحفِّزة والقلق يفور من عينيها. لم ألمحه في وجهها، بل رأيته يكرّ ويسيل تحت قدميها متَّجهًا نحوي. لا أعرف إن أقلقني قلقها، فأنا في العادة، الهدوء هو ما يزيد قلقي. عندما أصاب بنوبة هلع، يؤرّقني هدوء الآخرين ولامبالاتهم. في المقابل، لا يريحني قلقهم عليّ أو نظراتهم المبهمة السابحة في جهل عميق بما أصابني. خيط رفيع ومدروس ومحكم الإيقاع يفصل بين اللامبالاة والقلق. أحتاج عادة إلى ذلك الخيط من الاهتمام غير المسرف لكي أهدأ. قلّة هم القادرون على بذل ذلك الخيط وحياكته.

ليس قلقها ما أقلقني، بل المساواة بين قلقينا هو ما جعلني أقف ملتاشة على حافَّة الرصيف، ألتقط أنفاسي. قلقها كان يعادل قلقي ويساويه،

ويشبهه في الشّكل والرّائحة. وكأنّني لا أكتفي بإحساسي بالقلق، بل أراه أمامي أيضًا وأختبره مرّتين، مرّة في روحي ومرّة أمام عينيّ. أحسّ به يئنّ وراء صدري، وأتفرّج عليه. ها هو يملأ كل حواسي ويطوف. تمنّيت لو أغمض عينيّ وأرحل، لا أعرف إلى أين! الحاجة الملحّة إلى الهروب اجتاحتني من جديد، واشتقت إلى أبي. رحت أفكّر كيف أنّ من يشعرني بالأمان ليس موجودًا. أبي مات وفؤاد اختفى ونسيم سافر، ولم يبق لي سوى أمّي. وتساءلت إن كانوا يشعرونني بالأمان حقًّا، أم أنّني أتوهّم ذلك، لأنّهم اختفوا دفعة واحدة. لو أنّ أمّي غير موجودة، لجعلتها ربما الأمان الذي أفتقده. هل أخترع القلق؟ هل اعتدت عليه منذ ولدت وشهقت الشهقة الأولى؟ هل أتقصّد ذلك الإحساس الغامر بالفقدان والحرمان؟ لا أعرف شيئًا. لست قادرة على التّفكير حتّى. لا أعرف كم مرّ من الوقت، لكنّني لمحتها تنظر إلى شاشة هاتفها، فتخيّلتها تتفقّد السّاعة وقد فات على موعدنا وقت لا بأس به. لكنّني لم أشعر أنّ تأخُّري هو ما يقلقها. ثمّة قلق عميق ينسكب على جسدها وحركة يديها الثقيلة وكتفيها المتهدّلتين. ثمّة ارتخاءة تظلّل جسمها. إنّه الخوف.

كنت واقفة هناك، أتأمّلها، أتأمّل قلقي ينعكس على قلقها أو العكس، ولم أكن قادرة على أن أخطو خطوة واحدة أبعد من الحيّز الذي رسمته لنفسي على حافّة الرّصيف وسط ساحة ساسين. أشفقت عليها. شعرت أنّها وحيدة. وأنا كنت أزيد من وحدتها تلك اللّحظة تحديدًا. وعلى الرّغم من تلك الشفقة، إلّا أنّني شعرت برغبة بتكريس وحدتها ليوم واحد فقط. فكّرت بكميل، لو كان معي ذلك المساء لقال لي: «إنّك تزيدين من وحدتك وليس من وحدتها». فهي تجلس في مقهى أليف بالنسبة إليها، في مدينة تسكنها منذ أربع سنوات ونصف السنة، تنتظر شخصًا مجهولًا،

تحتسي كأس نبيذ أبيض بهدوء وتدخّن. وأنت تقفين غريبة، على رصيف غريب في حيّ غريب ومدينة لا تعرفينها كما ينبغي لامرأة تريد تكريس وحدة شخص آخر! نعم، أنت الوحيدة هنا، لا تملكين سوى حيّز جسدك.

قلت لكميل مرّة إنّني لا أفهم قلقي وذلك الخوف من الخوف. سألني إن كنت أريد التخلّص من الخوف نهائيًا. «لو عطيتك حبّة بتروّح الخوف، بتاخديها؟» أجبت بنعم. ابتسم كميل، ورفع رأسه نافيًا مصدرًا من فمه صوتًا مقفولًا يشبه «تشوء». قال إنّ الخوف يحميني بشكل أو بآخر. الخوف ليس سوى حالة دفاع ووسيلة حماية، اخترعتها لأستطيع العيش في مكان لطالما شعرت بعدم الانتماء إليه. قال إنّه محرّض على الحياة، ولولاه لخسرت دافعي للعيش. لم أفهم تلك النقطة تحديدًا. كيف يمكن للخوف أن يكون دافعًا للعيش؟ ثمّ سألني عن أبي: «كان موسوسًا عليكِ؟» أخذت نفسًا عميقًا، ورحت أداعب تلك الذاكرة البعيدة جدًّا والحاضرة في الوقت ذاته. قلت إنّه لم يكن «موسوسًا عليّ»، بل كان يراقبني من مسافة يبدو أنّه ظنّها كافية كي لا ألاحظ، إلّا أنّني لاحظت جيّدًا. كان يراقبني وأنا آكل. يجالسني. يفتح فمه في الهواء وأنا أفتح فمي، ويغلقه على اللّقمة في الهواء أيضًا، ويمضغ الفراغ في فمه بينما أمضغ طعامي. كلا، لم أسرق قصّة سلمى. هذا ما كان يقوم به والدي أيضًا. وإن كانت سلمى تلاحق والدها كالظلّ، فأنا كان والدي هو ظلّي. يرافقني في البيت وبين غرفه العديدة، وكأنّنا في نزهة. يساعدني في إنجاز دروسي. يقلقه مرضي أو ارتفاع حرارتي. يحرص على عدم تفويت موعد قراءة القصص قبل النوم. ابتسم كميل، وسألني: «ماذا حدث بعد ذلك؟» لم يكن ينتظر إجابة منّي. أردف: «مات». صمتّ، إذ لم أفهم. رفع حاجبيه السميكين، وقال: «مات.. لم يعد هناك من يراقبك.. ها أنت ترتدين

ذلك الدور، وتقومين بمهمّة مراقبة نفسك لتستطيعي العيش». نعم، أكاد لا أفعل سوى مراقبة نفسي. منذ اللّحظة التي أفتح فيها عينيّ صباحًا، أبدأ بعدّ أنفاسي، ومراقبة الشّهيق والزفير، وملامسة العرق المتسرّب من مساماتي، وتفحُّص مدى برودته لأميّز بين نوبة الهلع والجلطة القلبيّة. ألامس بطرف سبّابتي الوريد البارز في عنقي، لأحصي نبضات قلبي. أستشعر داخلي كأنّه الخارج، وله ملامح واضحة. فأشعر بكلّ عضو على حدة، المعدة والمصران والمريء والحنجرة والرئتين والمثانة والكبد. أحسّ بأضعف حركة في داخلي، فأتأهّب. ضجرت من ذلك الخوف وذلك الجهد المسرف في استقصاء جوفي وجعل اللّاشعوري شعوريًا. أحوّل التنفُّس مثلًا من فعل لاإراديّ إلى فعل إراديّ، أتفرّج عليه وأنظّمه وفقًا لحالتي النفسيّة.

لا أعرف ماذا أصابني! رحت أمشي بعكس السّير. أهرول كمن يريد الهرب من خطر يلاحقه، كذلك الحلم الذي طاردتني فيه أمواج البحر وأنا أقود السّيّارة مع نفسي صاعدتين إلى بيت في أعلى التلّة. هل كان ذلك حلمي أم حلم سلمى؟ لم أعد أذكر.. رحت أهرول إلى اللّامكان. لا بيت أعود إليه الآن، لا نسيم ولا فؤاد ولا أبي. اشتقت إلى أمّي فجأة. ماذا تفعل الآن يا ترى؟ لماذا لم أتّصل بها لأطمئنها عنّي. هل لأنّني افترضت أنّها غير قلقة؟ أو لأنّها نسيت ربما أنّني سافرت إلى بيروت. أو أنّها لم تنتبه إلى غيابي، غارقة في صفحة الكتاب، الصفحة (٢٤)! لا يهمّ. اشتقت إليها، وشعرت برغبة في الاختباء بين ذراعيْ تلك المرأة التي كبرت فجأة، وتظنّ أنّها فقدت ذاكرتها وعقلها. كنت أمشي بسرعة كبيرة، وقد تلاشت كلّ الكراهية التي اختبرتها اليوم وأنا أفكّر بأمّي. تلاشت أو انكفأت على نفسها، وقد تمدّ رأسها في أيّ لحظة أخرى. إلّا أنّني في

هذه اللَّحظة تحديدًا جعلت أمّي مسكنًا لابتلاع حرماني من رجال انتميت إليهم، فرحلوا. مشيت حتَّى أدركني التعب. ركبت سيَّارة أجرة وعدت إلى الفندق. كانت السَّاعة قد تجاوزت الثَّامنة والنصف بقليل. أعدت ترتيب أغراضي القليلة في الحقيبة الصغيرة. تأكَّدت من أنَّني لم أنسَ شيئًا، وقرَّرت العودة إلى دمشق. لا أريد أن أستفيق في هذه المدينة الغريبة، ولا أريد أن أغفو بعيدًا من أمّي وشرفتي وشجرة الزيتون الصغيرة. لا أريد أن أنام في مدينة لم يمت فيها أبي، وحيث لم يُختطف أخي. بيت نسيم هناك في دمشق. أنا لا بيت لي. إلَّا أنَّ شيئًا ما ينتظرني هناك، ولا شيء يستبقيني هنا.

كانت أمّي نائمة في سريرها. قبّلتها. فتحت عينيها. لم ترتعد أوصالها من رؤية ابنتها بعد منتصف اللّيل! ابنتها التي سافرت إلى بيروت، وكانت ستبيت فيها لأكثر من ليلة، ربما. أمّي كعادتها، لا أعرف من أين ينبع هدوؤها المفرط. قلت لها إنّني عدت وسأنام. ابتسمت وأغمضت عينيها مطمئنة. وأنا دلفت إلى سريري.

فكّرت في أن أقتلها تلك اللّيلة كما يفعل نسيم. أن أقول إنّني عدت من بيروت مشتاقة إليها كما لم أشتق إليها يومًا. لم أرنّ الجرس خوفًا من إيقاظها. فتحت الباب على مهل، وتسلّلت على رؤوس أصابعي حاملة الحقيبة كي لا تصدر صوتًا على البلاط. لمحتها جالسة على الكنبة الحمراء تقرأ. اقتربت منها. كان رأسها منخفضًا، جسمها يابسًا. هززتها برفق، فلم تجبني. انحنيت على الأرض لأرى وجهها. عيناها مغمضتان. على فمها ترتسم ابتسامة بالكاد تظهر. ناديتها: «ماما»، كما نادت أمّ سلمى لأمّها في وداعها الأخير لبيت طفولتها. لم تجبني أمّي. احتضنتها بين ذراعيّ، احتضنتها كلّها. ألم أرجع من بيروت في حاجة ملحّة لحضنها؟ لتحضنني وليس لأحتضنها. كيف ماتت وتركتني وحدي مع كلّ هذا الفقدان والحرمان؟ ارتجّ جسمي بالبكاء وصوت أنين موجوع يخرج من فمي وعيناي مخضلّتان بالدّموع، وأنا تائهة في صالون صغير استحال أرضًا شاسعة لا حدود تؤطّرها. وما أصعب العيش بلا حدود، بلا جدران، بلا سقف. لم أقوَ على النهوض. كنت ملتاعة وضائعة. كيف سأدفنها وحدي؟ كيف سأقوى على العيش بلا طمأنينتها على فؤاد؟ كيف سيمرّ اليوم من دون الصفحة (٢٤)؟

..ثمّ لم أفعل. لا طاقة لي على اختراع هذه الحالة المرهقة من القلق والفقد. لا أملك هواء كافيًا للعيش دون خوفي من رحيلها. فهي إن ماتت، سينجلي الخوف. لن يبقى خوفًا حقيقيًا أدافع فيه عن حياتي.

استيقظتُ على صراخ أمّي يلعلع في أنحاء البيت. نهضت مذعورة من سريري، وأقسم إنني رأيتُ قلبي يحدث نتوءًا تحت صدري من عزم ضرباته، كتلك التي يُحدثها نسيم من عزم صفعه لوجنته. ركضت متغلباً على لهاثي. كانت أمّي في الحمّام تصرخ وتولول. فتحت الباب، فوجدتها واقفة تضع يديها على وجنتيها في حالة ذعر وذهول. رأتني، فأشارت بإصبعها إلى خرطوم الماء المعلّق إلى جانب التواليت العربي. كانت أمّي تصرّ على إبقاء تواليت الضيوف عربيًا كي تستخدمه هي. لا تطيق الجلوس على التواليت الإفرنجي، فتلامس أثر أجسامنا وأجسام الضيوف. فَقَدَ الخرطوم المعلّق لونه الأبيض وتحوّل إلى لحم! كان أحمرَ قانيًا، يلتمع لحمه وينزّ من شدّة طزاجته. حاولت مشاركتها الصراخ، لكنَّ صوتي ظلّ حبيسًا في حنجرتي ووراء صدري. حاولت وحاولت دون جدوى. رحت أفتح فمي قدر استطاعتي محاولة إخراج الصرخة، لكنّها بقيت عالقة هناك، تحفّ حلقي وتوجعني. فتحت عينيّ، وكانت يدي تلفّ عنقي والعرق ينهمر من جسمي وقلبي مضّطرب. شهقت لأتأكّد من أنّني قادرة على الصراخ، وأنَّ لي صوتًا منفصلًا عن صوت أمّي. نهضت من سريري وكانت السّاعة السّابعة إلّا ربعًا. مشيت في الكوريدور وإحساس بالوحشة يغلبني. لمحت أمّي تحتسي قهوتها وكتابها على الطاولة أمامها. انتبهت إليّ. استدارت نصف استدارة. ابتسمت لي. قالت: «جيبي فنجان، القهوة سخنة». وأنا.. كانت رائحة خرطوم اللّحم تملأ أنفي، وتفور من معدتي مخلّفة طعمًا صدئًا. ابتسمت لها، وتوجّهت إلى المطبخ متفادية النّظر باتّجاه حمّام الضّيوف حيث يتدلّى خرطوم اللّحم الطازج.



سُليمى مرتبكة أمام تلك الأوراق التي أرسلها إليها نسيم، الرجلُ الوسيمُ صاحبُ العظام البارزة. وتكتشف، وهي تلتهمها كلمةً كلمةً، وتلهث وراءها حرفًا حرفًا، أنّها روايةٌ ناقصةٌ، أقربُ إلى سيرة امرأة مصنوعة من الخوف، مثلها تمامًا. ماذا أراد نسيم؟ أن تكتب سُليمى النهايةَ بعد أن استغرقه الخوفُ ولم يقوَ على إنجازها؟ هل افترض أنّ اكتمالَ روايته سيكون كاكتمال القمر في قلب سُليمى يومَ حلِمَتْ بنفسها تتدلّى عن سطح عمارةٍ دمشقيَّةٍ واطئة؟

ديمة ونُّوس: كاتبة سوريَّة. صدرتْ لها مجموعةٌ قصصيَّة بعنوان تفاصيل، ورواية كرسّي عن دار الآداب.

لوحة الغلاف: محمد عمران

دار الآداب

هاتف: ٨٦١٦٣٣/ ٠١
٧٩٥١٣٥/ ٠١
بيروت - لبنان

ISBN: 978-9953-89-541-3

